

شعر قبيلة مذحج في الجاهلية والإسلام

حتى آخر العصر الأموي (سنة ١٣٢هـ)

جمعاً وتحقيقاً ودراسة

القسم الأول (الدراسة)

المجلد (الأول)

تأليف

محمد بن عبد الله منور آل مبارك

نادي جازان الأدبي ، ١٤٢٠هـ (ح)
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أل مبارك ، محمد بن عبد الله منور

شعر قبيلة مذحج في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي سنة ١٣٢هـ - جدة

٣٨٤ ص - ١٧ × ٢٤ سم . (سلسلة الرسائل الجامعية : ٢)

ردمك ٧-٣٤-٦٢٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٥-٣٥-٦٢٢-٩٩٦٠ (ج ١)

١ - الشعر العربي - العصر الجاهلي ٢ - الشعر العربي - عصر صدر الإسلام

٣ - مذحج (قبيلة) - شعر أ - العنوان ب - السلسلة

٢٠/٣٦٦٢

ديوي ١، ٨١١

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

جميع حقوق الطبع محفوظة

منشورات نادي جازان الأدبي







إهداء

إلى أبي :

... بعض ثمار غرسك

ابنك

محمد



كلمة النادي

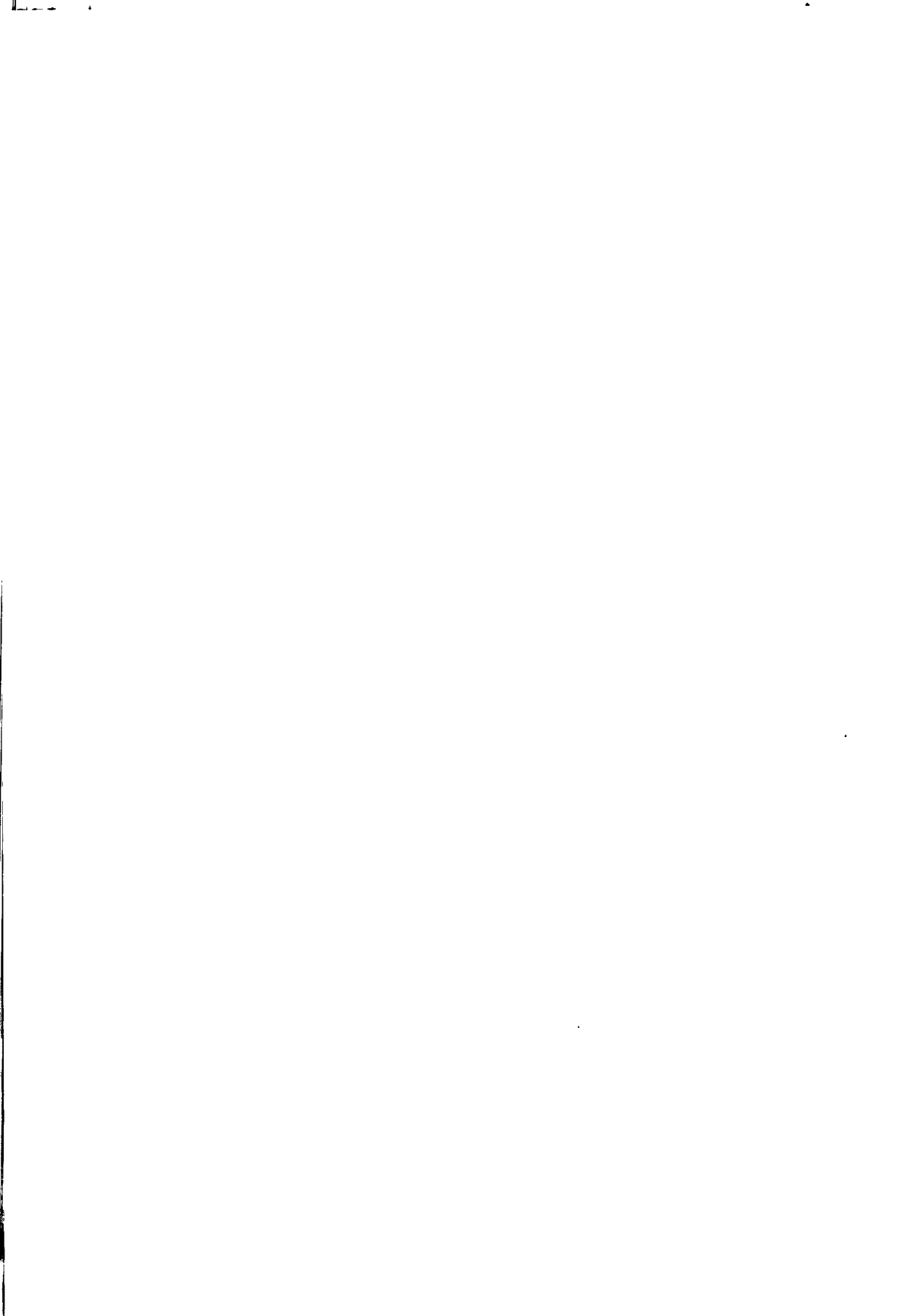
هذا الكتاب حلقة في سلسلة الرسائل الجامعية التي عقد النادي الأدبي في جازان العزم على إصدارها، والفكرة ليست جديدة، بل هي متكررة الطرح في توصيات مؤتمرات الأندية الأدبية واجتماعاتها وتهدف إلى تشجيع الأعمال الأكاديمية المحكمة المنقحة علمياً المستوفاة منهجياً بنشرها على الملأ وإخراجها من عزلتها في مكاتب الكليات والجامعات التي نوقشت فيها إلى الساحة الثقافية النابضة بالجديد والمفيد .

والنادي الأدبي في جازان إذ ينشر هذا السفر القيم الموسوم بـ: (شعر قبيلة مذحج في الجاهلية والإسلام حتى نهاية العصر الأموي جمعاً وتحقيقاً ودراسة) للأستاذ/ محمد بن عبد الله منور المبارك، فإنه يأمل أن يضيف إلى حقل التحقيق والدراسة لأشعار قبائل الجزيرة العربية نبتة مثمرة بإذن الله، فشعر قبيلة مذحج لم يجمع في عمل غير هذا الذي بين أيدينا، وقد استحق معده أن يحوز درجة الامتياز بعد مناقشته في كلية اللغة العربية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العام ١٤١٢هـ، وقد أعده الباحث محمد ابن عبد الله منور المبارك بإشراف الأستاذ الدكتور المحقق عبد العزيز بن محمد الفيصل أستاذ الأدب العربي في تلك الجامعة .

إن النادي الأدبي في جازان يسعد بتقديم هذا العمل إلى الساحة الثقافية ويعد بمواصلة المسيرة وتقديم أعمال أكاديمية محكمة أخرى تخدم الأدب العربي من خلال «سلسلة الرسائل الجامعية» .

والله المستعان ،،،

النادي الأدبي في جازان



تقديم

هذا الكتاب رافد من روافد موسوعة شعر القبائل العربية التي نسعى إلى اكتمالها على المدى البعيد، (ومن سار على درب وصل). قد يكون السير بطيئاً، ولكن امتداد الزمن يتيح لنا أن نصل في النهاية، فإذا تضافرت الجهود، والتزم بالمنهج، فإن النتيجة ستكون في خدمة تراث أمتنا العربية والإسلامية .

وشعر القبائل جدير بالتوجه إليه لأسباب كثيرة منها :

- ١ - وجود قصائد ومقطعات في شعر المقلين لا تقل أهمية عن شعر الكثيرين .
- ٢ - جمع شعر القبيلة يتيح للشاعر المقل أن يحفظ شعره ضمن شعر القبيلة.
- ٣ - الاقتداء بالأوائل في جمع شعر القبائل، فلم يتوجهوا إليه إلا لفائدة في جمعه، وممن اهتم بجمع شعر القبائل: حماد الراوية، وأبو عمرو الشيباني والمفضل الضبي، والأصمعي، وأبو عبيدة، والسكري، ولم يصل إلينا في هذا العصر إلا ما جمعه السكري، وهو شعر هذيل .
- ٤ - خدمة اللغة العربية، في نحوها، وصرفها، ومفرداتها.
- ٥ - خدمة التفسير، بحيث تتوافر الشواهد المنسوبة إلى القبيلة .

ولو أتيح لهذه الموسوعة أن تكتمل لنقضت بعض الأحكام المألوفة، مثل القول بأن الشعر لم يكتمل إلا في زمن امرئ القيس، أو القول بأن الشعر عدناني، فلو جمع شعر القبائل العدنانية، والقحطانية لوجدنا شعراً كثيراً سبق عصر امرئ القيس، ومن الشعراء الذين قالوا الشعر قبل امرئ القيس امرؤ القيس بن حذام الكلبي، والمهلhel بن ربيعة، والأفوه الأودي، وزهير بن جناب الكلبي، وعبيد بن الأبرص الأسدي .

وهبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي، والعنبر بن عمرو بن تميم، ودويد بن زيد ابن نهد، وأعصر بن سعد بن قيس عيلان، والمستوغر بن ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وخزيمة بن نهد بن زيد بن قضاة. والقول بأن الشعر عدناني ستنقضه هذه الرسالة ومثيلاتها، فلو اكتمل جمع شعر القبائل القحطانية لتوافر لدينا شعر جاهلي يصعب إنكاره من قبل الراغبين في غمط القبائل القحطانية حقها في صناعة الشعر العربي. وبما أن جمع شعر القبائل العربية من صميم خدمة التراث العربي فيحسن أن تتجه أقسام اللغة العربية في جامعاتنا إلي جمع هذا الشعر، فطلاب الدراسات العليا يرغبون في الأدب الحديث، لأنه الأقرب إليهم، ولكن الطالب عندما يُرغَبُ في العمل في الشعر القديم فإنه سيتجه إليه. لقد جاء علينا هذا العصر بمعطيات كثيرة تسهل على الباحث أمور بحثه، منها توافر المكتبات، ووجود الحاسب الآلي، وسهولة الاتصال بالأدباء والعلماء عن طريق الهاتف وغيره، وهذه الأمور لم تتوافر للأوائل الذين جمعوا أشعار القبائل عن طريق الأسفار، والانتظار الطويل لمروءة عالم لمدينة، أو حلول الأعراب في سوق المريد، أو غيره، لقد نهض أبناء الأمة العربية والإسلامية بهذا العمل الجليل، وشاركوا المستشرقين في جهودهم في بعث التراث وجمعه ونشره، بل إنهم - ولله الحمد - تقدموا عليهم في معرفة اللغة، والاستفادة منها للوصول إلى الحقائق .

والكتاب الذي بين أيدينا رسالة علمية اجتهد الباحث في جمع مادتها وعرضها للقارئ، والرسائل العلمية تتقدم على غيرها، لما يكتنفها من التدقيق والمراجعة، وجهد المؤلف يبرزه الكتاب في مواضع كثيرة منه، فعند رصده للكتب التي حفظت شعر مذحج نلحظ الاطلاع الواسع والشامل لكتب التراث المختلفة، فقد رجع إلى كتب الاختيارات الشعرية وكتب الأدب المختلفة، وكتب

النحو واللغة، وكتب الأنساب والتراجم، وكتب التاريخ، وكتب معاجم البلدان، وكتب البلاغة والنقد، وقارئ الكتاب يقف على أسماء الكتب المختلفة، ومن المواضيع التي تبرز جهد الباحث حديثه عن عدد أبيات شعر مذحج، فقد جمع من شعر القبيلة أكثر من ستمائة بيت من الشعر الجاهلي، وهذه حصيلة جيدة مما ينبئ عن وجود شعر قحطاني جاهلي قد يبلغ الآلاف عندما تجمع أشعار القبائل القحطانية، وذكر الباحث أن عدد الشعراء الجاهليين من القبيلة يبلغ ستين شاعراً أتحفنا بأسمائهم مجتمعة، مع وجودها متفرقة في مواضعها .

وفي مجال الدراسة يجد القارئ بحثاً ممتعاً ينبئ عن قدرة الكاتب على التحليل والوصول إلى النتائج، فعندما يتحدث الباحث عن خصائص شعر مذحج يصدر عن استنباط تلك الخصائص من الشعر نفسه، ويعرض علينا ارتباط تلك المعاني بالبيئة، من ذكر البرق والسحاب والصحراء والناقة، وملتفت الباحث إلى معنى يكثر في أشعار مذحج وهو الشكوى، ويعلل ذلك بكثرة الشعراء المعمرين، ويستنتج الباحث من الشعر المذحجي قرب المعاني الجاهلية من الإسلامية في أول ظهور الإسلام، ودخول أفراد القبيلة في الدين الجديد، أما معاني شعر مذحج الإسلامي فقد تأثرت بالإسلام، واستمدت منه كثيراً من المضامين، ويشير الباحث إلى تشعب تلك المعاني في شعر مذحج الإسلامي بحسب تشعب أفراد القبيلة، فمذحج واحدة من القبائل العربية التي توزعتها الأهواء عندما برزت المذاهب الإسلامية المختلفة، وقد استطاع الباحث أن يعرض معاني الشعر المذحجي على القارئ في نمط مقبول قد نفتقده في بعض الكتب، والدراسة تبرز مهارة المؤلف، وتتيح للقارئ أن يحكم على الكتاب بالجودة من عدمها عن طريق ما يتوصل إليه المؤلف من عرض جميل يتفق على جودته القراء .

ومن المواضيع التي تبرز مهارة المؤلف في الدراسة تناول الصورة الفنية في شعر مذحج، فقد استطاع المؤلف عرض الصور على القارئ، كما أشار إلى مصادر الصور، وأنواعها، وأن الشعر المذحجي يشتمل على الصورة الجزئية كما يشتمل على الصورة الكلية. وإشارتي إلى مواضع بعينها لا تنفي الجودة عن سائر مادة الكتاب، ولكنني أحببت الإشارة إلى مواضع معينة كأنموذج لما طرح في الكتاب من مادة علمية هي جديرة بالقراءة. وبما أنني المشرف على هذه الرسالة العلمية، وأعرف الجهد الذي بذل فيها، وما عاناه الباحث من تتبع الكتب، واستقصاء ما فيها من مادة تخدم بحثه، فإن البحث لا ينفصل عن صانعه ومؤلفه، فالمؤلف يقدم إلى القارئ أول مؤلف له - بحسب علمي - ومع ذلك فهو كتاب تتوافر فيه صناعة التأليف، فهو مفيد لطلاب الدراسات العليا لأنه أنموذج للمؤلف الحديث، وهو مفيد للذين يرغبون في تسجيل رسائل في شعر القبائل، وأظنه مقروء لأبناء قبيلة مذحج، وهم كثيرون، فهذه أشعار لشعراء القبيلة يحسن بكل فرد من القبيلة أن يطلع عليها، ثم هو كتاب يشتمل على كثير من الشواهد العربية التي يحتاج إليها الباحث في اللغة وفي النحو والتفسير والبلاغة. نفع الله به قراء العربية فهو إضافة جيدة للمؤلفات العلمية الرصينة. وأتمنى للمؤلف حياة علمية حافلة بالنشاط النافع. والله الموفق والمعين.

أ.د. عبد العزيز بن محمد بن عبد الله الفيصل

عميد كلية الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ـ مقدمة ـ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد : فإن هذا الكتاب يعنى بجمع شعر قبيلة مذحج في الجاهلية والإسلام إلى نهاية العصر الأموي، ثم دراسة هذا الشعر دراسة موضوعية وفنية، وقد تتبعت فيه شعراء مذحج وإنتاجهم الشعري في هذه افرة الزمنية، سواء من عاش منهم في ديار القبيلة الأصلية في جنوب الجزيرة العربية، أو من انتقل إلى البلاد المفتوحة بعد انتشار الإسلام، ومن نشأ بتلك البلدان كذلك، وهو من قبيلة مذحج. وقد اقتضت خطة البحث أن تكون في مقدمة وتمهيد وقسمين رئيسين، ثم خاتمة وفهارس فنية.

فقد جعلت الحديث في التمهيد عن القبيلة من جميع جوانبها، عن أصلها ونسبها، وقبائلها، وبطونها، وفروعها، وديارها الأصلية، وتنقلاتها وأيامها، وأعلامها، ثم وضحت حياتها العامة، فتحدثت عن لغتها، وعقيدتها في الجاهلية، ووفودها على رسول الله ﷺ، وإسلامها، وحياتها الاجتماعية، وكان ذلك في إيجاز يضيء لنا حياة القبيلة، ولا يطغى على وجهة هذا البحث الذي هو جمع الشعر ودراسته.

وخصصت القسم الأول، فجعلته لدراسة الشعر، وقسمته إلى ثلاثة فصول يشتمل كل فصل على مباحث.

فتحدثت في الفصل الأول عن أغراض شعر مذحج، وكان الحديث عنها مرتباً بحسب كثرة مادة كل غرض، وقد جاءت على النحو التالي:

الفخر، الحماس، الوصف، المدح، الرثاء، الغزل، الهجاء، التهديد والوعيد، الاعتذار، الحكمة والتجربة، الوصايا، الحنين للأهل والديار، اللوم والشكوى. ومثلت لكل غرض هذه الأغراض.

وكان الفصل الثاني للحديث عن الخصائص الفنية في شعر مذحج وقسمته إلى ثلاثة مباحث، تناولت في الأول منها معاني شعر مذحج في الجاهلية والإسلام وحاولت فيه رصد ما لحق تلك المعاني من تحولات وتغيير عبر رحلتها من الجاهلية ثم صدر الإسلام، إلى نهاية العصر الأموي. وحاولت إبراز ما جدَّ من معانٍ بعد الإسلام، وتحدّثت في المبحث الثاني عن خصائص الصورة الفنيّة مبتدئاً بتوضيح مفهوم الصورة الفنيّة التي انطلقت منها، وتناولتها من كل جوانبها مع التحليل والتفسير لكل صورة بما يبرز جمالها، ويربطها بالحياة.

والمبحث الثالث من هذا الفصل، جعلته للحديث عن أسلوب شعر مذحج ففصلت القول في ألفاظه، وتراكيبه، وبناء القصيدة المذحجيّة، وختمته بالحديث عن أوزان الشعر، وإيقاعاته، وحاولت في هذا الفصل إبراز الخصائص الفنية لشعر مذحج، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، آخذاً بالمفيد من مناهج الدراسة القديمة، ومناهج الدراسة الحديثة.

وكان الفصل الثالث، للحديث عن «مكانة شعر مذحج» وقد جاء في

مبحثين: الأول عرضت فيه آراء النقاد القدماء في شعر مذحج، ابتدأت فيه بالنقد الانطباعي، كما هو عند أهل المدينة والشام. وانتهيت فيه بأصحاب المقاييس والمعايير النقدية في العصر العباسي. كابن سلام الجمحي، والآمدي وقدامة ابن جعفر وغيرهم.

والمبحث الثاني، حاولت من خلاله وضع شعر مذحج في المكانة التي يستحقها ضمن إطار الشعر العربي، فجعلت من آراء النقاد السابقة، وما بين يدي من الشعر مرجعاً في إحلال شعر مذحج تلك المنزلة.

أما القسم الثاني من الرسالة، فاشتمل على مقدمة بين يدي نصوص الشعر، تحدثت فيها عن مصادر شعر مذحج، مبتدئاً بديوان القبيلة، ثم دواوين الشعراء الذين صنعت لهم دواوين، ثم المصادر الأخرى التي جمعتُ منها نصوص الشعر ثم تحدثت عن رواية شعر مذحج، ومقداره وتوثيقه، ونقد رواته ومصادره نقداً يوضح ما نثق به، وما نشك فيه من ذلك كله.

وبعد مقدمة التحقيق، أثبتُ النصوص الشعرية بادئاً بالشعر المعلوم قائلة، ثم الشعر المجهول قائلة، ورتبت النصوص في الشق الأول ترتيباً زمنياً بحسب وفيات الشعراء، ثم رتبت قصائد كل شاعر ومقطعاته ترتيباً هجائياً بحسب قوافي الشعر، أما الشق الثاني الذي يحوي شعر الشعراء المجهولة أسماؤهم، ولا نعرفهم إلا من خلال نسبتهم إلى قبائلهم المذحجية، فقد رتبته بحسب القوافي ترتيباً هجائياً، فجاءت نصوص الشعر منتظمة على الترتيب الآتي:

شعر الشعراء الجاهليين ثم المخضرمين ثم الإسلاميين (صدر الإسلام والأموي)، ثم المجهولين، وقد اتبعت في خدمة النص أفضل المناهج، فأثبت النص في الصورة التي أقدر أنها أصح صورة له، ثم أضبطه بالشكل، وأذكر قافية القصيدة أو المقطعة في أعلى الصفحة، ثم الرقم التسلسلي للنص. ثم اسم الشاعر ونوع البحر العروضي، ثم المناسبة إن وجدت، وأشرح ما يحتاج إلى شرح من الألفاظ والأبيات، مع ضبط الأعلام والمواضع التي تقابلني، والتعريف بها، معتمداً في ذلك على أصح كتب التراجم والمعاجم والبلدان، ثم أخرج النص في مصادره التي ورد فيها محاولاً الابتداء بالأوثق والأقدم، ثم الأوثق، ثم الأقدم، ثم ما انفرد بنسبة الشعر للشاعر، ثم ما نسبه له ولغيره، ثم ما أُورد فيه الشعر بلا عزو، ثم ما نسبته لغير الشاعر، وإن وجد خلاف في الرواية نصصت على الرواية التي اخترت إثباتها، ثم ذكرت الروايات التي تخالفها في باقي المصادر، مع تقويم ما أراه يحتاج إلى تقويم، إذا تنبعت له، وعرفت إصلاحه من خلل عروضي، أو بياض في نص، أو تصحيف أو تحريف، ثم أترجم في الحاشية لكل شاعر عند أول قصيدة أو مقطعة تقابلني له، ترجمة موجزة، ومُذيلة بأهم المصادر والمراجع التي يمكن الرجوع إليها لمن أراد الإستزاده من أخبار الشاعر.

ولما كان البحث في التراث وخدمته أمراً مهماً، فقد وجهت رسالتي هذه إليه لأنه لا يمكن لأمة من الأمم أن تبني كيانها الحضاري في حاضرها ومستقبلها، إلا إذا احتوت تراثها، وجعلت منه قواعد صلبة تنطلق من خلالها، ونحن اليوم في حاجة ماسة للاحتفاظ بملاح وجهنا الحضاري، وتثبيت هويتنا العربية والإسلامية.

وقد كانت هذه الرسالة في شعر القبائل، لأن ذلك راجع إلى اقتناعي برغبة كثير من الباحثين قبلي في إحياء منهج الرعيل الأول من علمائنا الذين ألفوا ما يربو على ثمانين مصنفاً في شعر القبائل، ولكن هذا العمل المفيد ضاع، ولم يصلنا منه إلا ديوان قبيلة هذيل، وإن هذا النوع من التصنيف سيمكننا من إقامة دراسات أدبية محكمة البناء سليمة النتائج.

أما اختياري لقبيلة مذحج دون غيرها من القبائل، فإنه لم يسبقني أحد من الباحثين بتخصيص هذه القبيلة بمصنف يحصر شعراءها، ويحوي شعرها، ويدرسه دراسة موضوعية وفنية، ثم لأن هذه القبيلة قحطانية جنوبية، وتراث هذه القبيلة وأخواتها من القبائل القحطانية الجنوبية، من الغموض بمكان، مما حدا بباحث وهو الدكتور طه حسين يطلق مقولاته المشهورة حول شعر وتراث هذه القبائل الجنوبية القحطانية.^(١) ورسالة مثل هذه أتوخى فيها تقديم شيء مادي ولموس يمكننا أن نقيم عليه نتائج سليمة يكاد يركن إليها منهج البحث في مناقشته لمثل هذه المقولات التي تحاول إثارة قضايا شائكة في تراثنا العربي، وتركتُ لنتائج هذا البحث حق الإفصاح عن ذلك.

ولعل من الصعوبات التي اكتنفت هذا البحث سعة مادته، التي لم أكن أتوقعها لهذه القبيلة وقت عزمي على البحث وبدايات عملي فيه، لتناثر هذه المادة في مختلف مصادر التراث العربي والإسلامي تناثراً يحتاج إلى كثير من

(١) انظر في الأدب الجاهلي/ لطفه حسين ص ٩٢ و ص ١٨٠ / دار المعارف بمصر/ طبعة عاشره سنة ١٩٦٩م.

الجهد والوقت للوصول إليه، ثم إن عظم مذحج وكثرة فروعها وتعدد بطونها، وانضواء قبائل كبيرة تحتها، جعل منها ظللاً يتقيؤه ويأوى إليه كل من قصرت شجرة نسبه، فسهل التعلق بها وانتحال نسبها، بحيث غدا من الصعوبة بمكان لمن أراد تصفية ذلك وتنقيته، وتمييز فروع تلك الشجرة مما طرأ عليها، فكيف السبيل لباحث يريد حصر شعر هذه القبيلة الضخمة في الجاهلية والإسلام بحيث لا يفلت منه واحد، ولا يدخل فيهم من ليس منهم، ويريد في عمله ذلك أن يتحرى الثقة والحقيقة؟ هذا ما أردت تبينه والله الهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد
عن
قبيلة مذحج



نسب مَذْحِجٍ وفروعها

أصل مَذْحِجٍ :

مَذْحِجٍ قبيلة قحطانية، فهي إحدى قبائل كهلان التي تشكل مع أختها حمير جذمي سبأ، التي تعود إليها قبائل قحطان.

ومَذْحِجٍ جد القبيلة، واسمه مالك وهو ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(١).

ومهما يكن من أمر تشكيك بعض الباحثين كالمستشرقين ومن سار على نهجهم في علم الأنساب عند العرب فإن ما أثبتته النقوش - التي هي أقوى دليل لديهم - الشمالية والجنوبية، لا تدع مجالاً للشك في أن هناك قبيلة قحطانية تدعى مَذْحِجاً وُجِدَتْ حقاً، وكان لها شأن كبير عبر التاريخ، حتى حفظتها تلك النقوش وحفظت أسماء بعض بطونها مثل «النَّخَعِ وَرَدْمَانَ، وَمُرَاد، والحارث بن كعب»^(٢).

(١) جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن حزم ٤٠٥ / تحقيق عبد السلام محمد هارون / طبع دار المعارف / القاهرة / طبعة خامسة / ١٩٨٢م، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب لأبي الفوز بن أمين السويدي ١٦ - ٣٤ / المكتبة العلمية، العقد الفريد لابن عبد ربه ٣٠٧/٢ تحقيق محمد سعيد العريان / طبع دار الفكر، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٤م، معجم البلدان لياقوت الحموي ٨٩/٥ / طبع دار إحياء التراث العربي / بيروت / ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) نقوش النمارة، وركننس وجامّة، في تاريخ الأدب العربي، في العصر الجاهلي لشوقي ضيف ٣٥ / دار المعارف بمصر / طبعة سابعة، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين الأسد ٢٧ / طبع دار المعارف / طبعة سادسة / ١٩٨٢م. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٢٠/٢، ٥٤٨، ٥٥٦ / دار العلم للملايين / بيروت / طبعة ثالثة ١٩٨٠م.

ومَذْحِجٌ على وزن مَسْجِدٍ، وهي من أُنْحَجَتِ المرأة على ولدها أقامت
وقيل: إن مذحجاً اسم لأم مالك بن أدد، أو لأكمة حمراء باليمن ولد عليها
«مالك» من هنا جاءت التسمية^(١).

وليست طيء والأشعر من مذحج كما يذهب بعض النسابين، والذي عليه
الجمهور من أهل النسب أن مذحجاً اسم يطلق على أبناء مالك بن أدد ومن
تفرع منهم، دون غيرهم، وأن طيئاً والأشعريين ليسوا من مذحج، وإنما هم
إخوان لمالك بن أدد الذي هو مذحج فجماع مذحج هو مالك بن أدد ليس
غير، وقد صرح بذلك ابن عبد البر في الإنباه على قبائل الرواة^(٢)، وأما بيت
الطرمّاح الطائي الذي يقول فيه^(٣):

نَحْنُ الرُّؤُوسُ على مِنْهَاجٍ أَوْلِنَا

من مَذْحِجٍ من يسوّي الرّأسَ بالذّنْبِ

فيحمل على أن الشاعر قد ينتسب ويفتخر بأعمامه، كما ينتسب ويفتخر
بآبائه ومذحج أعمامه، وأشقاء قبيلته يلتقون مع طيء في أدد بن زيد فلا
غرابة أن يفخر بهم وينتسب إليهم.

(١) لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور «ذحج» والقاموس المحيط للفيروز أبادي مادة «ذحج»،
الاشتقاق لابن دريد ٢٩٧ تحقيق عبد السلام محمد هارون/ مكتبة الخانجي بمصر، سبائك
الذهب للسويدي ٣٤/ معجم البلدان رسم «مذحج» ٨٩/٥، الإنباه على قبائل الرواة/ لابن عبد
البر، ص ١٢٠/ تحقيق إبراهيم الأبياري/ طبع دار الكتاب العربي/ طبعة أولى ٤٠٥.

(٢) الإنباه على القبائل الرواة لابن عبد البر ١٠٨، ١٩٩، ١٢٠، اللسان والقاموس «ذحج» ومعجم
البلدان رسم «ذحج» ٨٩/٥ جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٩٧ - ٤٠٥، العقد الفريد لابن
عبد ربه ٢٠٧/٣.

(٣) ديوان الطرمّاح ص ١٨ تحقيق عزة حسن/ مديرية إحياء التراث القديم/ دمشق ١٣٨٨هـ

قبائل مذحج وبطونها :

إن الناظر في قبائل مذحج وبطونها يجدها تتفرع من خمسة أصول، هم أبناء مالك بن أدد الذي هو جماع قبيلة مذحج، وهم:

(أ) جَلْد بن مالك .

(ب) سعد العشيرة بن مالك .

(ج) يَحَابِر بن مالك .

(د) زيد بن مالك (عَنَس) .

(هـ) لَيْس بن مالك .

وأهمهم كلهم سلمى بنت منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان بن مُضَرَ^(١).

(أ) حَرْب بن عُلَّة بن جَلْد.

(ب) عمرو بن عُلَّة بن جَلْد، والقبائل التي تنحدر من حرب بن علة بن جلد هي:

بنورَها، بنو صُدَاء، بنو جَنْب - وهي قبيلة انضوت تحتها ستة بطون هي مُنَبِّه والحارث والغلى وسِنْحَان وهِفَّان وشِمْران^(٢).

(١) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ٥٧ مخطوطة مصورة بالميكروفيلم في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المركزية، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٥.

(٢) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ٢٠٤، ٢٠٥ جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٢، ٤١٣، سبائك الذهب للسويدي ٢٩، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ٣١٤، الشركة العربية للطباعة والنشر/ طبعة أولى ١٩٥٩م. عجاله المبتدى وفضالة المنتهي في النسب لأبي بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني ص ٤٢ تحقيق عبد الله كنون طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية/ القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

والقبائل التي تنحدر من عمرو بن علة بن جلد هي:

بنو مُسَلِيَّة وهؤلاء صاروا مع بني الحارث بن كعب ومن فروعها، بنو أسد وبنو حَبَابَة وبنو مُنْبَه وبنو النَّخَع وبنو الحارث بن كعب^(١).

أما بنو النَّخَع فسموا بذلك لأنه انتزع عن قومه أي بعد عنهم، وبعض العلماء يذكرون أنهم ليسوا من مذحج، بل من إياد، ويستدلون بشعر ذكره البكري والمبرد.

والذي عليه جل أهل النسب أنهم من مذحج صُلْباً، ذكر البكري عندما قال: إن جل النخع سوى النزر منهم يثبتون في نسبهم إلى مذحج، أما المبرد فقد ضَعَفَ راوي الشعر وهو أبو اليقظان، وقال عنه إنه كان متعصباً^(٢). وعلى ذلك فيحمل ماورد من الشعر على أنه من وضع العصبية المضرية ضد القحطانية، ثم إن الأشتر النخعي يثبت نسبه - في شعر له - لمذحج وليس لربيعة أو مضر حيث يقول^(٣):

لَسْتُ مِنْ الْحَيِّ رَبِيْعٍ أَوْ مُضَرَ

لكنني من مَذْحِجِ الْغُرِّ الْغُرِّ

ومن بطون النَّخَع: صُهْبَان، وَهَيْبِل، جَسْر، جَذِيْمَة، قَيْس، حَارِثَة، عامر

(١) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ١٩٥، ١٩٦، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٤، ٤١٦، العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/٢١٠، ٢١١/نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ٢٢٥. سبائك الذهب للسويدي ٢٩، الإنباه على قبائل الرواة لابن عبد البر ١٢١.

(٢) معجم ما استعجم لعبد الله البكري ١/٦٢/تحقيق مصطفى السقا/ طبع عالم الكتب/ بيروت/ ثانية ١٤٠٢هـ. والكامل في الأدب للمبرد ١/٢٧٧، طبع مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٠هـ.

(٣) وقعة صفين النَّصْرُ بن مزاحم المنقري ص ٢٩٦ تحقيق عبد السلام هارون/ الخانجي/ ثلاثة ١٤٠٢هـ.

كليب، كعب، نهار، الأُحوى، بنو عِدَاء، إبَّان، بَكْر النخع، جُشَم، بنو إِلْيَهَة، بنو جَحْفَل، بنو معاوية، بنو هلال^(١).

أما بنو الحارث بن كعب فهم بيت مذحج، وفيهم رئاسة قبيلة مذحج في بني عبد المدان^(٢). ومن بطونها^(٣): بنو زَعْبَل وهم إخوان بني الحارث بن كعب ولكنهم دخلوا فيهم وأصبحوا بطناً منهم، وبنو الحِمَّاس وفيهما يقول دُرَيْدُ بن الصِّمَّة^(٤):

على كلِّ حَيٍّ قَد أَطَلَّتْ بَغَارَةَ

ولا مثل مـالـاقي الحِمَّاسِ وَزَعْبَلُ

وبنو مالك، وبنو الضَّبَّاب، وبنو جَحْش، وبنو قِنَان، وبنو عُقْدَة، وبنو كعب الأَرْت، وبنو حَيْمَة، وبنو دُهْنِي، وبنو المَعْقَل، وبنو المُرَاثِد، وبنو زِيَاد، وبنو النَّار، وبنو لُأَي، وبنو الديان، ويذكر يزيد بن عبد المدان بعض هذه البطون في قوله^(٥):

فَإِذَا لَقِيتَ بَنِي الحِمَّاسِ وَمَـكـالِكِ

وَبَنِي الضَّبَّابِ وَحَيِّ آلِ قِنَانِ

-
- (١) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ١٩٦ - ٢٠٤، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٤ العقد الفريد ٣/٢١١ - سبائك الذهب ٤٠، ٤١، نهاية الأرب للقلقشندي ٢٠٨، ٢١٣، ٣٥١.
- (٢) العقد الفريد ٣/٣١٠، الاشتقاق لابن دريد ٣٩٨، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٦.
- (٣) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ١٤٦ - ١٩٥. جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٦، العقد الفريد ٣/٣١٠، الاشتقاق لابن دريد ٤٠٢، نهاية الأرب للقلقشندي ٥٢. سبائك الذهب ٤٠.
- (٤) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٣٩/١٠ مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية في دار إحياء التراث العربي / بيروت.
- (٥) الأغاني (دار الكتب) ١١/١٢.

أما سعد العشيرة بن مالك (مذحج) :

فهو يشكل جذماً كبيراً من قبائل مذحج، وسمى بسعد العشيرة لأن أبناءه وأبناءهم بلغوا مائة رجل، وكانوا يركبون معه، وكان إذا سئل عنهم يقول: هؤلاء عشيرتي، وقاية لهم من العين، وقيل إن القبيلة كانت تعبد صنماً يسمى «سعد العشيرة، فسموا به^(١). وتتفرع منه بطون يرتفع بعضها لدرجة القبائل، فمن بطونه: بنو الْحَكَم، وبنو بُنْدُقَة، وبنو عَائِدِ اللهُ، دخل في جُعْفَى، وبنو أَوْسِ اللهُ، دخل في جُعْفَى، وبنو زَيْدِ اللهُ دخل في تَغْلِب، وبنو أَنَسِ اللهُ دخل في جُعْفَى، وبنو أَلْحَرِّ دخل في جُعْفَى، وبنو نَمْرَة دخلت في مراد^(٢).

ومن قبائل سعد العشيرة الكبيرة^(٣): (أ) جُعْفَى (ب) وَصْعَب. ولكل من هذين الفرعين بطون، فمن بطون جُعْفَى^(٤): حَرِيم، ومَرَّان، وهما جَمَاع بطون جُعْفَى وقد ذكرهما لبيد بن ربيعة في قوله^(٥):

وَلَقَدْ نَأَتْ يَوْمَ النُّخَيْلِ وَقَبْلَهُ

مَرَّانُ مِنْ أَيَّامِنَا وَحَرِيمُ

(١) العقد الفريد ٣/٣٠٧، سبائك الذهب ٣٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / جواد علي ٥٤٧/٤.

(٢) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ٢٢٠، ٢٢٢، جمهرة أنساب العرب ٤٠٧، ٤٠٨ العقد الفريد ٣/٣٠٧ سبائك الذهب للسويدي ٢٧، الإنباه على قبائل الرواة ١٢٤، نهاية الأرب للقلقشندي ١٨١، ٢٨٠، ٤٣٢، عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي ٤٧.

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٩، ٤١٠ سبائك الذهب ٢٧، العقد الفريد ٣/٣٠٨.

(٤) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ٢٢٠ — ٢٢٢، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٧، ٤٠٨.

(٥) شرح ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق إحسان عباس ١٣٥ / وزارة الإرشاد والأبناء الكويتي ١٩٦٢ م.

ومن بطون حَرِيم^(١): بنو عوف، وبنو مالك بن حريم، وبنو حَرَى، وبنو
المجمع، وبنو وهب، وبنو مالك بن عوف بن سعد بن حريم.

ومن بطون مَرَّان^(٢): بنو وَاثِلَة، وبنو أُلْحَلَق وهم نصارى بالحيرة، وبنو
ذُهْل، وبنو إِبَّان وبنو سَلَمَة، وبنو الحارث، وبنو بَدَاء وفيهم شرف في
الجاهلية والإسلام وهم من عظماء جُعْفِي ورؤسائهم وهم أخوال الأشعث
بن قيس.

أما الفرع الثاني من فروع سعد العشيرة الكبيرة هو صعب وجماع
بطونه قبيلتان^(٣) هما: أَوْد، وزُبَيْد (وهو زبيد الأكبر واسمه مُنْبَه) وقد أورد
البكري في مقدمة معجمه، ما يفيد أن أودا من معد وليس من مذحج^(٤).
ويدفع ذلك أن البكري أورد الشعر الذي يفيد ذلك. وهو غير مطمئن له،
حيث قال: كما يزعم الشرقي القطامي. وكذلك اتفاق أهل النسب على أن أودا
هو ابن صعب أصلاً، ثم إن شعر الأفوه الأودي يؤيد ذلك حيث يقول
مفتخراً بمذحجيته على النزارية^(٥):

(١) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ٢١٤، ٢١٦، الاشتقاق لابن دريد ٤١٠، نهاية لأرب للقلقشندي

٤٤٦، ٧٢، سبائك الذهب ٣٨.

(٢) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ٢٠٠، ٢١٣، سبائك الذهب ٣٧، نهاية الأرب للقلقشندي ١٧٤.

جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٩، الإيناس في علم الأنساب ٨١ للحسين المغربي / إعداد

حمد الجاسر / طبع نادي الرياض الأدبي / أولى ١٤٠٠هـ.

(٣) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ٢٢٢، ٢٢٦، سبائك الذهب ٣٨، جمهرة أنساب العرب ٤١٠

العقد الفريد ٣/٣٠٨.

(٤) معجم ما استعجم ١/١٠٥٧.

(٥) الطرائف الأدبية ١٢ جمع وتحقيق عبد العزيز الميمني / طبع دار الكتب العلمية / بيروت.

نَحْنُ أَوْدٌ وَالْأَوْدِ سُنَّةٌ

شَرَفٌ لَيْسَ لَنَا عَنْهُ قِصَارٌ

سُنَّةٌ أَوْرَثْنَاهَا مَذْحِجٌ

قَبْلَ أَنْ يُنْسَبَ لِلنَّاسِ نَزَارٌ

عَنْكُمْ فِي الْأَرْضِ إِنَّا مَذْحِجٌ

ورويـدا يَفْضَحُ اللَّيْلَ النَّهَارُ

ومن بطون أود^(١): بنو مُنْبَه الأَصْغَر، وبنو وَهْب، وبنو مَالِك، وبنو حَرِيم، وبنو زَمَان، وبنو الحارث وهو جَدِيَّة، وبنو سَعْد، وبنو عَوْف - وبنو عَامِر وبنو قرن، وبنو الزَّعَافِر، وبنو رَبِيعَة.

ومن بطون زُبَيْد^(٢): بنو مَازِن، وبنو الْحَارِث، وبنو زُبَيْد الأَصْغَر، ومنهم بنو عَصْم رَهط عمرو بن معد يكرب الزبيدي.

- أما مراد واسمه يحابر بن مالك (مذحج) :

فَيَتَفَرَّعُ مِنْهُ بَطُونٌ عَدَّةٌ تَرْجِعُ إِلَى فِرْعَيْنِ هُمَا^(٣):

(أ) نَاجِيَة بن مراد .

(١) النسب الكبير لابن الكلبي ٢٢٢. جمهرة أنساب العرب ٤١١، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٢٧٢، سبائك الذهب ٣٨.

(٢) جمهرة النسب الكبير ٢٢٢. جمهرة أنساب العرب ٤١٠، سبائك الذهب ٢٨، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٢٦٨.

(٣) جمهرة النسب الكبير ٢٣٢، جمهرة أنساب العرب ٤٠٦، ٤٠٧، العقد الفريد ٣١٢ سبائك الذهب ٢٧، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٢٦٨، والإيناس ٢٥٨.

(ب) زَهْرَانُ بن مراد .

فمن بطون ناجية بن مراد: بنو غُطَيْف، وبنو مَخْدَش، وبنو الحارث وهو كَدَادَة، وبنو جَمَل، وبنو المَعَاقِل: هم نَهَار والحارث ومالك، وفي نهار يقول الشاعر^(١):

إِنْ كُنْتَ جَارَ بَنِي نَهَارٍ لَمْ تَرْمُ

دَارِي وَقُوْتِلْ دُونَهَا بِسَلَاحٍ

وَلَذَبَّ عَنْهَا فِي الصَّبَاحِ يَحَابِرُ

كَالْأَسَدِ فِي غَمْرَاتِ كُلِّ صَبَا حٍ

هَمْ يَمْنَعُونَ مِنَ الْمَخَازِي جَارَهُمْ

إِذْ جَارٌ غَيْرُهُمْ كَبِيضٍ أَرَا حٍ

وبنو قَهَاة، وبنو سَلْمَانَ، وبنو قَرْنَ، وبنو قَانِيَة، وقَرْنَ وقَانِيَة دخلا في حُمَيْرَ وانتسبا إليه.

ومن بطون زَهْرَان بن مراد^(٢): بنو زُوْف، بنو الرِّبَض بنو صُنَابِح، بنو أَعْلَا بنو أَنْعَم، بنو تَدُوْل وبنو رَضَا.

(١) جمهرة النسب الكبير ٢٢٠، جمهرة أنساب العرب ٤٠٧، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب

٥٧، سبائك الذهب ٢٧، عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي ٦٨.

(٢) جمهرة النسب الكبير ٢٢٤، سبائك الذهب ٢٧، جمهرة أنساب العرب ٤٠٥.

- أما عَنَسٌ واسمه زيد بن مالك (مذحج)

فمن بطونه: بنو يَام، بنو القَرِيَّة، بنو مالك، بنو عزيز^(١).

- أما ليس بن مالك (مذحج)

فهم أهل بيت قليل دخلوا في إخوانهم عَنَس^(٢).

(١) جمهرة النسب الكبير ١٤٦، جمهرة أنساب العرب ٤٠٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بلاد مذحج

إذا أردنا أن نحدد ديار مذحج الأصلية التي فيها القبيلة وتفرعت منها بعد ذلك في سائر جنوب الجزيرة العربية، لا نجد المصادر القديمة تمدنا بشيء من ذلك، «فالأكمة» التي ولدت عندها «مذلة بنت منشجان» بولديها مذحج وطىء، تذكر المصادر القديمة أنها في أرض اليمن^(١)، ولكن لا تحددها بجزء معلوم من اليمن — يمكننا الاهتداء إليه، وتحكي كتب التراث كذلك أن طيئاً رحل إلى شمال الجزيرة العربية من واد يسمى «طَريَّب» يقول البكري إنه وادٍ باليمن^(٢). ويذكر الهمداني، أنه في بلد نهد^(٣). وهو اليوم وادٍ عظيم فيه قرى ومزارع ونخل لقبيلة عبيدة من جَنب، وقيل هو في الجوف^(٤)، فهل كانت هذه الأكمة التي نشأ عندها مذحج وطىء في أحد الطريبيين، في الجوف أو عسير، أو أن طيئاً نزع أول مانزح من جوار الأكمة إلى طريب ثم بعد ذلك توجه إلى الجبلين في الشمال، كل هذه افتراضات ليس لدينا ما يؤكدها أو ينفيها.

أما جواد علي، فيتجاوز كل ذلك، ويجزم أن مذحجاً كانت تنزل «الأفلاج»

(١) القاموس المحيط «مذحج»، الإنباه على قبائل الرواة ١٢٠.

(٢) معجم ما استعجم ٣/٨٩٠.

(٣) صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٥٢ تحقيق محمد بن علي الأكوغ / طبع دار اليمامة بالرياض

١٣٩٤/١٩٧٤م.

(٤) المصدر السابق ٤٢٣.

وما حولها في المنطقة المسماة بجبل طويق في الزمن الحاضر، وأن غزو الملك اللخمي امرئ القيس لنجد اضطر أكثر قبائل مذحج إلى الهجرة نحو الجنوب^(١). وهذا يدل على أن أول ديار مذحج كانت في نجد، أو في الأفلاج من نجد إذا التزمنا الدقة، ولكني لم أجد من يذكر هذا الرأي من القدماء والمحدثين غير جواد علي، وإذا رجعنا إلى النقش الذي اعتمد عليه في رأيه هذا وهو نقش النمارة^(٢). لم نجده يدل دلالة واضحة على أن مذحجاً عند حرب امرئ القيس لها كانت في نجد، بل إنه يذكر أن الملك اللخمي وصل إلى مشارف نجران، ولعل طرد الملك لمذحج كان من تلك النواحي حول نجران، وليس من نجد، لأن نجران وما حولها من مواطن مذحج. إلا أن هناك شعراً للأفوه الأودي يذكر أن مذحجاً قد منعت بطن «الجريب» وهو وادٍ في نجد حيث يقول^(٣):

مَنْعَنَا الْغَيْلَ مِمَّنْ حَلَّ فِيهِ

إِلَى بَطْنِ الْجَرِيبِ إِلَى الْكَثِيبِ

ولكن هذا لا يكفي كدليل قطعي لا يقبل الشك أن نجداً من ديار مذحج، فضلاً عن كونه دارها الأولى لأن المنع قد يكون من أهلها الأصليين بطردهم منها ولم ينص على أنها دارهم. ولما كانت مذحج قبيلة كبيرة يتفرع منها قبائل وبطون عظيمة، لكل قبيلة عزتها، ومنعتها، وقوتها، رأينا أن أي قبيلة مذحجية لا تخشى أن تتخذ من أي بقعة في الجزيرة مكاناً لها تسكنه

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٥٥٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي لشوقي ضيف ٣٦.

(٣) معجم ما استعجم للبكري «الجريب» ٢/٣٧٨.

وتتخذها داراً؛ سواء كانت قريبة من باقي شقيقاتها أو بعيدة عنها؛ لذلك فإن جنوب الجزيرة ابتداء من أطراف عالية نجد الجنوبية، وما يوالي ذلك شرقاً وغرباً، وامتداد ذلك جنوباً إلى سيف البحر من أرض الدثينة وأبين وأحور وعدن تكاد تكون مسرحاً لقبائل مذحج، نستثنى من ذلك بلاد همدان، وقضاة وخولان، الواقعة في أعالي جبال السراة بين صنعاء وسراة جنب، فنادرًا ما نجد من مذحج من يتواجد في هذه الناحية^(١). وإن كانت أسافل تلك الجبال الشرقية، وتهامتها الغربية تشكل جزءاً من بلاد مذحج، إذن فلا نستطيع أن نحدد بلاد هذه القبيلة في رقعة محددة من جنوب الجزيرة، لأن قبائلها انتشرت وتفرقت في جنوب الجزيرة معتمدة على قوتها ومنعتها، ولا تخشى على نفسها اعتداء أي قبيلة أو جورها في أي بقعة أتخذتها بلاداً وموطناً لها، ولعلّ كثرة بطون مذحج وقبائلها يجعل المكان الواحد يضيق بها وبمعايشها، مما ساعد على تفرّقها في جنوب الجزيرة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، حتى تجد فسحة وامتساعاً من الأرض؛ ولكن من خلال تتبع مساكن قبائل مذحج في شعرها وفي كتب المعاجم والبلدان تبين لي أن بلادها التي تتكاثر فيها، وتكون هي المهيمنة عليها، تمتد من جنوبي صنعاء بعد خروجك من زمار بفرسخين^(٢) إلى حدود لحج وأبين وعدن على سيف البحر في أقصى الجنوب من جبال السراة في اليمن، ويشمل هذا الجزء مخالف دَمَار وَعَنْسُ وَرَدَاع، وَسُرُو مَذْحِج (الذي هو بلاد البيضاء اليوم) وما والى ذلك شرقاً إلى حضرموت ثم تتجه بلاد مذحج من حضرموت شمالاً ابتداء من أبين والدثينة وما والى ذلك شمالاً وشرقاً بامتداد أسافل السراة ومساقط

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٢٩.

(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ١٨٧.

أوديتها الشرقية إلى مشارف اليمامة وعالية نجد الجنوبية، ويشمل ذلك أرض مَرخَة وبيحان ومأرب^(١) والجوف، وما يوالي ذلك من الفروط إلى نجران، وأطراف عقيق عُقيل الجنوبية وتَرْج وتثليث وما حولها من شرق بلاد عسير إلى جُرَش^(٢). وكذلك من بلاد مذحج سراة جَنَب وسَنحان، وهذه تمتد من سراة خُولان وصَعْدَة إلى جُرَش^(٣)، وتعد فلاة صَيَّهَد (الربع الخالي) والغائط من ناحية اليمامة والفَلَج ومَصَامَة بني عامر وجبل الحضن من نجد إلى العَبْر، وصَيَّعْر، وأطراف حضرموت مسرحاً لقبائل مذحج، ومن بلاد مذحج كذلك تهامة جبال همدان وخولان غرب السراة على امتداد سيف البحر من وادي مور جنوباً إلى وادي بيش شمالاً، وهذه البلاد عرفت ببلاد (حَكَم) نسبة إلى حَكَم بن سعد العشييرة^(٤). ولم تكن هذه البلاد الواسعة المنتشرة في جنوب الجزيرة العربية خالصة لمذحج، بل كانت تخالطها فيها قبائل عدّة، وإنما كانت القوة والمنعة فيها لمذحج، ففي شق تهامة خولان وهمدان الممتدة من وادي مور جنوباً إلى وادي بيش شمالاً كانت تخالط قبائل مذحج أبناء عمومتها الأشعريون وكذلك عَك وكنانة، وتخالط مذحجاً في سورها نو رعين وحمير وفي حضرموت كذلك، أما قبائل همدان فتخالط مذحجاً في الجوف والأفراط الممتدة من الجوف إلى نجران، وفي نجران كذلك؛ أما من ناحية سراة جَنَب وسَنحان فتخالط مذحجاً قبائل خولان وشهران وختعم وبنو عامر، وتخالط في شمال حضرموت وفلاة

(١) المصدر السابق ٢٥، ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه ٢٦٥.

(٣) صفة جزيرة العرب للهمداني ٥٩، ٢٥٥، ٢٦٢.

(٤) المصدر السابق ص ٢٩٨.

صيهده نهداً وجرماً وكندة وبعض بني عامر بن صعصعة. ومَحَجَّتَا
حزرموت العليا والسفلى تمران في بلاد مذحج، فبلاد مذحج تمتد بامتداد
هاتين المحجتين من العبر في حزرموت إلى تبالة في أعراض نجد، وجميع
الأماكن التي ذكرها الهمداني في المحجَّتين هي مواطن لمذحج^(١).

وقد تناول الهمداني وصف ديار مذحج وتحديدتها في مواضع متعددة
من كتابه صفة جزيرة العرب^(٢)، وأكثر العلماء القدامى — غير الهمداني —
والباحثين المحدثين الذين ذكروا بلاد مذحج لم يستقصوا ذكر ديارها
وتحديدتها وتفصيلها، بل يذكرون طرفاً منها^(٣)، ظناً منهم أن تلك هي ديار
مذحج، فهم يذكرون بلاد مذحج تلك التي تمتد بين نجران وسراة جنب
وبيشة وتثليث وجرش وأعراض نجد. ويغفلون، عن تلك المناطق الجنوبية،
الواقعة جنوب شرق جبال اليمن، وإن تناولوا شيئاً من ذلك فهو لا يضم
كل الديار التي تسكنها مذحج هناك^(٤).

أما الأجزاء التي تسكنها كل قبيلة من قبائل مذحج من هذه البلاد
الواسعة فهي كما يلي:

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ٣٤٢.

(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢٥، ١٤٧، ٢٢٦، ٢٣٩، ٢٥٥، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٩٨، ٣٤٢،
٣٧٥، ٣٨٧.

(٣) معجم البلدان رسم «جزيرة العرب»، وانظر كذلك مقال لحمد الجاسر في مجلة العرب بعنوان
تحديد منازل القبائل على ضوء شعرها «ج ٢ س ٨ شعبان سنة ١٣٩٢ من ص ١٠٤ - ١١٤
وهي مجلة تعني بتراث العرب الفكري تصدر شهرية عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر -
الرياض المملكة العربية السعودية، وفي مقال لهاشم سعيد النعمي بعنوان «اتجاه أودية عسير في
المرجع السابق نفسه ج ٢، ٤س ١٩ شهري رجب وشعبان ١٤٠٤هـ - ١٥٠ - ١٥٢.

(٤) دراسات في أنساب قبائل اليمن ص ٦٧ لأحمد حسين شرف الدين / طبع مطابع الرياض ثانية
١٤٠١ - ١٩٨١م.

- بنو الحارث بن كعب كانت منازلهم الأصلية نجران وماحولها من الأفراط التي بين الجوف ونجران، وفي جبال القَهْر، وبعض البطون منها تفرقت في بلاد مذحج الواسعة على شكل أقليات، في بَرَاقِش من أرض الجوف، وريَدة الصَّيْعَر من حضرموت، والدَّبِيَّة من أرض الدَّثِينَة، وفي مخلاف بني عامر من سرومذحج، والعرش والأُحْرِيَّة من مخلاف رَدَاع، وثاتٌ، وفي الصَّمع وحَدُّ قَان من بلاد همدان بين صنعاء وصَعْدَة، وفي فلاة صهيد^(١).

ومساكن جَنَبٍ تشمل السراة التي تحمل اسمها والممتدة من سراة خولان ومدينة صعدة جنوباً إلى سراة عنز ومدينة جرش شمالاً، وما والى ذلك شرقاً وغرباً، وأن مايعرف اليوم بسراة عبيدة هو جزء منها^(٢).

واديار سَنحان هي سراة سَنحان الواقعة بجوار سراة جنب من الجهة الجنوبية الشرقية ويحد سَنحان من الجنوب وادعة، وِيام، ومن الشمال نَهْد وزُبَيْد وجنب، ومن الشرق بنو الحارث بن كعب أهل نجران، ومن الغرب سراة جنب^(٣). وهناك مواطن في أجزاء اليمن الجنوبية كان يتواجد فيها بطون من جنب منها، سرو حمير، وسرو مذحج، ومخلاف رداع وثات^(٤).

(١) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ٩٠، ١٥١، ١٦٨، ١٨٥، ١٩٠، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٦٥، ومعجم ما استعجم ١/١٢٨، ٢/١١٠٠، شرح حماسة أبي تمام للخطيب أبي بكر التبريزي ١/٢٨ عالم الكتب بيروت، معجم البلدان لليقوي ص ٨٠ / المطبعة الحيدرية/ النجف/ العواق، دراسات في أنساب القبائل اليمنية ٦٨، ٦٩، مجلة العرب ج ١ ص ٨ رجب ١٢٩٢ ص ٣٠ و ج ٢ ص ٨ شعبان ١٣٩٢ من ١٠٤ - ١١٤.

(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ٩٠، ١٩١، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٥٢، ٢٦٢، معجم البلدان رسم (مخلاف) ٥/٧٠، دراسات في أنساب القبائل اليمنية ص ٦٩ مجلة العرب ج ١١، ١٢ ص ١٨ جماديان ١٤٠٤ هـ ص ١٠٢٥.

(٣) المصادر السابقة نفسها.

(٤) المصادر السابقة نفسها.

ومساكن مراد الجوف جنوب بني الحارث بن كعب، ومأرب وبيحان ووادي قضيب والعطف، وردمان، وقرن ووادي جريب من أرض سرو مذحج في أقاصي جنوب شرق السراة من أرض اليمن. ومنهم بطون قليلة في مخلاف عَنَس^(١).

- وكان النخع في بيشة شمال جنوب الجزيرة، ومنهم كذلك في جنوب اليمن في سُرومذحج والدثينة وأبين^(٢).

- وديار صداء، كانت في أقاصي جنوب شرق اليمن في سرومذحج وفي مرخة وشبوة والجوف والعب^(٣).

- وبلاد الرّها مع إخوانهم من صداء في جنوب شرق اليمن مع سرومذحج وفي مخلاف شبوة ورداع^(٤).

- وديار بني مسلية في أوّل سرومذحج وفي جنوب شرق اليمن^(٥).

(١) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ١٤٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٥، ١٩٧، ٢٢٠، ٢٧٤ ومعجم ما استعجم رسم (بيحان) ٢٩٠/١، ورسم (الجوف) ٤٠٤/٢، ورسم (قضيب) ١٠٨٠/٣ ومجلة العرب ج ٢ س ٨ شعبان سنة ١٣٩٣ ص ١٠٨ و ج ٤ س ٨ شوال سنة ١٣٩٣ هـ ص ٣٠٤، ودراسات في أنساب القبائل اليمنية ٦٧.

(٢) معجم ما استعجم المقدمة ٦٤/١، شرح قصيدة الدامغة للهمداني ص ١٧٤ تحقيق محمد بن علي الاكوع/ المطبعة المحمدية/ القاهرة، صفلا جزيرة العرب للهمداني ١٨٢، ومن ١٨٦ - ٢٢٠. تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٢/٢٩٨/ طبع دار الكتب العلمية/ بيروت/ أولى سنة ١٤٠٧ هـ.

(٣) صفة جزيرة العرب للهمداني ١٨٢، ١٩٨، ومن ٢٠٦ - ٢٢٠. وانظر «أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ١١٦/ حمد الجاسر/ دار اليمامة/ الرياض/ أولى ١٣٨٨ هـ - ١٦٨ م، أحسن التقاسيم للبشاري ٨٨ - ٩٠/ طبع ابريل ليدن ١٩٠٦ م.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٨٢، ١٩١، ٢٠٦.

(٥) المصدر السابق ١٨١.

- وزُبَيْدٌ تمتد ديارها بين نجران وسراة سنحان من جهة الجنوب وسراة جنب وديار وادعة غرباً، ونَهْدٌ وعقيق عُقَيْلٌ (وادي الدواسر) شمالاً، ولا يمنع أن يكون معها غيرها من قبائل بني عامر بن صعصعة أو قضاة أو الأزد من يجاورها ويتداخل معهما في هذه الديار^(١).

- وبلاد حكم في الجزء الساحلي الواقع بين جبال همدان وخولان شرقاً والبحر الأحمر غرباً، والممتد بين وادي مور جنوباً، ومدينة بيش شمالاً^(٢).
أما ديار أُوْدٌ فهي أرض الدثينة من الأرض الواقعة جنوبي شرق جبال اليمن^(٣)، وكان بنو بداء في حضرموت^(٤).

- وبنو جَعْفِيٍّ: بلادهم الأصلية التي تتكاثر فيها القبيلة هي وادي جردان من أرض مَرْخَةَ في سرور مذحج جنوب شرق اليمن، ولعل هذه الديار هي ماسماها ياقوت بمخلاف بني جعفي، وهناك موطن لجعفي كذلك يُصَالِي أرض نجد في نجران وفي المَشْرَعِ، وهو مادّل عليه قول الشاعر:

جَعْفٌ بِنَجْرَانَ تَجْرُ القَنَـا

لَيْسَتْ كَمَا جَعْفِيٍّ بِـالمَشْرَعِ

ولكني لم أهتد لتحديد (المشروع) هذا^(٥).

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٥٢، شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٢ تحقيق مطاع الطرايبشي / طبع مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٤، مجلة العرب ج ١١، ١٢ س ٨ جماديان سنة ١٤٠٤ هـ ص ١٠٢٤.

(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٨١، ٢٥٨، ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق ٢٠٠.

(٤) المصدر السابق ١٦٩.

(٥) معجم البلدان رسم «مخلاف» ٧٠/٥، صفة جزيرة العرب للهمداني ١٤٧، ١٩٩، الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٢٦ / طبع دار صادر/ بيروت، الاغاني «دار الكتب» ١٨/٥، شرح قصيدة الدامغة للهمداني ١٧٤، شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٥٩/٢.

وبلاد عنس مخلاف يحمل اسمها واقع جنوب صنعاء، ومن بطونها من هو في مدينة ذَمَار باليمن، وفي وادي خَبَّان قرب نجران^(١). وبهذا نكون قد حددنا ديار مذحج جملة، ثم حددنا ديار كل قبيلة على حدة .

تنقلات القبيلة :

بعد أن عرفنا ديار مذحج الأصلية، لا بد لنا من أن نتعرف على تلك الأوطان الجديدة التي استوطنتها قبائل مذحج، التي قدر لها الخروج من وطنها الأصلي في جنوب الجزيرة العربية، سواء كان ذلك في الجاهلية أو في الإسلام.

أما في العصر الجاهلي فتذكر لنا المصادر أنه كان لِمُخَرَّم الحارثي - وهو من رجال القرن السادس الميلادي - محلّة في سواد العراق، كان ينزلها هو وولده متى شاء^(٢). وهناك أُسْرَ وأفراد من مذحج كانوا محالّفين لقريش، ويتخذون من مكة وطناً لهم، وكانوا من أوائل من أسلموا مع النبي محمد ﷺ، عند ظهوره بمكة، ومن هؤلاء عمار بن ياسر وأسرته العنسيّة، ومحميّة بن جزء الزبيدي حليف بني جمح^(٣). ولكن هذا التنقل والاستيطان كان محدوداً، فلما انتشر الإسلام في سائر الجزيرة العربية ودخلت مذحج في دين الله مع غيرها من القبائل العربية، ولما تطلع الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ومن جاء بعده من الخلفاء للفتوحات ونشر الإسلام، اتجهت

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ٩٠، ٢٢٤، معجم البلدان رسم «خَبَّان» ٢٤٣/٢ ورسم «مخلاف» ٦٩/٥. ودراسات في أنساب القبائل اليمنية ص ٦٨، ٦٩.

(٢) معجم البلدان رسم «المخرم» ٧١/٥.

(٣) الأنساب/ لعبد الكريم السمعاني ٦/٢٦٤ / طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية الهندية/ حيدر آباد سنة ١٢٨٦هـ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٢.

جحافل القبائل المذحجية^(١) مع غيرها من القبائل القحطانية باندفاع، لتستطيع من خلال ذلك أن تثبت ذاتها، وتبحث لنفسها عن موطئ قدم في ركاب الزعامة التي آلت لمضر بعد ظهور النبي محمد ﷺ فيها. بجانب الجهاد في نشر الدين الجديد الذي اعتنقته وأمنت به، والذي يعدُّ الجهاد شعيرة من شعائره، كانت هذه الجيوش المسلمة، بما فيها من عدنانية وقحطانية والتي قدمت لفتح الشام والعراق ومصر هي نواة القبائل العربية التي استوطنت هذه البلاد الجديدة بعدئذٍ^(٢). ويحدثنا قيس بن مكشوح المرادي في شعر له أنه جاء بقومه للفتح حتى وطئ بهم وادي القرى واليرموك والقادسية وديار كلب^(٣). ويحمل شعر مذحج بعد الإسلام ذكر كثير من المواضع والبلدان في هذه النواحي الجديدة التي استوطنوها، وكونوا فيها بتجمعاتهم مع غيرهم من القبائل بعض المدن التي أصبحت أوطاناً لهم يحنون إليها ويذكرونها عند بعدهم كما يذكرون ويحنون لديارهم الأصلية^(٤). ومن خلال تتبعي لشعر القبيلة وكتب التاريخ والبلدان، اتضح لي أن البلدان التي استوطنتها قبائل مذحج بعد الفتح هي: الكوفة^(٥).

(١) انظر تاريخ فتوح الشام رواية محمد بن عبد الله الأزدي ١٦ تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر/ طبع مؤسسة سجل العرب.

(٢) انظر فتوح البلدان للبلاذري تعليق رضوان محمد رضوان ص ١١٦ دار الكتب العلمية بيروت، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ١٥٧/٢.

(٣) انظر شرح قصيدة الدامغة للهمداني ص ٣٧٠، وفتوح البلدان للبلاذري ص ٢٦١.

(٤) انظر شعر كريب بن سلمة الجعفي في معجم الشعراء للمرزباني ٢٣٥ تحقيق (كرنكو) طبع دار الكتب العلمية/ بيروت طبعة ثانية سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢.

(٥) فتوح البلدان للبلاذري ٢٧٥، ٢٧٦، والبلدان لليعقوبي ٧٤، ومعجم البلدان رسم «الكوفة» ١٢٩/٥. جمهرة أنساب العرب ٤١١ - ٤١٥، ٤١٦، الأغاني «دار الكتب» ٢١٩/١٥. الأنساب للسمعاني ٢٦٢/٦.

والبصرة^(١)، والمدائن^(٢)، وسِنْجَار^(٣)، والموصل^(٤)، ونجران الكوفة^(٥)، ونزلت كذلك نواحي الجزيرة^(٦) وتل المَحَلْبِيَّة^(٧)، وهذه البلدان في العراق. واستوطنت كذلك خراسان^(٨)، وُخْتَلَّ^(٩) من بلاد ماوراء النهر، والرِّي^(١٠).

أما في بلاد الشام^(١١)، فقد نزلت قبائل مذحج دمشق وغوطتها وحمص، وبلاد الجزيرة وحرَّان، والأذقيَّة على البحر، وصرَّخَد^(١٢)، ونزلت كذلك الفالوجة^(١٣) من دمشق وقنَّسرين^(١٤)، والفالوجة من أرض الأردن^(١٥).

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٣٤١، تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٣٦/٣.

(٢) انظر لِشَعْر (المرادي) في معجم البلدان رسم «المدائن» ٥/٧٥.

(٣) انظر شعر خالد الزُّبَيْدي في معجم البلدان رسم «سنجار» ٣/٢٦٢.

(٤) صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٧٦.

(٥) معجم البلدان رسم «نجران» ٥/٢٧٠.

(٦) معجم البلدان رسم «سنجار» ٣/٢٦٢.

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٣٦/٣.

(٩) معجم البلدان رسم «خَقَل» ٢/٣٤٦.

(١٠) جمهرة أنساب العرب ٤٠٨.

(١١) المصدر السابق ٤٠٥، نهاية الأرب في معرفة أنساب قبائل العرب للقلقشندي ٢٦٨، وأنظر

تاريخ ابن خلدون وهو كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون

٢/٢٥٥. طبع المطبعة المصرية ببولاق سنة ١٢٨٤هـ.

(١٢) الأنساب للسمعاني ٤/٢٠٣، ٦/٢٠٣، ٢٦٤، البلدان لليعقوبي ٨٦، نهاية الأرب في معرفة

أنساب قبائل العرب للقلقشندي ٩٨، ٩٩، ١٠٣، ١٠٥، ١٢٧، ٤٣٤.

(١٣) صفة جزيرة العرب للهمداني ٧٤، ٢٧٢.

(١٤) انظر شعر الضحاك الحارثي في الأشباه والنظائر للخالديين ٢/١٥٢، ١٥٣ تحقيق السيد

محمد يوسف / طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥١هـ / ١٩٣٦م.

(١٥) صفة جزيرة العرب للهمداني ٧٤٠، ٢٧٢.

أما في مصر فقد نزلت قبائل مذحج، الفسطاط، ومنيف، والفَيُّوم، واليَدْقُون وكُوم شَرِيك^(١)، وإتريب^(٢)، والرَّشيد^(٣)، وتِينيس^(٤)، والإسكندرية^(٥) ونزلت واستوطنت كذلك شمال وغرب إفريقيا والمغرب الأقصى^(٦) ووجهة قلعة يَحْصَب^(٧) وإشبيلية من بلاد الأندلس^(٨)، وكان لرجال مذحج في هذه البلاد التي استوطنوها دورهم البارز بما اضطلعوا به من مهمات عظيمة في حياة تلك البلدان السياسية والدينية والحربية والاجتماعية، فكان منهم القواد والولاة، والقضاة، والمحدثين والدعاة للآراء السياسية.

أيام مذحج وحروبها في الجاهلية والإسلام :

قبيلة مذحج قبيلة محاربة لها قوتها وشوكتها ومكانتها الحربية بين سائر القبائل العربية، يدل على ذلك ما رواه الأصفهاني من أن دريد بن الصمة عندما وفد على يزيد بن عبد المدان الحارثي في نجران، سأله دريد

(١) انظر كتاب فتوح مصر وأخبارها لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكيم ص ٧٢، ١٢٦، ١٤٢ / مكتبة المثنى ببغداد / طبع بمطبعة ابريل ليدن سنة ١٩٣٠م.

(٢) الولاة وكتاب القضاة لأبي عمر محمد بن الكندي ص ٣٦٥ / تصحيح / فن كست / مطبعة الآباء اليسوعيين / بيروت سنة ١٩٠٨.

(٣) معجم البلدان رسم «رشيد» ٤٥/٢.

(٤) الولاة وكتاب القضاة للكندي ص ٧٠.

(٥) المصدر السابق نفسه ٩٦.

(٦) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وهو تاريخ ابن خلدون ٢/٢٥٦، وأنظر «المختصر في تاريخ اليمن» مطبوع ضمن كتاب تاريخ اليمن لعمارة ص ١٥٥ تعليق المستشرق كاي / طبع دار الثناء للطباعة بمصر. ١٨٩٢م.

(٧) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٦.

(٨) المصدر السابق ٤١٢، والأنساب للسمعاني ٦/٢٦٥.

عن قلة نتاج خيلهم، وعن صبيانهم يتضاغون من غير جوع.. إلخ^(٤). فأجابه يزيد عن قلة نتاج خيلهم، بأن نتاج خيل هوازن يكفيهم، فهم يأخذون منها متى شاءوا، ولاتستطيع هوازن منعهم. وهذا يدل على قوتهم الحربية، وأجابه عن بكاء الصبيان من غير جوع، بأن عادتهم أنهم كانوا يبدءون بالخيل في إطعامها قبل عيالهم. وهذا يدل على شدة اهتمامهم بالخيل التي هي أهم عتاد حربي في ذلك الوقت.

ولكثرة قبائل مذحج وسعة ديارها تعددت أيامها وكثرت حروبها، حيث لانستطيع أن نجزم بأن ماورد من أخبار في كتب الأيام والتاريخ عن حروب وأيام هذه القبيلة هو كل أيامها وحروبها، بل هناك حروب وأيام، لم يصلنا خبرها. ولذلك حاولتُ جهدي أن أحيط أو أقارب من الإحاطة بحروب تلك القبيلة وأيامها من خلال استقراي لشعرها بجانب ماورد في كُتُب الأيام، وكتب التاريخ.

وشعر مذحج معظمه شعر حربي، وأكثر الشعراء الذين ذكروا حروب مذحج الأفوه الأودي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي. ثم إن تلك الحروب والأيام، إما بين قبائل مذحج وغيرها من القبائل العربية. أو بين قبائل مذحج فيما بينها، وكانت أكثر حروبها مع القبائل القيسية وقبائل همدان وقضاعة والأزد لمجاورتها ومخالطتها لهذه القبائل. ولكن حروبها مع القيسية أكثر منها مع باقي هذه القبائل، وقد كان لمذحج حروب تتجاوز هذه القبائل إلى القبائل البعيدة من ديارها كقبائل مَعْد وربيعة وحمير، وكان من قواد مذحج من يوصف «ببعد غارته» وكانوا يعقدون معاهدات سلام

(٤) الأغانى «دار الكتب»، ١٠/٢٧

وموادعة مع القبائل المجاورة التي يمرون بأرضها أثناء تلك الغزوات البعيدة^(١). وقد ذكر ذلك عمرو بن معد يكرب في قوله^(٢):

وَهُمْ سَخَبُوا عَلَى الدَّهْنِ جِيوشاً

يُعِيدُهُمْ شَرَّاحِيلَ وَيُيَدِّي^(٣)

ومن الأيام التي خاضتها مذحج ووصلنا تفصيلها في كتب الأيام:

يوم خَزَار^(٤)، ويوم الكَلَابِ الثاني^(٥)، ويوم قَيْفِ الرِّيح^(٦)، ويوم شَرَّاحِيل^(٧)،
ويوم نَسَاح^(٨)، ويوم النَّخِيل^(٩)، ويوم الرِّزْم^(١٠).

(١) الأغاني «دار الكتب» ١٩/٥.

(١) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ٨٥ تحقيق مطاع الطرايشي.

(٢) هو شراحيل بن الأصهب الجعفي كان من أشد العرب غارة وأبعدهم (الأغاني دار الكتب ١٩/٥).

(٤) العمدة لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ٤٠٦/٢ تحقيق مفيد قمحية/ دار الكتب العلمية/ بيروت طبعة أولى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، معجم البلدان رسم «خزان» ٢/٣٦٤، ٣٦٥، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٢١٠ طبع دار الكتاب العربي/ بيروت/ طبعة رابعة ١٤٠٣هـ معجم ما استعجم رسم «خزان» ٤٩٦/٢. العقد الفريد ٦/٨٤.

(٥) معجم البلدان رسم «الكلاب» ٤/٤٧٢. معجم ما استعجم رسم «الكلاب» ٣/١٣٢، الأغاني «دار الكتب» ١٦/٣٢٨، الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٣٧٨، العمدة لابن رشيق ٢/٤٠٣، العقد الفريد ٦/٦٨.

(٦) العمدة لابن رشيق ٢/٤٠٦. معجم البلدان رسم «فيف» ٤/٢٨٥، العقد الفريد ٦/٧٦، الكامل لابن الأثير ١/٣٨٧.

(٧) الأغاني «دار الكتب» ١٩/٥.

(٨) المصدر السابق ٥/١٨، معجم البلدان رسم «نساح» ٥/٢٨٣.

(٩) الأغاني «دار الكتب» ٥/١٨، معجم البلدان رسم «نخيل» ٥/٣٧٨.

(١٠) معجم البلدان رسم «رزم» ٣/٤٢، السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٨١ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري/ طبع بدون.

وهناك أيام وقعت وصلنا أسماؤها حين ذكرها شعراء مذحج مفتخرين بها، أو وردت أسماؤها في كتب التراث دون تفصيل لأحداثها، من تلك الأيام: يوما «القَضِيب»، أحدهما في وادي (قضييب) من أرض الجوف بين بني الحارث بن كعب وكندة، أسر فيه الأشعث بن قيس الكندي، وكانت الغلبة فيه لبني الحارث بن كعب على كندة التي بدأت بالغارة^(١). أما اليوم الثاني، فكان في (قضييب) قيس عيلان، بين مراد وعمرو بن مامة بن المنذر بن امرئ القيس، وكانوا مدداً له من ملك حمير لمحاربة أخيه عمرو بن هند فسامهم خسفاً أثناء الطريق فثاروا عليه بقيادة المكشوح المرادي وقتلوه^(٢). يوم «الكَبْكَب» بين زُبيد وبني عامر بن صعصعة، أسر فيه عمرو بن معد يكرب الزبيدي عامر بن الطفيل^(٣). ثم يوم «السَّامِرِينَ» بين زبيد وبني عامر^(٤) كذلك. ويوم «بُوار» بين زبيد وملك من ملوك حمير يسمى بوار، عند جبل الجند باليمن، وكانت الغلبة فيه لزبيد^(٥)، ويوم «الْمُنْشَر» بين مذحج وقضاعة في ديار جَنْبُ وَسِنْحَانَ^(٦)، ويوم «الكُوم أو الكُرْم»، كان لباهلة على

(١) معجم ما استعجم «قضييب» ٢/١٠٨٠، صفة جزيرة العرب للهمداني ١٦٢، ٢٥٤، معجم البلدان رسم «قضييب» ٤/٣٦٩، ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ٨٤، ١٦٠ تحقيق مطاع الطرابيشي.

(٢) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ١١٨ - ١٢٠ تحقيق عبد السلام هارون/ دار المعارف بمصر/ طبعة رابعة سنة ١٤٠٠هـ، معجم البلدان رسم «الخل» ٢/٢٨٥، رسم «قضييب» ٤/٣٦٩.

(٣) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ١٨٢ تحقيق مطاع الطرابيشي.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) معجم ما استعجم رسم «جند» ٢/٣٩٧.

(٦) صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٢٠.

بلحارث ومراد وخثعم^(١)، ويوم «الْحَوْزَةَ» لزيد على سليم^(٢)، ثم يوم «أَرْمَام» بين باهلة وبني الحارث بن كعب، وكانت الظاهرة فيه لباهلة حيث قُتِل فيه مُرَّة بن عَاهَانَ^(٣). ويوم «الذَّهَاب» بين بني الحارث بن كعب وبني عامر بن صعصعة^(٤). و«يوم الْجَنَاب» بين مذحج والأزد وكانت الغلبة فيه لمذحج^(٥)، ويوم «ثِيل» أغارت فيه بنو الحارث بن كعب على نصر بن معاوية^(٦)، ويوم «ذات العَرَاقِي» بين باهلة وبني الحارث بن كعب ومعها نَهْد وَجَرْم وكانت الغلبة فيه لباهلة، وكان بين قَوْ وَضَارِج، وكثر القتل والسَّبي في هذا اليوم في بني الحارث بن كعب^(٧)، ويوم «تَثْلِيث» وقع أحدهما بين

(١) الاختياريين للأخفش الصغير ١٩٧ تحقيق فخر الدين قباوة/ من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق/ ومطبعة محمد هاشم الكتبي/ دمشق سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، المؤلف والمختلف للحسن بن بشر الأمدي ص ٤٦ تحقيق «كرنكو»/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ مكتبة القدسي/ طبعة ثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢) معجم البلدان رسم «حوزة» ٣١٩/٢.

(٣) معجم البلدان رسم «أرمام» ١٥٤/١. وبلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية والإسلام لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر ص ١١٨ تصحيح وشرح أحمد الألفي/ طبع بمطبعة والده عباس الأول بالقاهرة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م، نسب الخيل لابن الكلبي ص ٥٠، ٥٦ تحقيق نوري حمود القيسي وحاتم الضامن/ طبع عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية/ بيروت، النوادر لأبي علي القالي ٣/٨٤ مطبوعة مع كتاب الأمالي تصوير دار الكتب العلمية ببيروت عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥م. المؤلف والمختلف للأمدي ص ٤٦ تصحيح «كرنكو».

(٤) صفة جزيرة العرب للهمداني ٣٢٠.

(٥) الطرائف الأدبية للميمني ص ٧، ومعجم البلدان رسم «جناب» ١/١٦٤.

(٦) الأغاني «دار الكتب المصرية» ١٠/١٨.

(٧) منتهى الطلب من أشعار العرب لأبي غالب بن ميمون بن محمد بن المبارك ج ٥ ورقة ١٤٩ أ مخطوطة مصورة بالمايكروفيلم في مكتبة جامعة الملك سعود المركزية.

سُلَيْم ومراد، صبر فيه الفريقان ولم يظفر أحدهما بالآخر^(١). والثاني بين مذحج وقضاة، وكان الطَّوْل فيه لقضاة على مذحج^(٢)، يوم «حَلُوم» بين بني الحارث بن كعب، وبني عامر والسبب أن دريداً أغار واستبى إبلا لبني الحارث فلحقه يزيد بن عبد الدان واستعاد السَّبي، وكان ذلك بأسفل نجران^(٣). يوم «السَّلَف» كان لبني الحارث على هوازن، وكانت الغلبة فيه لبني الحارث وهزمت فيه هوازن^(٤). يوم «بَيْشَةَ» بين مذحج ومعها قضاة وبين هوازن، والظاهر أن الغلبة في هذا اليوم كانت لهوازن^(٥)، يوم «الكُدَيْد» بين مذحج وقيس ومعها خِنْدَف^(٦). يوم «حَضَن» وهو جبل في أول نجد للقادِم من نجران وكان هذا اليوم بين هوازن وبلحارث وكانت الدائرة على هوازن^(٧). يوم «وادي الأخرمين» كان لتغلب على صُدَاء^(٨)، «عَدَاة الأخرمين» بين أرحب وبني الحارث بن كعب وقد سَبَتْ أرحب فيه سبياً كثيراً^(٩)، يوم «القَرِيحَا» بين مذحج وقضاة وبين هوازن^(١٠)، يوم «شَبَا» لمذحج على

(١) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١١١ تحقيق مطاع الطرابيشي.

(٢) شرح قصيدة الدامغة للهمداني أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ٢٥٨، ٢٦١ / تحقيق محمد بن علي الأكوغ / طبع مطبعة السنة المحمدية بمصر.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الأغاني «دار الكتب المصرية» ١٩/١٢.

(٥) شرح قصيدة الدامغة للهمداني ص ١٧٨.

(٦) المصدر السابق ص ١٧٤، ١٧٦.

(٧) المصدر السابق ص ٧٤، ١٧٦.

(٨) الأنوار ومحاسن الأشعار لأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي ٧٨ تحقيق صالح مهدي العزاوي / منشورات وزارة الإعلام العراقية.

(٩) الإكليل لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ١٠ / ١٩٠ تحقيق محب الدين الخطيب / المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٦٨ هـ.

(١٠) شرح قصيدة الدامغة للهمداني ١٧٨، ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٤٢ تحقيق مطاع الطرابيشي.

بكر^(١). يوم «مَمَر» بين شاعر من همدان وبين مازن من زبيد ومعهم جعفي، وفيه أغار عمرو بن معد يكرب علي الحشاش الأصغر، ولكن عمراً رجع خائباً^(٢). يوم «جيش العُكَّار» بين مذحج وهمدان^(٣). يوم «خَرَّاض» بين مراد وبلحارث ابن كعب من جهة وهمدان من جهة أخرى^(٤). يوم «السَّالْن» لربيعة علي مذحج^(٥). يوم «الصَّبِيب» كان في بطن وادي قو لبني أود علي بني عامر بن صعصعة، وكان الظفر في هذا اليوم لأود^(٦). يوم «العَذِيب» لبني سعد بن زيد مناة وَعَنْزَةَ علي مذحج وحمير، انهزم فيه اليمانيون وقتل رئيسهم الأصهب الجعفي^(٧).

وهناك أيام وردت في شعر مذحج لم تذكرها كتب الأيام، ولم نعرف عنها شيئاً إلا أن مذحجاً كانت طرفاً فيها، من هذه الأيام. يوم لَحَج^(٨). يوم نجد^(٩). يوم شام^(١٠). يوم الطَّفَاف^(١١). يوم سُلَاطِح^(١٢). يوم غِمْرَة^(١٣).

-
- (١) الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني ١٢ ومعجم ما استعجم «شبا» ٧٧/٢.
(٢) الإكليل للهمداني ٢٣٨/١٠.
(٣) المصدر السابق نفسه ٢٤٥/١٠.
(٤) الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني ص ٧.
(٥) سبائك الذهب للسويدي ص ١١٧.
(٦) معجم ما استعجم رسم «الصَّبِيب» ١١٠٣/٢ والطرائف الأدبية للميمني ص ٨.
(٧) العمدة لابن رشيقي ٤٠٨/٢.
(٨) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٧٧ تحقيق مطاع الطرابيشي، صفة جزيرة العرب للهمداني ٣١٤، معجم البلدان رسم «لحج» ١٤/٥.
(٩) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٧٧ تحقيق مطاع الطرابيشي، صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٣١٤، معجم البلدان رسم «نجد اليمن» ٢٦٤/٥.
(١٠) معجم البلدان رسم «شام» ٣١٥/٢.
(١١) الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني ٢١، ١٢ ومعجم البلدان رسم «الطَّفَاف» ٣٥/٤.
(١٢) معجم البلدان رسم «سُلَاطِح» ٣٢/٣، أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها للأسود الغنجداني ص ٢٥٢ تحقيق محمد علي سلطاني / طبع مؤسسة الرسالة.
(١٣) معجم البلدان رسم «غمرة» ٢١٢/٤.

ومن الأيام التي وقعت بين قبائل مذحج فيما بينها «يوم الرزم» الذي سبق فقد تقابلت فيه مراد مع بني الحارث بن كعب وهمدان^(١)، وكذلك يوم «أنشام» بين غُطَيْفٍ وَأَنْعَمٍ وَأَعْلَا، وكلهم من مراد^(٢)، يوم «غَدَاة الأزنَب» لبني زُبَيْدٍ على بني زياد من بني الحارث بن كعب^(٣)، ووقعة «العَطْف» غادية كانت لصداء علي مراد^(٤).

وهناك حروب قامت بين مذحج فيما بينها، أو بين مذحج وغيرها من القبائل وردت في شعر بعض شعراء مذحج، أو في بعض الأخبار، ولكنها لا تُذكر على أنها أيام بل على أنها حروب قد تَصَغُرُ وقد تكون عظيمة^(٥).

أما أيام مذحج في الإسلام فليست كما هي عليه في العصر الجاهلي، حيث إن الإسلام قضى على مسببات تلك الحروب كالأخذ بالثأر والعصبية القبلية البغيضة، بجانب ذلك أن قبائل مذحج مع غيرها من سائر القبائل خرجت للجهاد في سبيل الله وانشغلت بالذي هو خير، ولم نجد إلا ذلك اليوم الذي وقع بين بني الحارث بن كعب وبين عُقَيْلٍ في أواخر العصر

(١) معجم البلدان رسم «رزم» ٤٢/٣، والسيرة النبوية لابن هشام ٥٨١/٢.

(٢) معجم البلدان رسم «أنشام» ٢٦٥/١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣٤٢/٣، شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٥٠ / مطاع الطرابيشي.

(٤) التعليقات والنوادر لأبي علي هارون بن زكريا الهجري ورقة ٣١١ نسخة مصورة عن نسخة هندية مخطوطة في مكتبة أستاذي عبد العزيز بن محمد الفيصل.

(٥) انظر في شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي / تحقيق مطاع الطرابيشي ص ٤٩، ٦٤، ٨٢، ٨٤ / جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ١٨٩ نسخة مخطوطة مصورة بالمايكروفيلم في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود المركزية، الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني ص ٧، معجم ما استعجم رسم «تعمسار» ٣١٤/١، ٣١٥ ورسم «جند» ٢٩٧/٢. معجم البلدان رسم «برقة ضاحك» ٢٩٦/١. الكامل لابن الأثير / ٢٩٩.

الأموي، والذي انتهت أحداثه بإقامة السلطان حَدَّ القصاص علي جعفر بن
علبة الحارثي الذي تسبب في هذا اليوم ويسمى ذلك اليوم بيوم «سَحْبِل»^(١).

أعلام مذحج :

لقبيلة مذحج أعلام في الجاهلية والإسلام، برزوا من خلال مواقفهم من
تلك الأحداث التي عاصروها في الجاهلية والإسلام، وأثروا بتلك المواقف في
حياة قومهم، وكان لأولئك الأعلام أثرهم الواضح في تشكيل حياة القبيلة،
وإحلالها تلك المكانة المرموقة التي تسنمتها في الجاهلية والإسلام.

فمن أعلام مذحج في الجاهلية شَرَا حَيْلُ بن الشَّيْطَان، وجَدَه الأَصْهَبُ
الجُعْفِي، كان أكثر القواد حرباً وأبعدهم غارة في الجاهلية^(٢). وعبد يغوث
الحارثي قائد مذحج يوم الكُلاب الثاني^(٣)، والأفْوَه الأودي شاعر أود
وفارسها وحكيمها^(٤)، والمَكْشُوح المرادي قاد مراد، وثار على عمرو بن مَامة
وقتلته^(٥)، ومن بني الحارث بن كعب الديان جد بني عبد المدان الذين هم
بيت مذحج ورؤسائها وأخوال أبي العباس السَّفَاح^(٦)، ومن أعلام مذحج
المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية والإسلام، يزيد بن عبد المدان، كان

(١) الأغاني «دار الكتب المصرية»، ٤٥/١٣، ٤٧.

(٢) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ٢٠٦، الاشتقاق لابن دريد ٤٠٦ تحقيق عبد السلام محمد
هارون/ طبع مكتبة الخانجي/ مصر. العمدة لابن رشيق ٤٠٨/٢.

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٧.

(٤) الطوائف الأدبية للميمني ص ٢ - ٢٤، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١١.

(٥) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ٢٢٢، الاشتقاق لابن دريد ٤١٤، شرح القصائد السبع
الطوال لابن الأنباري ١١٨ - ١٢٠.

(٦) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٦.

شريفاً وشاعراً وفارساً وفد على النبي ﷺ، وقيس بن الحصين الحارثي كتب له رسول الله ﷺ كتاباً على قومه^(١)، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي شاعر وفارس^(٢)، وقيس بن مكشوح المرادي، كان له دور في فتوح الشام والعراق^(٣)، وفروة بن مسيك المرادي، ولاء رسول الله ﷺ صدقات مذحج^(٤)، ومحمية بن جزء الزبيدي له صحبة وهو بدري ولآه رسول الله ﷺ الأخماس والغنائم يوم بدر^(٥)، وعمار بن ياسر العنسي وأسرتة من أوائل المؤمنين برسول الله ﷺ في مكة، وعمار بدري مهاجر^(٦)، ومن أعلام مذحج في الإسلام الربيع بن زياد الحارثي، ولي خراسان وفتح بعضها، وكانت له منزلة عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٧)، وشريك بن الأعور الحارثي كان فارساً متشيعاً وهو الذي قال لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه^(٨):

فَإِنْ تَكُ مِنْ أُمَّيَّةَ فِي ذُرَاهَا

فَإِنِّي مِنْ بَنِي عَبِيدِ الْمَدَانِ

-
- (١) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ١٩٥، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١٦.
- (٢) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ٢٢٥، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤١١.
- (٣) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ٢٢٢، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٧ الاشتقاق لابن دريد ١٤١٤.
- (٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٢٧/١.
- (٥) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤١٢.
- (٦) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٥.
- (٧) الاشتقاق لابن دريد ٣٩٨.
- (٨) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠١، أخبار شعراء الشيعة لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني تلخيص السيد محسن الأمين العاملي ص ٥٢ تحقيق محمد هادي الأميني / المكتبة الحيدرية ومطبعتها/ النجف / طبعة أولى سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

والأشتر النَّخَعِي صاحب علي رضي الله عنه، وابنه ابراهيم بن الأشتر من كبار قواد عبد الله بن الزُّبَيْرِ، وأخيه مُصْعَب، والمُخْتَار بن أبي عبيد الثقفي^(١). والجراح بن عبد الله الْحَكَمِي والي خراسان^(٢)، وعُبَيْدُ الله بن الْحَرِّ الْجَعْفِي كان فاتكاً شاعراً ثائراً لا يعطي الأمراء طاعة، وكان يغير على العراق^(٣)، وزَحْر بن قيس الْجَعْفِي قال فيه الحجاج بن يوسف: من سره أن ينظر للشهيد الحي فلينظر إلى هذا^(٤). وله من الأبناء أربعة كلهم شرفاء منهم جَبَلَة بن زَحْر قتل يوم الْجَمَاجِم وحمل رأسه على رمحين فقال الحجاج بن يوسف: يا أهل الشام ماكانت فتنة قط، فتجلت حتى يقتل عظيم من عظماء اليمن وهذا من عظمائهم^(٥). ومن أعلام مذحج كذلك أُوَيْس الْقَرْنِي، كان من خيار التابعين، ورد فيه أثر عن رسول الله ﷺ^(٦)، هؤلاء جماعة من أعلام قبيلة مذحج من مختلف قبائلها في الجاهلية والإسلام، وهم من الذين كان لهم أثر في رسم حياة مذحج والتأثير في تلك الأحداث التي خاضتها مذحج، سواء في جاهليتها أو في إسلامها مما يجعل لها مكانتها بين سائر القبائل العربية.

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢١٤.

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٩.

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٥٠٣/٢.

(٥) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ٢١٠ / الاشتقاق ٤٠٧.

(٦) امهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ٢١٠، الاشتقاق لابن دريد ٤٠٧.

(٧) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠٧، الاشتقاق لابن دريد ٤١٤.

حياة مذحج العامة :

لغة مذحج :

إن عِظَم قبيلة مذحج، وانتشار بطونها في أجزاء واسعة من جنوب جزيرة العرب، أثار في لغتها، ولهجاتها، فكثير من قبائل مذحج تخالط القبائل القيسية والعدنانية في مواطن متعددة، كما اتضح لنا عند الحديث عن ديار مذحج، وهذه القبائل العدنانية والقيسية قبائل عربية اللغة، وفصيحة اللسان، لا يخالج أحداً الشك في فصاحة لغتها واستقامة أسنتها على العربية، بل كانت من أفصح القبائل العربية، التي أخذ عنها العلماء اللغة العربية، وعلى ذلك فمن طبائع الأشياء أن تكون القبائل المذحجية التي تخالط تلك القبائل الفصيحة اللسان، وتعايشها، وتتحارب معها، مثلها في النطق واللغة مثل تلك القبائل الفصيحة التي تعايشها لغة ولساناً لمشاركتها لها في الحياة العامة، وإذا ما استعرض الباحث قبائل مذحج وجد أن معظمها - كقبائل بني الحارث بن كعب، وزُبيد، ومراد، وجَعْفِي وَسَنْحَان وجَنَب وبتون سعد العشيرة - تخالط تلك القبائل العربية الفصيحة، وأن القلة القليلة من بطون مذحج هي التي تتوغل مواطنها جنوباً وتتخذ من أقاصي اليمن موطناً لها، تخالط فيه حمير وسبأ وحضرموت التي يُشكك كثير من العلماء قديماً والباحثين حديثاً في عربية لغتها، واستقامة لسانها على الفصاحة، ومن هذه البطون المذحجية التي يجب أن نتحفظ في إصدار الأحكام على فصاحتها - قبيلة عَنَس التي تستوطن جنوب صنعاء - وأود والنخع اللتين تستوطنان ناحية رداع وسرو مذحج والدثينة، وأبين. ومما يؤيد هذا الرأي، قول نولدك: «إن أهل اليمن ربما عدا مقاطعات بسيطة

كانوا عام ٦٠٠ بعد المسيح يتكلمون العربية^(١)، وقول جواد علي: «ويظهر لنا من تدقيق منازل القبائل والبطون المنسوبة إلى حمير أنها كانت في العربية الجنوبية، وأنها بقيت في مواضعها على الغالب في الإسلام بينما نجد قبائل كهلان - التي مذحج فرع منها - وبطونها وهي فرع سبأ الثاني قد سكنت في مواضع بعيدة عن اليمن، وهي قبائل ضخمة أضخم من قبائل حمير، ثم إنها كانت تتكلم بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم في الإسلام، أما بطون حمير فقد كانت تتكلم بلغة ركيكة رديئة غير فصيحة، بعيدة عن العربية على حد تعبير الإخباريين»^(٢). ويقول ريجنس بلاشير: «وعلى كل حال فقد أصبح استعمال العربية زمن النبي محمد ﷺ، أمراً شائعاً، وإن لم يكن عند قبائل حضرموت فعلى الأقل عند القبائل الضاربة في تهامة، أو شواطئ البحر الأحمر، وفي الداخل في المنطقة الواقعة بين نجران والجوف اليمني، ولم يرد في المصادر القديمة التي تقص مقابلة الرسول - ﷺ سنة ٦٣١م للوفود القادمة من الجنوب من الوفود اليمنية أنها استعملت في التخاطب اللغة العربية الجنوبية، كما أن الدعاة الذين أوفدهم الرسول ﷺ، لهداية القبائل في تلك المنطقة إلى الإسلام - كانوا يتكلمون العربية في عدة قبائل، خثعم، ومراد، وبلحارث الضاربة على تخوم اليمن»^(٣).

مما سبق يتضح أن القبائل المذحجية المتوغلة في أقاصي جنوب الجزيرة العربية والمخالطة لقبائل حمير - التي يقول فيها أبو عمرو بن العلاء «ما

(١) تأثر العربية باللغة الجنوبية القديمة ص ٧ هاشم الطعان / مطبعة الإرشاد / بغداد سنة ١٩٦٨م.

(٢) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / جواد علي ٤/٤١٦.

(٣) تاريخ الأدب العربي / ريجنس بلاشير ص ٢٧ ترجمة ابراهيم الكيلاني / دار الفكر / دمشق / طبعة ثانية ١٩٨٤م / ١٤٠٤هـ

لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»^(١)، هي التي يجب علينا أن نتحفظ في الحكم بعربية لسانها وفصاحة منطقتها ومدى مطابقتها لسننتها لالسنة شقيقاتها من القبائل المذحجية الضاربة في الأطراف الشمالية من جنوب الجزيرة والتي تخالط القبائل العدنانية والقيسية، وكذلك يؤكد هذا الرأي الشعر المجموع بين أيدينا لقبائل مذحج، فمن النزر اليسير والنادر أن نجد شاعراً عربياً فصيحاً جاهلياً لتلك القبائل المذحجية التي تخالط قبائل حمير في جنوبي صنعاء في أقاصي اليمن، ونجد أن أكثر الشعر أَوْجَلُهُ المجموع لدينا، والجاهلي منه بخاصة، كان لتلك القبائل المذحجية التي تخالط القبائل القيسية والعدنانية في الأجزاء الشمالية من جنوب الجزيرة العربية، كبني الحارث بن كعب ومراد وزبيد وجعفي وسنحان وجنب وسعد العشرة، إذاً، فجمهرة قبائل مذحج تتكلم العربية الفصيحة، وتصطنعها لغة لها، كالقبائل العدنانية والقيسية، سواء بسواء، في العصر الجاهلي، أما بعد انتشار الإسلام، في جنوب الجزيرة العربية، فمن طبائع الأمور أن تعم اللغة العربية الفصيحة قبائل جنوب الجزيرة الداني منها والقاصي، وبخاصة الذين نزحوا وخرجوا للفتوحات الإسلامية، واختلطوا بالقبائل الشمالية. مع أنه بجانب ذلك ستبقى رواسب اللغة الجنوبية تلوي السنة القبائل المذحجية التي تخالط حمير في أقاصي اليمن والتي بقيت في مواطنها ولم يقدر لها المغادرة مع تلك الجحافل التي خرجت للفتوحات الإسلامية وحذقت اللغة العربية الفصيحة حذقاً تاماً، أو تخلصت من لهجاتها الجنوبية لتذوب في لغة الشمال المتمثلة في لغة قريش الخالصة التي هي لغة القرآن، والدين الجديد.

(١) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي ١١/١ تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة

المدني/ القاهرة/ ١٩٧٤م.

وقد ذكر الهمداني لغة قبائل مذحج باختلاف مواطنها، وذكر الفصح منها، ودون الفصح، والمتأثر منها باللغات الجنوبية في كتابة صفة جزيرة العرب^(١). ونصت كتب النحو، واللغة^(٢)، والغريب على لهجات قبائل مذحج التي وردت في القرآن الكريم وأثار الرسول ﷺ والشعر العربي الذي يحتج به والذي لا يدع مجالاً للشك بأن قبائل مذحج كانت تتكلم العربية وتصطنعها لغة لها فلا غرابة أن يكون لها شعر عربي فصيح.

عقيدة مذحج في الجاهلية :

لقد أثر كثرة قبائل مذحج وانتشارها في أماكن مختلفة من جنوب

(١) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢٢٧.

(٢) انظر حاشية الصبان على شرح أبي الحسن علي بن محمد الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني ٧٩/١ طبع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه/ بمصر، النوادر في اللغة، لأبي زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري ص ٥٨ / تصحيح سعيد الخوري الشرتوني اللبناني/ دار الكتاب العربي/ بيروت، واللسان «علا، فني، تلم، صيص، حلق، قلب «والتاج» المطا، خشا»، شرح المفصل لابن يعيش ٤٠٥ إدارة الطباعة المنيرية بمصر. وشرح لتصريح على التوضيح ٢٩/٢ لخالد الأزهري/ دار إحياء الكتب العربية/ مصر، والخزانة للبغدادي ١٤/٦، الأغاني ٥١/١٣ «دار الكتب المصرية». التعليقات والنوادر للهجري للنسخة الهندية ورقة ١٥٣، ١٩٢، ٢٢٠، ٢٨٩، ٢٢٤ / أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع/ حمد الجاسر ٢٦ - ١٣٦ الانوار ومحاسن الأشعار ٧٨. قطر الندى وبل الصدى لابن هشام ٦٢ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد/ المكتبة العصرية/ بيروت. المعرب للجواليقي ٢٦٤ تحقيق أحمد محمد شاكر/ طبع دار الكتب ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع وتحقيق مطاع الطرابيشي ص ٧١ / الإتيقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٩٧/٢، ٩٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ مطبعة المشهد الحسيني/ القاهرة/ طبعة أولى ١٣٩٧هـ - العقد الفريد ٦/٧٢، ٧٣، معجم لغات القبائل والأمصار/ جميل سعيد وداود سلوم ١/٢٣، ١٣٥، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٣٤. طبع المجمع العلمي العراقي ١٩٧٨م. وتهذيب إصلاح المنطق للخطيب التبريزي ص ٢٨٨.

الجزيرة في تشكيل عقيدتها في العصر الجاهلي، فهي تخالط كثيراً من القبائل العربية الوثنية، وهي تخالط قبائل سبأ وحمير الذين تنتشر فيهم اليهودية والنصرانية، فلا غرابة إذن، أن نجد جميع الأديان والعقائد الموجودة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، قد عرفتها مذحج واعتقدتها، فنجد من مذحج من هو وثني^(١) يعبد «ذا الخلصة» و«يغووث» و«فَرَاض» و«نسر» وَيُعَظَّم «نَخْلَةَ» و«الشُّعري» و«اللات» و«العُزَّى»، ونجد منهم من يعتنق «اليهودية»^(٢) ومن يدين بـ«النصرانية»^(٣)، بجانب أولئك نجد المتألهين الذين يُقَرُّون بـ«الألوهية» لله تعالى ويقرون بأحقيته بالعبادة، ويركعون ويسجدون له ويطلبون منه المغفرة^(٤).

وفود مذحج وإسلامها :

منذ أن انتشر الإسلام بمكة، ودخل فيه المؤمنون الأولون كان بعض رجالات مذحج الذين بمكة من أولئك المؤمنين الأولين بمكة. منهم آل ياسر العنسيين، ومن زبيد عمرو بن فحيل ومحمية بن جزء، وبعد أن أخذ الإسلام يسود الجزيرة العربية إثر فتح مكة، وأخذت القبائل تتوافد على

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٩٢، ٤٩٣، والسيرة النبوية لابن هشام ٧٩/١ / ومعجم البلدان رسم «نجران» ٢٦٦/٥، ورسم «الخلصة» ٣٨٣/٢ طبقات ابن سعد ٢٤٢/١، المزهر لجلال الدين السيوطي ١٦٤/١ شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى وآخرين / طبع دار الفكر / بدون تاريخ / تاريخ اليمن لعماره ١٥٨، ٢٩٦ / تاريخ اليعقوبي ٢١٣/١، ٢٥٦ / شعر عمرو بن معد يكرب جمع مطاع الطرابيشي ص ٥١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٩٦/٤، تاريخ اليمن لعماره ١٥٨.

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٩١، الأغاني ٦/١٢، ١٣ «دار الكتب المصرية»، تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢/٢٩٨، طبقات ابن سعد ١/٣٤٧ / الإيناس في الأنساب للعويني ص ٨١.

(٤) الأغاني ١٢/١٢ «دار الكتب المصرية»، والمزهر للسيوطي ١/١٦٤.

الرسول ﷺ، كانت قبائل مذحج من تلك القبائل الوافدة التي جاءت مسلمة طائعة إلى الله ورسوله ﷺ، وبدأت تبشير الإسلام تسود قبائل مذحج بعمامة من السنة الثامنة للهجرة، ولم تتخذ مذحج وفداً واحداً مشتركاً يمثل كل قبائلها أمام رسول الله ﷺ، ويعطي البيعة بل كان لكل قبيلة وفد يمثلها، وكان أول تلك الوفود وفد صداء في السنة الثامنة للهجرة^(١)، ثم توالى وفود مذحج، فكان لمراد وفد^(٢)، ولزُبيد وفد^(٣)، ولسعد العشيرة وفد^(٤)، ولجعفي وفد^(٥)، ولزها وفد^(٦)، ولعنس وفد^(٧)، ولبني الحارث بن كعب وفد يمثل الذين كانوا وثنيين منهم ثم أسلموا على يد خالد بن الوليد^(٨)، ووفد آخر يمثل النصارى الذين كانوا بنجران^(٩)، وكان آخر الوفود وفد النخع، فقد وفدوا في النصف من شهر محرم من السنة الحادية عشر للهجرة^(١٠).

-
- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٣٢٦، العقد الفريد ١/٢٤٨.
- (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٣٢٧، تاريخ الأمم والملوك للطبري ١/١٩٨.
- (٣) المصدران السابقان، ١/٣٢٨، ١/١٩٧.
- (٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٣٤٢.
- (٥) المصدر السابق ١/٣٢٤، ٢٢٥، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ١/٢٠٠.
- (٦) طبقات ابن سعد ١/٣٤٤، ٣٤٥.
- (٧) المصدر السابق ١/٣٤٢.
- (٨) طبقات ابن سعد ١/٣٤٤، ٣٤٥ / وتاريخ الأمم والملوك للطبري ١/١٩٤، والسيرة النبوية ٤/٥٩٢.
- (٩) طبقات ابن سعد ١/٣٤٦، تاريخ الأمم والملوك للطبري ١/٢٠٠.
- (١٠) طبقات ابن سعد ١/٣٤٦، العقد الفريد ١/٢٤٧ - تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢/٢٩٦ - ٢٩٩.

حياة مذحج الاجتماعية :

لقد تعددت قبائل مذحج — كما رأينا — وتفرعت بطونها، وهذا التعدد جعل من قبائل مذحج ماهي في عداد أهل الوبر، تعيش حياة الصحراء، والبدواة والتنقل مثل سائر القبائل العربية، وراء الماء، والكلأ، ومنها ماهي في عدد أهل المدر الذين يعيشون في القرى، وألّفوا حياة الاستقرار، فكانت حياتها تغلب عليها الراحة واستشراف ما عند الأمم المتمدنة من عادات وتقاليد في المأكل، والملبس، وسائر شؤونها المعيشية، ومن هؤلاء بنو الحارث بن كعب في نجران، فقد كان ساداتهم ينظرون لأنفسهم في عداد الملوك، وكانوا كثيراً ما يفتدون على ملوك اليمن^(١) والغساسنة في الشام^(٢) والمناذرة في العراق، وكسرى في بلاد فارس^(٣). وهذا يزيد بن عبد المدان الحارثي، يترفع أن يوصف بالبدوي الناقص الهمة الذي يمارس الرعي، ويتنكب القوس والسهم، ويصف نفسه في هيئة لباسه الحربي، بوصف الملوك، القواد العظام الذين عرفوا أنواعاً خاصة من الدروع حيث يقول^(٤):

وَلَسْتُ بِشَاوِيٍّ عَلَيْهِ دَمَامَةٌ

إِذَا مَا غَدَا يَغْدُو بِقَوْسٍ وَأَسْهُمٍ

(١) انظر الأمازي لابي علي القالي ١/٢٤ / نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ تصوير دار الكتب العلمية/ بيروت.

(٢) الأغانى ١/١٢، دار الكتب المصرية.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ١/٢٢٧.

(٤) شرح أبيات سيويه لابن السيراني شاهد رقم (٥١٢) ج ١ ص ٢٦٨ تحقيق محمد علي سلطاني/ دار المأمون للتراث/ دمشق وبيروت. ١٩٧٩ م.

وَلَكِنِّي أَغْدُو عَلَيَّ مَفَاضَةً

دِلَاصٌ، كَأَغْيَانَ الْجَرَادِ الْمُنْظَمِ

وكانوا في نجران يصطنعون بعض أنواع المآكل التي لم يعهدها العَرَب في جزيرتهم، من ذلك «الفألُوذَج» الذي ذكره أميَّة بن أبي الصَّلْت حيث قال: أتيت نجران فدخلت على عبد المدان بن الديان فإذا به على سريرته، وكان وجهه قمر، وحوله بنوه كأنهم الكواكب، فدعى بالطعام فأتى «بالفالوذج» فأكلت طعاماً عجيباً، ثم انصرفت وأنا أقول^(١):

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْقَوَائِلِينَ وَفِعْلَهُمْ

فَرَأَيْتُ أَكْرَمَهُمْ بَنِي الدِّيَانِ

وَرَأَيْتُ مِنْ عَبْدِ الْمَدَانِ خَلَائِقاً

فَضَلَ الْأَنْبَاءَ بِهِنَّ عَبْدُ مَدَانٍ

الْبُرَيْلُبُكَ بِالشُّهَادِ طَعَامُهُ

لَا مَا يُعَلَّلْنَا بَنُو جَدَعَانَ

أما الذين يعيشون عيشة البداوة والتنقل، والترحال، فمثلهم مثل سائر القبائل العربية البدوية، في عاداتها، وتقاليدها، وحياتها الاجتماعية، والمعيشية، فهي دائمة التنقل والتواجد على المياه والمراعي يتنقلون حسب فصول السنة، فيتخذون المَقِيظ، والمَشْتَى والمُتَرَبِّع^(٢).

(١) الامالي لابي علي القالي ٣/٣٩.

(٢) انظر شعر خالد الزبيدي في معجم البلدان رسم «سنجار» ٢/٢٦٢.

ولرجال مذحج عادات اجتماعية تدل على اتفاقهم وصلحهم إذا ما رضوا
واتفقوا، وهي علامة على ذلك وهي «مسح اللحية باليد والقبض عليها» حيث
يظهر ذلك في قول الأسعر الجعفي^(١):

مَسَحُوا لِحَاهُمْ ، ثُمَّ قَالُوا : سَأَلُوا

يَا لَيْتَنِي فِي الْقَوْمِ إِذْ مَسَحُوا اللَّحَى

ومن عاداتهم تَحْسِيرُ الرَّأْسِ، والكشف عنه عند المهمات وفي ساحات
الحروب، ذكر ذلك يزيد بن عبد المدان الحارثي في شعر له^(٢)، والكرم
والوفاء والشجاعة عادات مقدسة عند مذحج مثل سائر العرب^(٣)، وشباب
مذحج شديدي الاعتناء بمظهرهم وملامح جمالهم ولباسهم، فهم يتخذون
اللُّمَّةَ من الشَّعْرِ ويرجلونها ويلبسون الثياب الجميلة، ويجرونها، مباهاة،
وخيلاء، وعظمة، ولكي يلفتوا بها اهتمام الفتيات الجميلات^(٤)، يقول عمرو
بن قَعَّاس المرادي^(٥):

أُرْجِلُ لَمَّتِي وَأَجْرُ نَيْلِي

وَتَحْمِيلُ شِكَّتِي أْفُقُّ كَمِيَّتُ

واشتهر نساء مذحج، والحارثيات منهن بخاصة بجمالهن، وتغنى بهن
الشعراء وكان لذلك الجمال أثر في شدة غيرة رجالهن عليهن، لذلك كانت من

(١) خزانة الادب للبغدادي ١٥١/٤، ١٨١/٩.

(٢) شرح قصيدة الدامغة للهمداني ٢٦١.

(٣) المؤلف والمختلف للآمدي ١٩١، (كرنكو)، والوحشيات لأبي تمام ص ٤٣.

(٤) الخزانة للبغدادي ٧٦/٣.

(٥) شعر عمرو بن قَعَّاس المرادي في الاختيارين للأخفش الصغير ٢١١.

عادتهم عند بناء بيوتهم، المباعدة بينها، وتفريقها، وكان نعمهم لا يعود إلا مساءً، لكي يتسنى للنساء اللاتي لهن منه شيء أن يخرجن لأخذه، دون أن يراهن أحد^(١).

وقبيلة عَنَسْ يلبس أبناؤها الرياط البيض، والقلنسي^(٢)، ونساء مذحج - كما ذكر عمرو بن معد يكرب الزبيدي - يُلَوْنَ رِيْطُهُنَّ بالزعفران، ويلبسن النُقْب^(٣)، وكان لهن عِفَّةٌ بجانب جمالهن، وسمعة اجتماعية حسنة، دل على ذلك حرص أشرف العرب على مصاهرة مذحج، فقد ذكر ابن جرير الطبري أن النخع كانوا يسمون بأختان المهاجرين^(٤)، وكان لنساء مذحج عادات في مناسبات الزواج، وذلك برفع أصواتهن بالغناء عند زفاف العروس لزوجها^(٥). وقد اشتهرت نساء مذحج بشدة النياحة على الميت، وذلك بإنشادهن لأشعار يتداولنها^(٦)، ووضَّح لنا شعر مذحج مجال عمل المرأة لديهم عندما قال عمرو بن قَعَّاس المرادي^(٧):

أَلَّا رَجُلًا جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا

يَسُدُّ عَلَى مَحْصَلَةٍ تَبِيْتُ

(١) الأغاني ٢٧/١٠ «دار الكتب».

(٢) الخصائص لابن جني ٢٢٥/١، تحقيق محمد علي النجار/ طبع دار الكتب المصرية ١٣٧٦هـ/
نشر دار الكتاب العربي/ بيروت.

(٣) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ص ٤٢.

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣٢٤/٥.

(٥) شعر عمر بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ص ١٣.

(٦) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٣٦٥.

(٧) الخزانة للبغدادي ٥٢/٣.

تَرْجُلٌ لَّمَّتِي وَتَقْمٌ بَيْتِي

وَأَعْطِيهَا الْإِتَاوَةَ إِنْ رَضِيتُ^(١)

ومن عادات بعض قبائل مذحج التي ذكرها الأسعر الجعفي في شعره
البخل وكثرة حاجاتهم وإلحاحهم في تلك الحاجات عند طلبها، وأن
مؤاخاتهم ليست خالصة، بل هي لجرِّ المنافع حيث يقول^(٢):

وَخَصَّاصَةٌ الْجَعْفِيِّ مَا صَاحَبْتَهُ

لَا تَنْقُضِي أَبَدًا وَإِنْ قِيلَ انْقُضَى

إِخْوَانٌ صِدْقٍ مَا رَأَوْكَ بِغِبْطَةٍ

فَإِنْ افْتَقَرْتَ فَقَدْ هَوَى بِكَ مَا هَوَى

ومن عقائد مذحج الاجتماعية الغريبة عدم أكل القلب، وذلك عند بني
جَعْفِي، ففي طبقات ابن سعد أن سلمة بن يزيد الجعفي، وفد على رسول
الله ﷺ، ولما علم الرسول ﷺ أنه لا يأكل القلب، أخبره أنه لا يكمل إيمانه
إلا بأكل القلب، وناوله قلباً مشوياً فأكله بعد أن رَعَدَتْ يده ثم قال^(٣):

عَلَى أَنِّي أَكَلْتُ الْقَلْبَ كَرَاهًا

وَتَرَعُدُ حِينَ مَسْتَهُ بِنَانِي

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ١/ ٢٥٠ شرح وتصحيح وترتيب يوسف علي الطويل/

مطبعة دار الكتب العلمية بيروت/ طبعة أولى سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ١/ ٢٥٠.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٢٥.



« القسم الأول »

الدراسة



الفصل الأول

أغراض شعر مَذْحِج

١ - الفخر :

قبيلة مذحج من القبائل العظيمة في الجزيرة العربية، وفيها من القوة، والسؤدد ما يهيء لشعرائها أن يرفعوا عقائرهم مفاخرين بهذه القوة وبهذا السؤدد، والشاعر قد يفخر بنفسه من خلال ذاته، أو من خلال الفخر بقومه، والفخر إنما يحسن إذا كان الشاعر يمتدح بالفضائل النفسية، والخصال الخلقية بعيداً عن التباهي بالأمور المادية، والقوة الجسدية والتفاخر بالأنساب والأصول والقبائل^(١)، ولكن كل هذه الصفات من الفخر كان مقبولاً في العصر الجاهلي ويجد أذنأ صاغية، ولذلك وجدناها في شعر مذحج، فمن الفخر بالفضائل النفسية، والخصال الحميدة الخلقية قول مويال بن جُهَيْم المَذْحِجِي^(٢):

(١) الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه ص ٢٠١ / يحيى الجبوري / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٢) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين الجاهلين والمخضرمين للخالدين أبي بكر محمد وأبي عثمان بن سعيد ٢/٢٥٣ تحقيق السيد محمد يوسف / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦ م، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٢/٨٨٤.

أَلَمْ تَعَلِّمِي يَا عَمْرُكَ اللهُ أَنَّنِي
 كَرِيمٌ عَلَى حِينِ الْكِرَامِ قَلِيلُ
 وَأَنِّي لَا أَخْزَى إِذَا قِيلَ مُمْلِقُ
 سَخِيٌّ ، وَأَخْزَى أَنْ يُقَالَ : بَخِيلُ
 وَإِنْ لَا يَكُنْ عَظْمِي طَوِيلًا فَإِنِّي
 لَهُ بِالْخِصَالِ الصَّالِحَاتِ وَصُولُ
 وَلَا خَيْرٌ فِي حُسْنِ الْجِسْمِ وَطَوْلِهَا
 إِذَا لَمْ يَزِنْ حُسْنَ الْجِسْمِ عُقُولُ
 وَلَمْ أَرَ كَالْعُرُوفِ أَمَّا مَذَاقُهُ
 فَحُلُوٌّ ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ

ويفخر نابغة بني الديان الحارثي بأخلاق قومه الحسنة، وهي أخلاق
 فيها العفة، والمشاركة في شؤون الحياة، وفيها العدل والمساواة والإيثار
 فيقول^(١):

وَتَبِيتُ جَارَتُنَا حَصَانًا عَفَّةً
 تَثْنِي وَيَأْخُذُ حَقَّهُ مَوْلَانَا
 وَنُحِقُّ حَقَّ شَرِيبِنَا فِي مَائِنَا
 حَتَّى يَكُونَ كَأَنَّهُ أَسْقَانَا

(١) المؤلف والمختلف للأمدي ١٩١، ١٩٢ «كرنكو».

وَتَقُولُ إِنَّ طُرُقَ الْمَثُوبَةِ أَصْبَحُوا
 لِيُوصَاةِ وَالِدِنَا الَّذِي أَوْصَانَا
 وَيَعِيشُ فِي أَحْلَامِنَا أَشْيَاعُنَا
 مُزْدَاً وَمَا وَصَلَ الْوُجُوهَ لِحَانَا
 وَيَظَلُّ مُقْتَرِنَا بِحُسْنِ عَفَافِهِ
 حَتَّى يَرَى وَكَأَنَّهُ أَغْنَانَا

أما الفخر بالأمور المادية، والقوة الجسدية والشجاعة، فذلك ليس غريباً
 على قبائل مذبح المحاربة ذات القوة والبأس والشدة، فلقد وُجد فيها
 الشجعان والفرسان أمثال: عمرو بن معد يكرب الزبيدي والمكشوح المرادي
 وغيرهما من الأبطال، وقد وجدنا أن أكثر شعرها كان الفخر بالشجاعة،
 ومنازلة الأعداء، وخوض المعارك، فهذا مخرم بن يزيد الحارثي يفخر
 بشجاعته وشجاعة قومه وقتلهم أعداءهم وملء الأرض منهم بالجثث حيث
 يقول^(١):

وَخَيْلٌ قَدَّ لَبَسْتُهُمْ بِخَيْلِ
 تَخَوُّصِ الْمَوْتِ فِي يَوْمِ عَصِيبِ
 مَلَأْنَا الْأَرْضَ مِنْ قَتْلَى نَمِيرِ
 بِرَغْمِ كَانِ مِنَّا فِي الْقُلُوبِ

(١) معجم الشعراء للمرزباني ٤٧٢ «كرنكو».

تَرَكَنَا فِيهِمُ الْعُقْبَانَ جَثَلًا

وَقُوفًا بَيْنَ أَضْلَاعِ الْجَنُوبِ

أما الأسعر الجعفي فيفخر بشجاعته التي تتضح في أنه قصد رئيس أعدائه فقتله وجعله تحت سنايك الخيل حيث يقول (١):

وَمُرَّاسٍ أَقْصَدْتُ وَسَطَ جُمُوعِهِ

وَعِشَارِ رَاعٍ قَدْ أَخَذَتْ فَمَا تَرَى

ظَلَّتْ سَنَايِكُهَا عَلَى جُثْمَانِهِ

يَلْعَبْنَ دَحْرُوجَ الْوَلِيدِ وَقَدْ قَضَى

وَلَقَدْ ثَارَتْ دِمَاءَنَا مِنْ وَاتِرِ

فَالْيَوْمَ إِنْ زَارَ الْمَنُونُ قَدْ اِكْتَفَى

والأسعر الجعفي دائماً عاشق الحرب - وهذا يدل على شجاعته - حتى إن من يطلبه يجده بين المحاربين لا بين المسالمين حيث يقول (٢):

وَإِذَا رَأَيْتَ مُحَارِبًا وَمُسَاكِمًا

فَلْيُبَغِّنِي عِنْدَ الْمُحَارِبِ مَنْ بَغَى

والفخر بفرض الرأي لو كان باطلاً وجائراً، دلالة عند بعض المذحجين على القوة والشجاعة، وقد فخر بذلك عمرو بن قعاس المرادي حيث قال (٣):

(١) الأصمعيات ص ١٤٠.

(٢) الأصمعيات ص ١٤٠.

(٣) منتهى الطلب من أشعار العرب لحمد بن المبارك ورقة ١١٩ ب، ١٢٠.

أُثْبِتُ بِأَطْلِي فِيكَوْنُ حَقًّا

وَحَقًّا غَيْرَ ذِي شُبُهَةٍ لَوَيْتُ

ويفخر عمرو بن عبد الله المذحجي بشجاعته التي يعرفها عنه حيا سعد ومذحج وأنه في المعركة لا يقابل إلا الأبطال الشجعان ولا يبسي الدروع فيصرعهم حيث يقول^(١):

قَدْ عَلِمْتُ سَعْدًا وَحَيُّ مَذْحِجٍ

أَنْيُّ لَدَى الْهَيْجَاءِ غَيْرُ مُحْرَجٍ

أَعْلُو بِسَيْفِي هَامَةً الْمُدَجِّجِ

وَأَتْرُكُ الْقَرْنَ لَدَى التَّعْرَجِ

فَرَيْسَةَ الضَّبْعِ الْأَخِيلِ الْأَعْرَجِ

ومن أبلغ ما فخر به عمرو بن معد يكرب على شجاعته قوله^(٢):

ذَكَرَ عَلَيَّ ذَكَرٍ يَصُولُ بِأَبْيَضٍ

ذَكَرٌ يَمَانٍ فِي يَمِينِ يَمَانٍ

ولا غرابة أن يفخر شعراء مذحج بقبيلتهم القوية المحاربة فهذا عُفَيْرُ بن جَنْدَلِ الْحَمَاسِيِّ يفخر بشجاعة قومه وماهم فيه من قوة ومنعة حيث يقول^(٣):

(١) كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي ١٩٣/٥ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ص ١٩٩.

(٣) التعليقات والنوادر/ لأبي علي الهجري/ النسخة المصرية ورقة ١١٦٢، ب.

ذَاكَ مُمْشَى جِيَادٍ قَوْمِي وَفِيهِمْ
 كَوَكْبُ الْعِزِّ حَوْلَهُ التَّأْيِيدُ
 وَإِذَا أَجْرَدُوا الصَّوَارِمَ فِي الرَّوْعِ
 حَفَاطًا وَبُوشَرِ التَّجْرِيدِ
 وَاسْتَهَلَّتْ زُرُقُ الْأَسِنَّةِ فِي السُّمْرِ
 وَوَلَّاحَ السَّنَنِ مَسْرُودُ
 يَتَقَيُّونَ حِينَ تَحْتَجِمُ الشَّمْسُ
 وَتَحْمِي الْهَجِيرَةَ الصَّيْخُودُ
 فِي ظِلَالِ الرَّمَاكِ وَالْخَيْلِ مَمِيَا
 لَفَحَتْهَا السَّمُومُ وَالشَّمْسُ قُودُ
 وَلَنَا تَعْرِفُ الْمَشَوَّةُ النَّجْلَاءُ
 شُزْرًا وَالضَّرْبَةُ الْأَخْدُودُ

وفخر نَابِغَةُ بنِي الديان الحارثي بقومه وشجاعتهم وذكر أنهم يصدون
 الكمأة، ويبيحون كل حمى دون بياح حماهم، وأن خطاهم تتقدم سيوفهم
 إلى الأمام فتصل ما قصر منها المكان الذي لا تصله، إذا ما أراد الضرب بها،
 حتى الجياد تعرف شجاعتهم فهي تحترم وجودهم وتبتعد عن طريقهم إذا
 ما رأتهم أو حسّت بهم حيث يقول^(١):

(١) المؤلف والمختلف للأمدي ١٩١، ١٩٢، «كرنكو».

وَتَقُولُ إِنَّ طَرِيقَ الْمَثُوبَةِ أَصْبَحُوا
 لِيُوصَاةِ وَالِدِنَا الَّذِي أُوصَانَا
 أَنْ لَا نَصُدَّ إِذَا الْكُمَاةُ تَقَدَّمَتْ
 حَتَّى تَدُورَ رِحَاهُمْ وَرَحَانَا
 وَنَبِيحَ كُلِّ حِمَى قَبِيلَةٍ عَنُوءَ
 قَسْرًا وَنَابَى أَنْ يُيَاخَ حَمَانَا
 وَإِذَا السَّيُوفُ قَصْرُنَ بَلَّغَهَا لَنَا
 حَتَّى تَنَأَوَّلَ مَاتَرِيذُ خُطَانَا
 وَإِذَا الْجِيَاكُادُ رَأَيْنَنَا فِي مُجْمَعِ
 أَعْظَمْتَنَا وَزَحَلْنَا عَنْ مُجْرَانَا

وافتخر عمرو بن قعاس المرادي بقومه وشجاعتهم وبيأسهم وغلبيتهم
 لعدوهم حيث قال (١):

بَنُو عَطِيفٍ أُسْرَتِي فِي الْوَعَى
 هُمْ خَيْرٌ مَن يَعْلُ مُتُونُ الرَّحَالِ
 سَائِلِ بِنَا حُمَيْرَ يَوْمَ الْوَعَى
 إِذَا اسْتَخَفُّوا هُدَجًا كَالرَّئَالِ

(١) معجم الشعراء للمرزباني ٢٣٦ «كرنكو».

وفخر يزيد بن عبد المدان بمكانة قومه مذحج أمام أمية بن الأسكر
الكِنَانِي وهو ينافر عامر بن الطفيل سيّد بني عامر فقال^(١):

أُمِّي يَا بَنَ الْأُسْكُرَ بِنِ مَدْحَجٍ
لَا تُجَعَلَنَّ هَوَاؤُنَا كَمَدْحَجٍ
إِنَّكَ إِنْ تَلْهَجَ بِأَمْرٍ تَلْهَجُ
مَا النَّبْعُ فِي مَفْرَسِهِ كَالْعَوْسَجِ
وَلَا الصَّرِيحُ الْمَحْضُ كَالْمَمَزَجِ

وكان شعراء بني الحارث بن كعب يفخرون بساداتهم وشرفائهم، حيث
بعدونهم من مصاف الملوك، وليسوا من عامة الناس، فيزيد ذلك من
فخرهم، وهذا عبد الله بن عبد المدان الحارثي يخاطب دريد بن الصمة سيد
بني جُشَم ويفخر بقومه بني الديان حيث يقول^(٢):

إِنْ تَلَقَّ حَيَّيَّ بَنِي الدِّيَانِ تَلَقَّهُمْ
ثُمَّ الْأَنْوُوفِ إِلَيْهِمْ عَزِيَّةُ التِّيمَنِ
مَا كَانَ لِنَاسٍ فِي الدِّيَانِ مِنْ شَبِيهِ
إِلَّا رُعَيْنٌ ، وَإِلَّا آلُ ذِي يَمِينٍ
أَغْمِضْ خَفُونَكَ عَمَّا لَسْتَ نَائِلَهُ
نَحْنُ الَّذِينَ سَبَقْنَا النَّاسَ بِالْذَّمِّ

(١) الاغانى ١٢/١٠ «دار الكتب المصرية».

(٢) الاغانى ١٠/٢٤ «دار الكتب المصرية».

نَحْنُ الَّذِينَ تَرَكْنَا خَالِدًا عَطِبًا
وَسَطَ الْعَجَاجِ كَأَنَّ الْمَرَّةَ لَمْ يَكُنْ
إِنْ تَهْجُنَا تَهْجُ أَمْجَادًا شَرَامخَةً
بِيضُ الْوُجُوهِ مَرَّافِيدًا عَلَى الزَّمَنِ
أَوْرَى زِيَادُ لَنَا نَارًا وَالِدُنَا
عَبْدُ الْمَدَانِ وَأَوْرَى زِنْدَهُ قُطْنُ

وفي شعر مذحج فخرٌ بعدم قبول الذل، والضميم، والظلم، والقدرة على تغييره وهذا نوع من الشجاعة حيث يقول عمرو بن قعاس المرادي^(١):

أَمْشِي فِي دِيَارِ بَنِي غُطَيْفٍ
إِذَا مَا سَكَمَنِي ضِيمٌ أَبَيْتُ

وافتخر شعراء مذحج بالصبر والقدرة على التجلد وعدم إظهار الضعف للعدو، وهذا ينبىء عن شجاعة ومقدرة على تحمل عظام الأمور يقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي^(٢):

وإِنَّا لَقَوْمٌ لَا تَقِيضُ دُمُوعُنَا
عَلَى هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قُصِمَ الظَّهْرُ

ونرى جعفر بن عُلبَةَ الحارثي يتجلد ويصبر، وهو يُسَاقُ إلى ساحة

(١) الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني ص ٧٣.

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ١٩٣ جمع مطاع الطرابيشي.

القصاص فيهتم باليسير من الأمور كَشَدُّهُ لِقَبَالِ نَعْلِهِ حتى لا يظهر بغير القوة والعزة، وحتى لا يعرف عنه ضعف أو خَوْر حيث يقول (١):

أَشَدُّ قِبَالَ نَعْلِي أَنْ يَرَاني
عَدُوِّي لِلْحَوَادِثِ مُسْتَكِينًا

والإسراع في النجدة، وإجابة الصرِيخ من الأمور الحميدة التي افتخر بها شعراء مذحج، حيث اتضح ذلك في شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي وفخره بقومه حيث يقول (٢):

قَوْمٌ إِذَا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رَأَيْتَهُمْ
مِنْ بَيْنِ مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ

وإذا كانت ملاقات الأبطال في ساحات القتال، ومصارعتهم من علامات الشجاعة التي يفخر بها فرسان مذحج في شعرهم فإن أعظم فخرٍ مصارعةُ الغيلان وقتلها دون خوف أو رهبة، وقد افتخر عمرو بن معد يكرب الزبيدي بحربه الغول وقتلها حيث قال (٣):

بِأَنِّي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوِي
بَسْهَبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَأَضْرَبُهَا بِأَلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ
صَرِيْعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجَرَانِ

(١) الأغانى ٥٣/١٣ «دار الكتب».

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ١٩٤ جمع مطاع الطرابيشي

(٣) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٢٠٠ جمع مطاع الطرابيشي.

ومما افتخر به شعراء مذحج الكرم وهو سجية يفخر بها كل العرب في الجاهلية، وكان سادات مذحج ملاذاً وملجأً للفقراء، والمحتاجين، وقد شهد لهم بذلك بعض شعراء العرب كالأعشى، وأمّية بن أبي الصلت، فلا غرابة أن نرى شعراء مذحج يثبتون في شعرهم جانباً من ذلك الكرم، ويفخرون به، فهذا الأسعر الجعفي يتجاوز إكرامه ضيوفه الذين طرقوه ليلاً ليشمل كلاب الحي من كثرة ما قدم من اللحم حيث يقول^(١):

يَا رَبَّ عَزَّجَلَةَ أَصَابُوا خَلَةً

دَابُّوا وَحَارَ دَلِيلُهُمْ حَتَّى بَكَى

بَاتَتْ شَامِيَةَ الرِّيَّاحِ تَلْفُهُمْ

حَتَّى أَتَوْنَا بَعْدَ مَا سَقَطَ النَّدَى

فَنَهَضْتُ فِي الْبَرْكِ الْهَجُودِ وَفِي يَدِي

لَدُنْ الْمَهْزَةِ ، ذُو كَعُوبٍ كَالنَّوَى

أَحْدَيْتُ رُمْحِي عَائِطاً مُمَكُّورَةً

كَوَمَاءَ أَطْرَافِ الْعِضَاةِ لَهَا حُلَى

بَاتَتْ كِلَابُ الْحَيِّ تَسْنَحُ بَيْنَنَا

يَأْكُلْنَ دَعَلَجَةً وَيَشْبَعُ مَنْ عَفَا

وَعُتْبَةَ بنِ بَجِيرِ الحارثي يفخر بإكرامه ضيفاً طرقه ليلاً، ويذكر أنه نشط

(١) الأصمعيات لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي/١٤٣/ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون/ دار المعارف/ طبعة خامسة/ ١٩٧٩م.

لذلك الضيف ولم يكسل، إذ الكسل من عادة البخيل عند الضيف، ويفتخر بأنه أفنى ماله للأضياف، فلا غرابة أن يُرى ماله قليلاً، فقد أهلكه في الكرم، لذلك فثناؤه على الألسنة لمعرفة الناس أنه إنما أفنى ماله في سبيل الكرم فيقول^(١):

وَمُسْتَنْبِحَ بَاتِ الصَّدَى يَسْتَنْبِهُهُ
إِلَى كُلِّ صَوْتٍ فَهَوَى فِي الرَّحْلِ جَانِحُ
فَقُلْتُ لِأَهْلِي : مَا بُغَامٌ مَطِيَّةَ
وَسَارٍ أَضَافَتُهُ الْكِلَابُ النَّوَابِغُ ؟
فَقُمْتُ وَلَمْ أَجِئْ مَكَانِي ، وَلَمْ تَقُمْ
مَعَ النَّفْسِ عِلَاةَ الْبَخِيلِ الْفَوَاضِحُ
وَنَادَيْتُ شِبْلًا فَاسْتَجَابَ وَرُبَّمَا
ضَمِينًا قَرِي عَشْرَ لَيْلٍ لَا نَصَافِحُ
فَقَامَ أَبُو ضَيْفٍ كَرِيمٍ كَأَنَّهُ
وَقَدْ جَدَّ مِنْ فُرْطِ الْفُكَاهَةِ مَارِحُ
إِلَى جِذْمٍ مَالٍ قَدْ نَهَكْنَا سَوَامَهُ
وَأَعْرَاضُنَا فِيهِ بِوَاقٍ صَحَائِحُ

(١) شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي ١٥٥٧/٤ تحقيق أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون/
لجنة التأليف والترجمة والنشر/ طبعة أولى.

جَعَلْنَاهُ دُونَ الذِّمِّ حَتَّىٰ كَانَهُ
إِذَا عَادَ مَالُ الْكَثِيرِينَ الْمَنَاحُ
لَنَا حَمْدُ أَرْيَابِ الْمِئِينِ وَلَا يَرَى
إِلَىٰ بَيْنِنَا مَالٌ مَعَ اللَّيْلِ رَائِحُ

وطبيعة قبائل مذحج الحربية جعلتهم يعتزون بعدة الحرب ويفتخرون بها وبالجيد منها فافتخروا بالخيـل وعظموها، واعتزوا بالأصيل منها، وذكروا الدروع، والسيوف، والرماح، وعدوا من غشى الحروب أعزل بلا سلاح مرتكباً لشيء معيب، وهذا أبو البقرات النخعي يصف قومه أنهم ليسوا بعزل، بل هم مستعدون بعدة الحرب حيث يقول^(١):

تَوُولُونَ^(٢) أَنَا لَا نَعُودُ إِلَيْكُمْ
كَذَبْتُمْ وَتَأْوِيلِ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ
لَتَعْرِفُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ جَهْرَةً
بِيْذِي لُجْبٍ كَاللَّيْلِ أُرْعَنَ جَحْفَلِ
مِنَ الْغُرِّ مِنْ أَوْلَادِ جَلْدِ بْنِ مَالِكِ
إِذَا نَابَ خَطْبٌ لَمْ يَكُونُوا بِعُزْلِ

والأسعر الجعفي يلوم إخوته على بيعهم، الخيل وعدة الحرب التي خلفها أبوهم، وأخذوا إلى المسالمة، وقعدوا عن الأخذ بثأر أبيهم، وافتخر هو

(١) التعليقات والنوادر / لأبي علي الهجري / النسخة المصرية ورقة ٢١ ب ، ٢٢ أ.

(٢) تُقْسِمُونَ وَتُحْلِفُونَ.

باتخاذه الخيل، وإيثاره إياها على أهله، وذكر أن المنعة والعزة على ظهر
الخيل وليس في حصون القرى^(١):

أَبْلِغْ أَبَا حُمُرَانَ أَنَّ عَشِيرَتِي
نَاجُوا وَلِلْقَوْمِ الْمَنَاجِينَ التَّوَى
بَاعُوا جَوَادَهُمْ لِتَسْمَنَ أُمَّهُمْ
وَلِكِي بَيْتَ عَلِيٍّ فَـرَاشِهِمْ فَتَى
عَلِجٌ إِذَا مَا بَرَزَ عَنْهَا ثَوْبَهَا
وَتَخَامَصَتْ قَالَتْ لَهُ : مَاذَا تَرَى ؟
لَكِنَّ قَعِيدَةَ بَيْتِنَا مَجْفُوءَةٌ
بَادٍ جَنَاجِنُ صَدْرِهِمَا ، وَلَهَا غِنَى
تَقْفِي بَعِيشَةَ أَهْلِهَا وَثَابَةَ
أَوْ جُرْشَعًا عَبَلِ الْحَازِمِ وَالشَّوَى
وَلَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى تَجَشُّمِي الرَّدَى
أَنَّ الْحَصُونَ الْخَيْلُ لَا مَدَدُ الْقُرَى
إِنِّي رَأَيْتُ الْخَيْلَ عِزًّا ظَاهِرًا
تُنْجِي مِنَ الْعَمَى وَيَكْشِفُنَ السُّدْجَى

(١) الاصمعيات ص ١٤٠ .

وافتخر يزيد بن عبد المدان بلبس الدروع ذات الحلق حيث قال^(١):

وَلَسْتُ بِشَاوِي عَلَيْهِ دَمَامَةٌ
إِذَا مَا غَدَا يَغْدُو بِقَوْسٍ وَأَسْهَمٍ
وَلَكِنِّي أَغْدُو عَلَى مَفَاضَةٍ
بِلَاصٍ كَأَعْيَانِ الْجَرَادِ الْمُنْظَمِ

وافتخر عمرو بن مُطَاع الجعفي بالسيف الذي يضرب به وبالرمح الذي يلمع سنانة فقال^(٢):

أَنَا ابْنُ جَعْفِي وَأَبِي مُطَاعٌ
وَفِي يَمِينِي مَزْهَفٌ قَطَاعٌ
وَأَسْمُرُ فِي رَأْسِيهِ لَمَاعٌ
تَرَى لَهُ مِنْ ضَوْوِيهِ شِعَاعٌ

وافتخر الأشتر النخعي في حروبه باستخدامه لأنواع عدة من أدوات الحرب منها: الْحَدَلُ، وَالسَّيُوفُ، وَالرَّمَاحُ، وَالنَّبَلُ حيث يقول^(٣):

إِنَّا إِذَا مَا احْتَسَبْنَا الْوَعْيَ
أَدْرُنَا الرَّحَى بِصَنُوفِ الْحَدَلِ

(١) شرح أبيات سيويه لابن السيرافي ٢٦٨/٢ .

(٢) كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي ١٩٦/٥ .

(٣) المصدر السابق ٢٢/٢ .

وَضَرَبَا لِهَامَاتِهِم بِالسَّيُوفِ

وَطَعْنَا لَهُم بِالْقَنَاصِ وَالْأَسْلِ

أما بعد انتشار الإسلام، فكان أعظم مايفتخر به شعراء مذحج نعمة الإسلام الذي مَنْ الله به عليهم، وأشادوا بمناصرتهم للدين الجديد، وقيامهم بشعائره، من ذلك قول عبد الحارث بن أنس الحارثي الذي ثبت على الإسلام عندما ارتد بعض أهل اليمن، وأخذ يدعو قومه بالتمسك بالدين الحق حيث قال^(١):

نَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ هَامَةٌ مَذْحِجٍ

بَنُو الْحَارِثِ الْخَيْرِ الَّذِينَ هُمْ مَدَرٌ

وَنَحْنُ عَلَى دِينِ النَّبِيِّ نَرَى الَّذِي

نَهَانَا حَرَامًا مِنْهُ وَالْأَمْرُ مَا أَمَرَ

وقال ذباب الجعفي مفتخراً، بتحوله من الشرك إلى الإسلام، داعياً قومه للدخول في هذا الدين الحق^(٢):

تَبِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى

وَحَلَفْتُ « فَرَضًا » بِدَارِهِوَانِ

شَدَدْتُ عَلَيْهِ شِدَّةً فَتَرَكْتُهُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالِدَهُرُ ذُو حَدَثَانِ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢/٢٨٠ « دار الكتاب العربي » .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٤٢ .

فَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ
 أَجَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ حِينَ دَعَانِي
 فَأَصْبَحْتُ لِلْإِسْلَامِ مَا عِشْتُ نَاصِرًا
 وَالْقَيْتُ فِيهِ كُلِّكَ وَجِرَانِي
 فَمَنْ مُبْلَغُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَنْنِي
 شَرَيْتُ الْكَذِي يَبْقَى بِأَخْرَفَانِي

وارتجز عمّار بن ياسر العنسي رضي الله عنه أثناء بناء مسجد رسول الله ﷺ في المدينة مفتخرًا بالإسلام وبيناء المساجد فقال^(١):

نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ نَبَتْنِي الْمَسَاجِدَا.

٢ . الحماسة :

ويلي شعر الفخر في الكثرة، شعر الحماسة، وهذا يتناسب مع طبيعة القبيلة المحاربة، وكثير من أشعار الأسعر الجعفي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والمكشوح المرادي، ويزيد بن عبد المدان وعبيد الله بن الحرّ الجعفي والأشتر النخعي، يكثر فيها ذكر الحرب ووصف بدايتها ووسطها، ونهايتها، وشعر الحماسة قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بشعر الحرب، لأنه مقدمات للحرب ودعوة إلى إشعالها، واحتدامها، وخوض غمارها ومن شعر الحرب ذكر الغارة، ووصفها، وذكر وقتها، وقد ذكر الديان بن قطن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٣٥١ .

الحارثي تلك الغارات التي كانوا يشنونها على أعدائهم في مختلف الأوقات،
منها تلك الغارة التي كانت وقت الصباح والتي يقول عنها^(١):

صَبَحْنَا تَغْلِبًا وَسِرَاءَ بَكْرٍ
بِذَاهِبَةِ يَشِيبُ لَهَا الْوَلِيدُ
نَخَاوِي يَتْرُكُ الْأَحْزَانَ قَاعًا
لَهَا فِي الشَّمْسِ مَا اتَلَقَتْ وَقُوْدُ
كَأَنَّ كُمَاتَهَا ب_____زُلُّ تَخَطِّي
بِأَوْسَاتِي وَقَابَلَهَا سُعُوْدُ
فَأَرَدْنَا سِرَاءَ لَيْسَ تُحْصَى
لَهَا فِيهِمْ إِذَا حُسِبَتْ عَدِيدُ
فَطَارُوا عَنْ تَهَامِتِنَا شِعَاعًا
وَقَلَّهْمُ بِحَيْثُ جَرَى شَرِيْدُ
فَقَالُوا وَالْحَدِيدُ غَدَاةٌ يُعْنَى
فَلَيْسَ يَفْلَهُهُ إِلَّا الْحَدِيدُ

وممن ذكر الغارة الحُصَيْن بن يزيد الحارثي، عندما أغار على إبل لبني
رَحْن، وإبل لقيس بن جنادِر حيث قال:^(٢)

(١) شرح قصيدة الدامغة للهمداني ٢٦٧ .

(٢) الإكليل لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ٨٩/١٠

أَغْرَنَ فَلَمْ يَدْعَنَّ لَأَلِ زَحْنِ

ولابنِ جنـبِ أَدْرِ قَيْسِ بَعِيرًا

وذكر عمرو بن رِزَامِ الصُّدَائِي غارتهم الحربية على مراد، وأنها كانت وقت الغداة حيث قال: (١)

إِنَّا صَبَحْنَاَهُمْ بِالْعَطْفِ غَايَةً

شَعْوَاءَ مِثْلَ وَقُودِ النَّارِ فِي الضَّرَمِ

وأغار أبو النُّوَّاحِ المرادي علي بني عُطَيْفٍ مصبحا لهم في ديارهم فقال: (٢)

نَحْنُ صَبَحْنَاَ عُطَيْفًا فِي دِيَارِهِمْ

بِالْمِشْرِفِي صَبُوحًا يَوْمَ أَنْشَامِ

ومن الشعر الذي يحث على إثارة الحرب وإلهاب روح الحماس، قول كَبْشَةَ أخت عمرو بن معد يكرب الرُّبَيْدِي التي تحث فيها أخاها عمرا، على الأخذ بالثأر لأخيه عبد الله الذي قتله بنو مَازِنِ، فألهب فيه روح الحرب والحماس بعد أن كان موادعاً حيث تقول: (٣)

وَأَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ

إِلَى قَوْمِهِ أَلَّا تَخْلُوا لَهُمْ دَمِي

وَدَعُ عَنْكَ عَمْرًا إِنَّ عَمْرًا مَسَالِمٌ

وَهَلْ بَطْنُ عَمْرٍ غَيْرُ شَيْزٍ لِمَطْعِمِ

(١) التعليقات والنوادر لأبي علي الهجري / النسخة الهندية ورقة ٣١١ .

(٢) معجم البلدان رسم «أنشام» ٢٦٥/١ .

(٣) النوادر لأبي علي القالي ١٩٠٣ دار الكتب العلمية .

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَقْبَلُوا وَاتَّيَدَيْتُمْ

فَمَشُوا بِأَذَانِ النَّعَامِ الْمُصَلِّمِ

وَلَا تَشْرَبُوا إِلَّا فُضُولَ نِسَائِكُمْ

إِذَا أَنْهَلَتْ أَعْقِبُهُنَّ مِنَ السِّدَمِ

وإخراج النساء مع المحاربين في المعركة يثير روح الحماس في الحرب ويدفع المحاربين إلى الأمام خشية العار الذي قد يلحقهم من نساءهم ذلك ما وقع لعمر بن معد يكرب في إحدى معاركه؛ فتقدم وهو ينشد شعراً فيه من الحماس والدفع ما جعله يخوض غمار المعركة وينازل رئيس أعدائهم دون خوف أو تراجع، وعند ذلك قال: (١)

لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءً نَا

يَفْخَصْنَ بِالْمَعْرَاءِ شَدَا

وَبَدَّتْ لِمَيْسُ كَأَنَّهَا

بِشَدْرِ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّ

وَبَدَّتْ مَحَاسِنُهَا الَّتِي،

تُخْفِي وَكَأَنَّ الْأَمْرَ جِيدَا

نَنَازَلْتُ كَبِشَهُمْ وَلَمْ

أَرَّ مِنْ نِزَالِ الْكَبِشِ بَدَّ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٦٤ جمع مطاع الطرابيشي.

والمكشوح المرادي يصف لنا حربهم وثورتهم على عمرو بن مامة الذي طغى عليهم، وتجبر، وسامهم خسفاً، فثاروا عليه وقتلوه فقال في ذلك: (١)

نَحْنُ قَتَلْنَا الْكَبْشَ إِذْ ثُرْنَا بِهِ
بِالْخُلِّ مِنْ مَرْجَحٍ إِذْ قُمْنَا بِهِ
بِكُلِّ سَيْفٍ جَيِّدٍ يُعْصَى بِهِ
يُخْتَصِمُ النَّاسُ عَلَى اغْتِرَابِهِ
نَحْنُ أَرْحْنَا النَّاسَ مِنْ عِتَابِهِ
لَمَّا التَّقِينَا ثَارَ فِي أَصْحَابِهِ
كثورة الفالِجِ فِي رِكَابِهِ
لَهُ صَلِيلٌ مِنْ صَرِيفِ نَابِهِ
حَتَّى إِذَا رُفِعَ مِنْ عِقَابِهِ
وَحَوْلَهُ الْفَنَانِ مِنْ حِرَابِهِ
زُرُقُ بَأْيْدِي الْفُرْسِ مِنْ حُجَابِهِ
ضَرَبْتُ بِالسَّيْفِ عَلَى نِطَابِهِ
أَتَى بِهِ الدَّهْرُ بِمَا أَتَى بِهِ
قُلْنَا بِهِ، قُلْنَا بِهِ، قُلْنَا بِهِ

(١) معجم البلدان رسم «مرجح» ١٠٢/٥ / شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ١٢ لأبي بكر بن القاسم الأنباري / تحقيق عبد السلام هارون / طبع دار المعارف / طبعة رابعة ١٤٠٠هـ

ومن شعر الحماسة ما يتحدث فيه الشاعر عن نهاية المعركة التي خاضها قومه ضد عدوهم، وكيف انتصروا فيها، وخلفوا قتل من الأعداء، من ذلك ما ذكره كعب بن الحارث الغطيفي عن وقعة كانت لهم مع بني عامر بن صعصعة، بالعُرُقُوب، حيث وصف نتيجة المعركة بقوله: (١)

لَقَدْ عَلِمَ الْحَيَّانُ كَعْبٌ وَعَامِرٌ
 وَحَيًّا كِلَابٍ جَعْفَرٌ وَوَجِيدُهُمَا
 بِنَا لَدَى الْعُرُقُوبِ لَمْ نَسَامِ الْوَعَى
 فَقَدْ قَلَقَتْ تَحْتَ السَّرُوجِ لَبُودُهُمَا
 تَرَكَنَا عَلَى الْعُرُقُوبِ، وَالْخَيْلُ عُكْفٌ
 أَسَاوِدَ قَتَلَتْ لَمْ تُوَسِّدْ خُدُودُهُمَا
 كَذَلِكَ نَاشِينَا وَصَبْرٌ نَفُوسِنَا
 وَنَحْنُ إِذَا كُنَّا بِأَرْضِ نَسُودُهُمَا

ومن شعر الحماسة الذي اشتمل عليه شعر مذحج، ما يعرف بـ«الْمُنْصِفَات» وهي التي يعترف فيها الشاعر ببسالة عدوهم وشجاعتهم، وأنهم كانوا لهم أكفاء في هذه الحرب، واشتهر من مذحج بقصائد «الْمُنْصِفَات» الحربية عمرو بن معد يكرب، بخاصة في حروبه مع بني سُلَيْم ورئيسها عباس بن مرداس. (٢) وهذا فَرُوة بن مُسَيْك المرادي يذكر معركة

(١) معجم الشعراء للمرزباني ٢٤٢ تحقيق كرنكو .

(٢) انظر شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ص ١١٤ .

كانت لقومه مع السُّكُون، ولم يظفر أحد منهم بالآخر، بل كل من الفريقين قد أصابته ضربات سيوف الآخر، وسال من الطرفين الدماء حيث قال: (١)

تَجَاوَزْنَا لَفِيفًا^(٢) بِمُوشِكَاتٍ
وَزُرْنَا فِي مَسَاكِنِهَا السُّكُونَا
وَلَأَقَيْنَا فَوَارِسَ غَيْرِ مِئِلٍ
عَجَالَ الطَّعْنِ غَيْرِ مُعَرَّرَيْنَا
كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ
خُضِبْنَ بِأَرْجُوَانٍ أَوْطُلَيْنَا
فَأَبَتْ حَيْلُنَا قُطْفًا وَفِيهِمْ
نَوَافِدٌ مِّنْ أَسِنَّتِنَا وَفِينَا

٣. الوصف :

إنَّ كثرة قبائل مذحج جعلتها متحركة في مناطق عدة وواسعة في جنوب الجزيرة العربية، وقد اختلفت تضاريس بلادها باختلاف المناطق التي استوطنتها فسكنت الجبال وبطون الأودية والصحراء، والأفراط، ووصف شعراؤها تلك البيئة ووصفوا حيواناتها، وسماءها، وأرضها ونباتها، وقبائل مذحج مثلها مثل سائر العرب في العصر الجاهلي كانت البيئة التي يعيشونها

(١) الوحشيات لأبي تمام ص ٩٤ .

(٢) لعله اسم موضع في ديار الشاعر من أرض مراد باليمن لكني لم أجد من ينص عليه من أصحاب المعاجم التي رأيتها.

تسيطر على شعر الوصف لديها، وقد توافر ذلك الشعر على وصف مختلف عناصر الطبيعة المحيطة بهم، وهذا أبو الأشعث الجنبى يصف مفازة صيهد أثناء مروره بها، ويصف سعتها. ورياحها، وبرقها، ويصف طيورها التي شاهدها، كالقطا والغراب ويصف النجوم والجبال حيث يقول: (١)

هَلَا أَرَقْتَ لِبَارِقٍ مُتَهَجِّدٍ
بَرَقٌ يَوْلَعُ فِي حَبِيٍّ مُنْجِدٍ
بَرَقٌ يَذُكِّرُكَ الْخَرِيدَةَ أَنهَا
عَلِقَتْ عِلَائِقُهَا طَوَالَ الْمَسْنِدِ
حَرَاتٌ حَوَازِي فِي حَيَاتِي أَنْ أَرَى
مَا كُنْتُ أُوْعِدُ مِنْ مَفَازَةِ صِيْهِدِ
فَإِذَا مَفَازَةٌ صِيْهِدٍ بَتْنُوفِيَّةِ
تِيهِ تَظَلُّ رِيَّاحُهَا لَا تَهْتَدِي
وَتَظَلُّ كَدْرٌ مِنْ قَطَاهَا وَلَهَا
وَتَرَوْحُ مِنْ دُونِ الْمِيَاهِ وَتَغْتَدِي
بَلَدٌ تَخَالُ بِهَا الْغَرَابُ إِذَا بَدَا
مَلَكاً يَسْرِبُ فِي الرِّيَّاطِ وَيَرْتَدِي
فَسَأَلْتُ حِينَ تَغْيَبَتْ أَعْلَامُنَا
مَنْ حَضْرَمُوتَ أَيِّ نَجْمٍ نَهْتَدِي

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢٨٢ .

قالوا : المجرّة أو سهيلاً بادياً
ثم اهتدوا بقفولهم بالفَرَقدِ
نَتَجَشَّمُ الأَهْوَالَ نَبْغِي عامراً
مُتَحَزِّينَ عَلَيْهِ إنْ لم يوجدِ

ومن وصفهم لرحلاتهم وصف، نيار بن عبد العزيز الحارثي إحدى
رحلاته، ووقوفه على أطلال ديار محبوبته، ووصفه تلك الأطلال حيث
يقول: (١)

عرفتُ لسلمى رَسَمَ دارٍ وملعبِ
عَفَّتُهُ السَّوافي في شمالٍ وأرنبِ (٢)
وفدّنا إليها الأعوجياتُ ترتمي
بفرسانها قودُ القرينِ المجنبِ
فلما بلغنا رأسَ ميدانها الذي
هو العلمُ الأقصى إلى رأسِ أكتبِ
تبادرت الشدّ الجياد فلم يكن
كطرفيةِ عينٍ أو كضربةٍ مقضبِ

(١) التعليقات والنوادر/ لأبي علي الهجري/ النسخة المصرية ١٦٢ ب . نسخة مصورة بالمايكروفيلم
عن مخطوطة دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤٢ لغة/ وهي في مكتبة جامعة الإمام المركزية/
٢٥٤ لغة عموم ٤٩٠٩٥ .

(٢) قال في اللسان (الأَرَيْنَبَة) عُشْبَة شبيهة بالنَّصِي إلا أنها أرق وأضعف وألين، ولها إذا جفت
سَفْيٌ كلما حُرِّك تطاير فائتر في العيون والمناخر (اللسان) (رنب).

بُعَيْدُ طُلُوعِ الشَّمْسِ حَتَّى رَمَى بِهَا

وَقَلْنَا أَلَا نَفْدِيكَ بِالْأَمِّ وَالْأَبِ

قَوِيرِعِ أَعْلَامٍ كَأَنَّ ضُلُوعَهُ

صَفَايِحُ مِنْ قَطْرِ بِيَابٍ مَضْبَبِ

وَيَفْتَحُ لِلغَادِينَ فِي عَدْوَانِهِ

وَشَدَقِ كَجَحْرِ الذُّبَابَةِ الْمُتَجَوِّبِ

ووصف شعراء مذبح الخيل وصفاً دقيقاً، وذلك لتعلقهم بها وإعجابهم

بها، وقد أكثر فرسانهم من ذلك الوصف، فهذا الأسعر الجعفي يصف خيله

فيقول: (١)

نَهْدُ الْمَرَائِلِ مُدْمَجٌ أَرْسَاغُهُ

عَبْلُ الْمَعَاقِمِ لَا يُبَالِي مَا أَتَى

أَمَّا إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ فَكَأَنَّهُ

بَسَازٌ يُكْفِكِفُ أَنْ يَطِيرَ وَقَدْ رَأَى

وإذا هو استدبرته فتسوقه

رَجُلٌ قَمُوصُ الْوَقْعِ عَارِيَةُ النَّسَا

وإذا هو استعرضته متمطراً

فَتَقُولُ هَذَا مِثْلَ سُرْحَانَ الْغَضَى

(١) الأصمعيات ص ١٤٠.

ويصف حصانه «المعلَى» فيصف حالته النفسية فيقول: (١)

أُرِيدُ دِمَاءَ بَنِي مَكَزِنِ
وَرَأَقَ الْمُعَلَى بِيَاضِ اللَّبَنِ
خَلِيطَانِ مُخْتَلِفِ نَجْرُنَا
أُرِيدُ الْعُلَى وَيُرِيدُ السَّمْنَ
إِذَا مَا رَأَى وَضَحَاءً فِي الْإِنَاءِ
سَمِعَتْ لَهُ زَمَجْرًا كَالْمِغْنِ

ومحمد بن حمران الجعفي يصف خيله «الضبيح» ويصف فخامة متنه بسبب ما يأكله من أشجار الأياصر، والنصي وهو نبت في بلادهم، ويصف سرعته وعدوه فيشبهه بعدو الثعلب الذي غشيه المطر فهو يعدو بسرعة لينجو من المطر، ويصف قوة قوائمه، ثم يشبه ذوائبه بذوائب العروس فيقول: (٢)

إِنَّ الضَّبِيحَ طَحَا بِمَتْنِهِ
نِيهِ الْأَيَاصِرِ وَالنَّصِيِّ
يَعْدُو كَعَدُو الثَّعْلَابِ الْمَمِّ
طُورِ رَوْحَةَ الْعَشِيِّ

(١) أنساب الخيل لابن الكلبي ص ١٠٨ ، ١٠٩ تحقيق أحمد زكي.

(٢) الوحشيات لأبي تمام ص ٤٦ ، ٤٧ .

بِقِوَاثِمِ عِوُجِ شَمَا
 طِيْطٍ وَهَادِ رَعَشِ نِي
 تَدْرِي ذَوَائِبُهُ كَمَا
 تَدْرِي إِلَى الْعُرْسِ الْهَدِي

والذي يستعرض شعر مذحج بعامة وشعر الأفوة الأودي وعمر بن معد
 يكره منه بخاصة يجد أوصافاً كثيرة للخيل يطول المقام بإيرادها هنا. (١)
 ووصف جعفر بن عُلْبَةَ الحارثي ناقه له وجملاً كان يركبهما عندما
 يسير مع أصدقائه، ويباريهم بها في بلاد بني الحارث بن كعب قبل أن
 يسجن حيث يقول: (٢)

وَسَيْرِي مَعَ الْفَتِيَانِ كُلِّ عَشِيَّةٍ
 أَبَارِي مَطَايَاهُمْ بِصَهْبَاءِ سَيْلِقِ
 إِذَا أَكَلَتْ عَنْ نَابِهَا مَجَّ شِدْقُهَا
 لَغَاماً كَمَحِّ الْبَيْضَةِ الْمُرْقِرِ
 وَأَصْهَبُ جُونِي كَأَنَّ بُغَامَهُ
 تَبَعُّ مَطْرُودٍ مِنَ الْوَحْشِ مُرَهَقِ
 بَرَى لَحْمَ دَفِيئِهِ وَأَدْمَى أَطْلَهُ
 اجْتِيَابِي الْفَيَافِي سَمَلَقاً بَعْدَ سَمَلَقِ

(١) الطرائف الأدبية ص ١٩ ، ٢١ وشعر عمرو بن معد يكره جمع مطاع الطرابيشي ص ٦٠ ، ١٢٠ ،
 . ١٥٣ ، ١٢٠ .

(٢) الأغاني ١٢/٥٥ ، ٥٦ «دار الكتب».

ووصف مَرزُوق بن فَرْوَةَ المرادي اختلاف هواه وهوى ناقته فقال: (١)

تَوُّمٌ بِطَرَفِهَا نَجْدًا قَلُوصِي

وَطَرَفِي نَحْوَ أَهْلِ الشَّامِ سَامِ

ووصف شعراء مذحج، الصيد والحيوانات التي كانوا يرونها أو يصطادونها، وهذا الكُرْمِزِي الصُّدَائِي يصف صيداً من حمر الوحش بأنه رعى الصَّرْفَ واشتد عطشه للماء، فاتجه نحو الماء ليروي عطشه وغلته ويشفي صده، ولكن الصياد كان إلى دمه أشد عطشاً منه للماء فرماه، حيث يقول: (٢)

كَأَهْيَمَ صَادٍ قَدْ تَقَلَّقَ جَوْفُهُ

رَعَى الصَّرْفَ عَشْرًا فَهُوَ لِلْمَاءِ قَارِبٌ

إِذَا سَافَ رَهْجَ الْمَاءِ أَوْ ذَاقَ طَعْمَهُ

تَلَقَّاهُ دُونَ الْمَاءِ رَامٍ وَضَارِبٍ

ووصف الأسعر مراوغته لأنثى الذئب وقتلها وصفاً دقيقاً بين من خلاله حَرَكَاتِهِ، وَسَكَنَاتِهِ أثناء تلك المراوغة، ووصف هذه الذئبة وقوتها وشراستها وعدم خوفها، ووصف الرمح الذي قتلها به حيث يقول: (٣)

ذَهَبْتُ أَمْشِي مِشْيَةً تَدْبَابَا

أُخْفِي سَوَادِي أَبْتَعِي الذُّنَابَا

(١) الأشباه والنظائر للخالدين ٧٧/٢ .

(٢) التعليقات والنوادر/ النسخة الهندية ٣٧٥ .

(٣) كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني مادة (سهلب) ١٠٦/٢ .

حَتَّى وَجَدْتُ ذُبَابَةً سَلْهَابًا
وَوَثَابَةً مَا تَتَّقِي الْحَجَابًا
حَدَوْتُهَا مُشْرِشِرًا ذَهَابًا
ذَا ضَبَّةٍ يَلْتَهُبُ التَّهَابًا

وتوافر شعراء مذحج على وصف السحاب والمزن والمطر والبرق والرعد
حيث يقول الكُرْمِزِي الصُّدَائِي يصف ذلك: (١)

لَهَا جُلٌّ بِرَقِّ آخِرِ اللَّيْلِ يَلْمَحُ
تَرَى الْمَزْنَ فِي أَعْجَازِهِ وَهِيَ جُنْحُ
كَأَنَّ سِنَاهُ وَقَعَ شَقْرَاءَ ضَامِرٍ
مِنَ الْخَيْلِ تَعْدُو سَاعَةً ثُمَّ تَمْرُحُ
كَأَنَّ دَوِيَّ الرَّعْدِ فِي حُجْرَاتِهِ
دَوِيَّ مَخَاضٍ تَرْتَعُ الرَّمْلَ قَرَّحُ
لَعَمْرُكَ مَا إِسْبِيلُ مِنْهُ بِنَجْوَةٍ
وَلَا مَدْرَجٌ أَيْضًا لَقَدْ جِئِدَ مَدْرَجُ
ووصف عمرو بن معد يكرب الحرب وقبحها فقال: (٢)

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيئَةٌ
تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهْوَلٍ

(١) التعليقات والنوادر للهجري / النسخة الهندية ٢٧٥

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ص ١٤٢ .

حَتَّى إِذَا اسْتَعْرَتْ وَشَبَّ ضَرَامُهَا

عَادَتْ عَجُوزاً غَيْرَ ذَاتِ خَلِيلِ

شَمَطَاءَ جَرَّتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ

مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

ووصف عمرو بن معد يكرب كذلك عدة الحرب والقتال التي أعدها

للحرب كالسيف والرمح والدرع والقوس والسهم فقال: (١)

أَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ فُضْفَاضَةً

دَلَاصاً تَتْنَى عَلَى الرَّاهِشِ

وَأَجْرَدَ مَطْرَواً كَالرِّشَاءِ

وَسَيْفَ سَلَامَةَ ذِي فَائِشِ

حُسَاماً تَرَاهُ كَمَثَلِ الْغَدِيرِ

عَلَيْهِ كَنَمَمَةَ النِّقَاقِشِ

وَذَاتَ عَمَدٍ لَهَا أَرْمَلُ

بَرَّتْهَا رِمَاءُ بَنِي وَابِشِ

وَكُلَّ نَحِيضٍ فَتِيْقِ الْفَرَارِ

عَزُوفِ عَلَى ظُفْرِ الرَّائِشِ

(١) المصدر السابق ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ .

وأجرد ساطِ كشاةِ الأران

رِيْعَ فَعَنَّ عَلَى النَّـأَجِشِ

إِذَا مَا جَرَى قُلْتِ شَوْذَانَقَا

تَنَحَّى مِنَ السُّوَابِلِ الْحَافِشِ

واشتمل شعر مذحج كذلك على وصف بعض الحالات النفسية ودخائل النفس التي قد تعترئها، كالقلق، ونفي النوم للذين أصابا عمرو بن معد يكرب الزبيدي من خيرٍ جاءه وأزعجه، وأقلقه، وقصّ مضجعه وقال واصفاً ذلك: (١)

تَطَاوَلَ لَيْلِكَ بِالْأَثْمِدِ

وَنَامَ الْخُلِيُّ ، وَلَمْ تَرْقِدِ

وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ

كَلِيلَةَ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمِدِ

وَذَلِكَ مِنْ نَبَأِ جِجَاءِنِي

وَأَنْبِئْتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْمِدِ

وهذا الوصف يكاد يكون قليلاً في الشعر الجاهلي لتوافرهم على وصف المحسوسات والماديات أكثر من توافرهم على وصف النفس وخبائها.

وفي شعر مذحج وصف للسجن ورهبتة، وللقيد، والأغلال،

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ص ١٨٧ .

وللحارس الشديد الجلف، جاء ذلك في وصف جعفر بن عتبة الحارثي
حيث يقول: (١)

إذا بَابُ دورانِ تَرْنَمٍ في الدُّجَى
وَشُدُّ بَأْغْلَاقٍ عَلَيْهِ وَأَقْفَالِ
وَأظْلَمَ لَيْلٌ قَامَ عِلْجٌ بِجُجُلٍ
يَدورُ بِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ بِأَعْمَالِ
وَحِرَّاسُ سَوْءٍ ما ينامونَ حَوْلَهُ
فكَيْفَ لِمَظْلُومٍ بِحِيلَةٍ مُحْتَالِ
ويصْبُرُ فِيهِ ذُو الشَّجَاعَةِ والنَّدَى
عَلَى الذُّلِّ لِلْمَأْمُورِ والعِلْجِ الوَالِي

ووصف النجاشي الحارثي ماء الفرات في العراق وبعض الأجناس البشرية
من أهل البلدان المفتوحة، ووصف السفن، وهو وصف ملون بحالته
النفسية فقال: (٢)

رَأَتْ نَاقَتِي مَاءَ الْفِرَاتِ وَذوقَهُ
أَمْرٌ مِنَ السُّمِّ الزُّعَافِ وَأَمَقْرَا
وَرِيْعَتْ مِنَ الْعَاقُولِ لَمَّا رَأَتْ بِهِ
صِيَّاحَ النَّبِيْطِ وَالسَّفِيْنِ الْمُقَيَّرَا

(١) الأغاني (دار الكتب) ٤٦/١٣ .

(٢) كتاب الزهرة/ لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني/ الجزء الأول ٢٤٥ تحقيق إبراهيم
السامرائي/ مكتبة المنار الزرقاء الأردن/ طبعة ثانية ١٩٨٥/١٤٠٦هـ .

ومن ألوان الوصف التي وُجِدَتْ في شعر مذحج، وصف بعض الشعراء
لِلْكَبَرِ وما يصيب الإنسان من آثار الشيخوخة إذا ما قدر له العمر، من ذلك
وصف الهيثم بن الأسود النَّخَعِي لعلامات الكبر حيث يقول: (١)

فاسمِعْ أَنْبِئَكَ بِأَيَّاتِ الْكِبَرِ
تَقَارِبِ الْخَطْوِ وَضَعْفِ فِي الْبَصْرِ
وَقَلْبَةِ الطَّعْمِ إِذَا الزَّادُ حَضَرَ
وَسُرْعَةِ الطَّرْفِ وَتَحْمِيحِ النَّظَرِ
وَكَثْرَةِ النَّسْيَانِ مَا بِي مُذَكَّرُ
وَقَلْبَةِ النَّوْمِ إِذَا اللَّيْلُ اعْتَكَرَ
أَوَّلَهُ نَوْمٌ وَتَلْتَأَاهُ سَهْرُ
وَتَرْكِي الْحَسَنَاءِ فِي حِينِ الطَّهْرِ
وَحَذْرِ أَرْذَائِهِ إِلَى حَسْرِ
وَالنَّاسِ يَبْلُونَ كَمَا يَبْلَى الشَّجَرُ

وهذه أوصاف كما نشاهدها مستقاة من البيئة المحيطة بالشعراء
وملتصقة بمادية الحياة التي يعيشونها التصاقاً شديداً، لكن الذي نفتقده،
وكنا نتمنى أن نلمسه في وصف شعراء مذحج، بعد أن دخلت في الإسلام،
وانتشرت في أصقاع الأرض بعد الفتوحات الإسلامية التي شاركت فيها،
وصف تلك البلاد الجديدة وصفاً يوضح مظاهر الحياة فيها ويوضح ما

(١) بهجة المجالس ٢/٢٢٧ . البيان والتبين للجاحظ / ٢٩٩ ، ٢/١٩ تحقيق عبد السلام هارون .

واجهه المسلمون الفاتحون في حروبهم مع أصحاب تلك البلاد المفتوحة من حالات الحرب والسلام، ثم التغلغل في خبايا الإسلام ووصف قضاياه، ووصف تلك العظيمة التي جاء بها لتجعل من هذه الأمة البدوية قادة وزعماء وأمراء لأهل تلك البلاد المفتوحة التي سبقتهم في مظاهر الحياة المادية والفكرية.

٤ - المدح :

العرب أمة تعتز بنفسها، وترفع عن المدح والتكسب بالشعر حتى إنهم سمّوا المداحين المتكسبين بالشعر عبيد الشعر. وقبائل مذحج من أكثر تلك القبائل اعتزازاً بنفسها، وأشدّها ترفعاً عن المدح، لذلك لو استعرضنا شعرها في العصر الجاهلي لوجدناه يكاد يخلو من شعر المدح، ولم نجد إلا تلك المقطعات القليلة التي يقولها بعض شعرائها، والدافع وراء هذا المدح ليس التكسب والتزلف إلى المدوحين، وإنما الدافع هو إعجاب الشاعر بموقف من المواقف لبعض العظماء، أو لبعض القبائل، فيسجل ذلك الموقف المشرف لذلك الشخص أو لتلك القبيلة، من ذلك مدح يزيد بن عبد المدان النعمان بن المنذر في غيبته وبحضرة منافسه الملك الغساني. وكان وفد لقيس قد عابوا النعمان وصغروا من شأنه تزلفاً وتقرباً من الملك الغساني، فآثار ذلك حفيظة يزيد بن عبد المدان، وهو الرجل السيد الذي يعرف الحق لأهله ولا يخشى أن يجهر بما يعتقد ويراه أينما كان، فقال يمدح النعمان بن المنذر أمام ابن جفنة الغساني: (١)

(١) الأغانى (دار الكتب) ١٤/١٢ ، ١٥ .

تَمَلَا عَلَى النُّعْمَانَ قَوْمٌ إِلَيْهِمْ
مَوَارِدُهُ فِي مَلِكِهِ وَمَصَادِرُهُ
عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ كَانَ مِنْهُ إِلَيْهِمْ
سِوَى أَنَّهُ جَادَتْ عَلَيْهِمْ مَوَاطِرُهُ
فَبَاعَدَهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ يَخَافُهُ
وَقَرَّبَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يُبَادِرُهُ
فَظَنُّوا وَأَعْرَاضُ الظَّنَّوْنَ كَثِيرَةٌ
بِأَنَّ الَّذِي قَالُوا مِنَ الْأَمْرِ ضَائِرَةٌ
فَلَمْ يُنْقِصُوهُ بِالَّذِي قِيلَ شَعْرَةٌ
وَلَا قَلَّتْ أَنْبَابُهُ وَأَظْكَافِرُهُ
وَلَلْحَارِثُ الْجَفْنِيُّ أَعْلَمُ بِالَّذِي
يَنْوَى بِهِ النُّعْمَانُ إِنْ خَفَّ طَائِرُهُ
فِي أَحَارِكُمْ فِيهِمْ لِنُّعْمَانَ نِعْمَةٌ
مِنَ الْفَضْلِ وَالْمَنْ الَّذِي أَنَا ذَاكِرُهُ
ذَنْوِبًا عَفَى عَنْهَا وَمَالًا أَفَادَهُ
وَعِظْمًا كَسِيرًا قَوْمَتَهُ جَوَابِرُهُ

وأعجب رجل من بني العُريَان من صُداء بأبناء عمومته من بني الحارث
بن كعب فمدحهم وكانوا أهلاً للمدح فقال: (١)

(١) التعليقات والنوادر / النسخة الهندية ٢٠٩ .

أنتم بنو الحارثِ الكهفِ الملوذُ بهِ
إذا الأمورُ أَعْضَتْ بِالْأَبَاهِمِ
الضارِبُونَ وَنَقَعُ الخيلِ مختلفٌ
وأنفسُ القومِ تَنْزُو فِي الْحَيَازِيمِ

وبعد أن جاء الإسلام، أعجب شعراء مذحج بهذا الدين القويم وبالرسول ﷺ فاعتنقوه وآمنوا به، ومدحوا الإسلام والرسول ﷺ، من ذلك قول جُهَيْش بن أُوَيْس النُّخَعِي مادحاً رسول الله ﷺ ومشيداً بالإسلام عند وفوده مع قومه: (١)

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ مُصَدِّقٌ
فَبُورِكَتَ مَهْدِيًّا وَبُورِكَتَ هَادِيًّا
شَرَعْتَ لَنَا دِينَ الْحَنِيفِيَّةِ بَعْدَمَا
عَبَدْنَا كَأَمْثَالِ الْحَمِيرِ الطَّوَاغِيَا
ومدح ظَبْيَانَ بنِ كَدَّادَةَ رسول الله ﷺ فقال: (٢)
أَشْهَدُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالصَّفَا
شَهَادَةَ مَنْ إِحْسَانُهُ يُتَقَبَّلُ
بَأَنَّكَ مَحْمُودٌ عَلَيْنَا مَبَارَكٌ
وَفِي أَمِينٍ صَادِقٍ الْقَوْلِ مَرْسَلٌ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢٥٦/١ (دار الكتاب العربي).

(٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٧٧.

أَتَيْتَ بِنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِمِثْلِهِ
وَلَا عَيْبَ فِي الْقَوْلِ الَّذِي يُتَنَخَّلُ
عَلَيْكَ قَبُولٌ مِنْ إلهِي وَخَالِقِي
وَسِيْمَاءٌ حَقِّ سَعْيِهَا مُتَقَبَّلُ
بَأَنَّكَ قِسْطَ أَسُّ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَمِيْزَانَ عَدْلِ مَا أَقَامَ الْمُسَلَّلُ

وممن حاز إعجاب شعراء مذحج فمدحوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قالت أم سنان بنت خيثمة المذحجية تمدحه وتدعو مذحجاً للإلتفاف حوله في صراعه ضد معاوية فقالت: (١)

يَا آلَ مَذْحِجٍ لَا مُقَامَ فَشْمُرُوا
إِنَّ الْعَدُوَّ لَأَلِ أَحْمَدَ يَقْصُدُ
هَذَا عَلِيٌّ كَالْهَلَالِ تُحْفُهُ
وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعُدُ
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ
إِنَّ يَهْدِيكُمْ بِالنُّورِ فِيهِ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُدْشَهْدَ الْحُرُوبِ مَظْفَرًا
وَالنَّصْرَ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢٩٦/١ (تحقيق محمد سعيد العريان).

وأعجبَ النجاشي الحارثي ببطولة الأشعث بن قيس الكندي في صفين
فقال يمدحه: (١)

يا بن قيسٍ وحارثَ بنَ يزيد
أنتَ واللهِ رأسُ أهلِ العِراقِ
أنتَ واللهِ حِيَّةٌ تنفِجُ السَّمَّ
قليلٌ منها غِنَاءُ الرِّاقِي
أنتَ كالشَّمسِ والرجالُ نجومُ
لا يَرى ضَوْؤَها معَ الإِشراقِ
قد حَمَيْتَ العِراقَ بالأسلُ
السَّمُرِ وبِالبَيْضِ كالبروقِ الرِّقَاقِ
أنتَ حلوٌ لمن تَقَرَّبَ بالودِّ
واللشَّائِنِينَ مُرُّ المَذَاقِ
لابِسُ التَّاجِ جَدُّهُ وأبوهُ
لَوَ وَقَآءُهُ رَدَى المَنِيَّةِ واقِ

وقال يمدح هند بن عاصم وقومه بني سلول، وكان قد أعجب بهم
وبمواقفهم في صفين: (٢)

(١) مجلة المجمع العراقي مجلد ١٢ ص ١١٧ لسنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١٢٤ ، لسنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .

إذا الله حياً صالحاً من عباده
كريمًا فحياً الله زيد بن عاصم
وكلُّ سلوٍ إذا ما لقيته
سريعٌ إلى داعي الندى والمكارم
همُّ البيض أخلاقاً وديباج أوجه
كرام إذا اغبرت وجوه الألائم

ومدح عبید الله بن سليمان الصُدائي قوماً يدعون (آل محمد) كانوا أهل
مجد وكرم، فمدحهم بالكرم والشجاعة والقوة والمنعة والسؤدد وهذه خير ما
يمدح بها عند العرب فقال: (١)

فلما بدا ملك يهدي وأعرضت
لنا من جزاء نخله المتقاور
مراكز من أرماح آل محمد
بنى المجد فيهم والبد بعد والبد
فإن جاءت الميَّار من كل بلدة
بنقص من الأسعار والماء جامد
رأيت جفان الشيز حول بيوتهم
نهاباً فمنهم صادرون ووارد

(١) التعليقات والنوادر / النسخة الهندية ورقة ٢٢٥ .

وإن جاء يوماً هاتفٌ مُتَنَجِّدٌ
 فَللَّخِيلِ عَاكُوبٌ مِنَ الصَّخْلِ سَانِدٌ
 تَلَقَّتْ بِهِمْ جُرْدٌ سَوَابِقُهَا الْأَلَى
 وَقَدْ حُسِرَتْ بِالسَّمْهَرِيِّ السَّوَاعِدُ
 لِبَاسَهُمْ جُونٌ كَأَنَّ حَسِيْسَهَا
 تَسَاوَدُ أَبْكَارٍ ضِعَافِ التُّسَاوِدِ

ونلاحظ أن مدح شعراء مذحج كان مدحاً صادقاً ليس فيه شيء من
 القُرْبَى والتزلف، ولا يريدون من ورائه كسباً أو عطاء وإنما كان من قبيل
 الاعتراف بالفضل لأهله، والإعجاب بالمواقف المحموده، ولذلك قلَّ المدح في
 نتاجهم الشعري.

٥ - الرثاء :

كانت حياة مذحج مثل حياة سائر العرب حياة حروب، وغارات يسقط
 أثرها القتلى، فيبكي الأهل والأصحاب، ويثيرون بيكائهم روح الحماس في
 قبائلهم ويؤججون أحزانهم، فيدفعونهم لشحذ السيوف استعداداً لجولة
 جديدة تطفىء نار غيظهم وتشفي أحقادهم بالفوز بثأرهم والظفر برؤوس
 أعدائهم.^(١)

ونساء مذحج مشهورات بين نساء العرب بالنياحة على الميت، وحرقتهن

(١) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / يحيى الجسوري ص ٢٢١ / طبع مؤسسة الرسالة /
 بيروت / الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

الشديدة على الموتى. (١) وللمرأة دمعها الخاص في هذا الجانب، ولذلك نجد أكثر شعر النساء في التراث الشعري العربي متجهاً للرثاء ونجد أن رثاء المرأة أشد تأثيراً وبعثاً للأحزان، وهذه عائشة بنت عبد الله بن عبد المطلب الحارثية ترثي ابنين لها - قتلها بسر بن أرطاة عندما توجه لليمن - برثاء فيه من لهيب الحرقه وتأجج العاطفة، وعظيم الحزن، ما يؤثر في النفس حين تقول: (٢)

هَامَنْ أَحْسَ بَابِنِي الَّذِينَ هَمَا
كَالِدَرَّتَيْنِ تَشْطَىٰ عَنْهَا الصَّدْفُ
هَامَنْ أَحْسَ بَابِنِي الَّذِينَ هَمَا
قَلْبِي وَسَمْعِي الْيَوْمَ مُخْتَطَفُ
مَنْ ذُلُّ وَالْهَيْ حَيْرِي مَدْلَهْ
عَلَىٰ حَبِيبِينَ ذَلًّا إِذْ غَدَا السَّلْفُ
خَيْرْتُ بَسْرًا وَمَا صَدَقْتُ مَا زَعَمُوا
مَنْ إِفْكَهِمْ وَمَنْ الْقَوْلِ الَّذِي اقْتَرَفُوا
أَنْحَىٰ عَلَىٰ وَدَجِي ابْنِي مَرْهَفَةً
مَشْحُوزَةً وَكَذَلِكَ الْإِثْمُ يُقْتَرَفُ

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢٦٥ .

(٢) المختصر في أخبار البشر / لعلم الدين بن إسماعيل ١/١٧٩ / المطبعة الحسينية المصرية .

أما عمرو بن قيس بن مسعود المرادي فيرثى زوجته ويطلب من ابنة أو
أخت أو قريبة له أن تبكي معه زوجته سُعدى حيث يقول: (١)

سُعيد^(٢) قومي على سُعدى فبكيها

فلست مُحصيَّة كل الذي فيها

في ماتم كظباء الرّوض قد قرّحت

من البكاء على سُعدى مآقيها

ويهز حدث موت الرسول ﷺ عمر بن الفحيل الزُّبيدي فيجزع لذلك،
ويطلب من مخاطبة له أو من عينه أن تعينه على البكاء على نبي الهدى ﷺ،
ويتمنى أن لم يكن بقي حتى اليوم الذي يشهد فيه مفارقة الرسول ﷺ،
كان يتمنى لو أنه مات في يوم موته ﷺ لعدم مقدرته على تحمل هذا
المصاب الفادح الجلل فيقول: (٣)

أسعديني بدمعك الرّقراقِ

لِفراقِ النبيّ يومَ الفراقِ

ليتني متُّ يومَ ماتَ ولم

ألقَ من الرّزءِ ما أنا لاقِ

وأكثر رثاء مذحج في الجاهلية يسير على نمط رثاء سائر العرب حيث

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص ٦٠ (كرنكو).

(٢) لعلها اسم ابنة له .

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١١/٢ .

يصف فيه الشاعر الحرقه واللوعة التي أصابته من مفارقة المرثى، ويذكر محامده، ومحاسنه، كالشجاعة والكرم، وبعد أن جاء الإسلام لمسنا تغيراً واضحاً في الرثاء عند شعراء مذحج، فظهر فيه روح الدين الجديد الذي لا يُنكر الحزن، إنما ينهي عن المبالغة فيه والخروج به إلى الجزع، ورأينا معاني الرثاء تتعدى تلك المعاني التي ألفناها في الجاهلية إلى معان تظهر فيها روح الإسلام، فهذا الضحّاك بن قيس الحارثي يرثى موتى له بحاضر قنسرئين، فيذكرهم بغشيانهم الخير وبيعدمهم عن الشر، ويكون رثاؤه بالدعاء لهم فيقول: (١)

سَقَى اللهُ أَجْدَاثاً وَرَائِي تَرَكَتْهَا

بِحَاضِرِ قَنْسِرَيْنِ مِنْ سَبَلِ الْقَطْرِ

ثَوَّالاً يَرِيدُونَ الرِّوَاخَ وَغَالَهُم

مِنَ الْمَوْتِ أَسْبَابٌ تَجِيءُ عَلَى قَدْرِ

لَعَمْرِي لَقَدْ وَاَرَتْ وَضُمَّتْ قَبُورَهُمْ

أَكْفَاءَ شِدَادِ الْقَبْضِ بِالْأَسْلِ السَّمْرِ

يَذَكِّرُنِيهِمْ كُلَّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ

وَشَرٍّ فَمَا أَنْفَكُ مِنْهُمْ عَلَى ذِكْرِ

وقال الهيثم بن الأسود النخعي يرثي شَبَثَ بن رَبِيعِي، وكان من المُحَكِّمَةِ،

(١) الأشباه والنظائر للخالدين ٢/١٥٢، ١٥٣ / تحقيق السيد محمد يوسف / طبع لجنة التأليف والترجمة.

ويظهر في رثاء الهيثم له تأثر بالدين الإسلامي، والمعاني الإسلامية حيث كان رثاؤه له يذكر عمله الصالح، والقيام وبالذعاء له بالرحمة: (١)

إِنِّي اليــــــــــــــــومَ وَإِنْ أُمِّلِي لِي
لَقَلِيلُ الْعُمُرِ مِنْ بَعْدِ شَبَبْتُ
عَاشَ تَسْعِينَ خَرِيفاً هُمُ
جُمِعَ مَا يَكْسَبُ مِنْ غَيْرِ خَبَثُ
غَيْرُ جَارٍ فِي تَمِيمِ سُنَّةِ
تُنَكِّسُ الرَّأْسَ وَلَا عَهْدُ نَكَثُ
وَلَقَدْ زَلَّ هَوَاهُ زَلَّةً
يَوْمَ صِفَّيْنِ فَأَخْطَا وَحَنَثُ
فَلَعَلَّ اللهُ أَنْ يَرْحَمَهُ
بِقِيَامِ اللَّيْلِ وَالصَّوْمِ اللَّهَثُ
وَتُقَى كَمَا كَانَ عَلَيْهِ دَائِماً
وَبُكَاءَ وَدُعَاءَ فِي الْمَكْتُ

ورثى رُهَيْنَ بن سَهْمِ المرادي قتلى الخوارج أيام عُبَيْدِ اللهِ بن زياد فكان رثاؤه، متأثراً متأثراً واضحاً بآيات القرآن الكريم وأسلوب الحديث النبوي

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ٢/٣٤١ .

الشريف وذكر «بيع المؤمن نفسه في سبيل الله»، ووصف حرب الخوارج
بصفوف المسلمين في الجهاد كأنهم «بنيان مرصوص» فقال: (١)

يا نفسُ قد طالَ في الدِّينا مُرَاوِغَتِي
لا تَأْمِنِي لَصُروفِ الدَّهْرِ تَنْغِيصًا
فأَسْأَلُ اللهَ بَيْعَ النَّفْسِ مُحْتَسِبًا
حتى الأَقْيَ في الفِرْدَوْسِ حُرْقُوصًا
وابنَ المَنِيحِ ومِرْداسًا وإخوتَهُم
إذ فارقوا زهرةَ الدُّنيا مَخَامِيصًا
تَخَالَ صَفَّهُمُ في كُلِّ مُعْتَرِكِ
للموتِ سُورًا من البُنْيَانِ مَرْصُوصًا

وأكبر الظن أن سبب تأثر رثاء مذحج بالإسلام، ومعانيه من أي غرض
آخر هو كون حالة الموت التي تستدعي الرثاء تذكرهم بالله تعالى مُقَدَّرِ
الموت، وتذكرهم باليوم الآخر وبالقبر وبالجزاء والعقاب، فيذكرون ذلك كله،
ويكون رثاؤهم صدئاً لكل تلك الأشياء. والذي يستعرض أشعار مذحج في
أحداث الإسلام، كالفتوحات ويوم الجمل والنهروان وصيفين، يجد كثيراً من
هذا الرثاء المتأثر بالرؤيا الإسلامية، وهذه أم الهيثم النخعية ترثي علياً

(١) أنساب الأشراف للبلاذري القسم الرابع الجزء الأول ص ٨٨ تحقيق إحسان عباس (المطبعة
الكاثوليكية)

رضي الله عنه برثاء لا يخلو بيت من تأثرٍ بمعنى إسلامي، أو صفة دينية،
كانت في شخصية علي رضي الله عنه حيث قال: (١)

أَلَا يَا عَيْنَ وَيْلِكَ فَاسْعِدِينَا
أَلَا تَبْكِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
رُزْنًا خَيْرَ مِنْ رَكَبِ الْمَطَايَا
وَخَيْسَهَا وَمِنْ رَكَبِ السُّفِينَا
وَمِنْ لِبَسِ النَّعَالِ وَمِنْ حَذَاهَا
وَمَنْ قَرَأَ الْمَثَانِي وَالْمِثْنَا
وَكُنَّا قَبْلَ مَقْتَلِهِ بِخَيْرٍ
نَرَى مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ فِينَا
يُقِيمُ الدِّينَ لَا يَرْتَابُ فِيهِ
وَيَقْضِي بِالْفَرَائِضِ مُسْتَبِينَا
وَيَدْعُو لِلْجَمَاعَةِ مِنْ عَصَاهُ
وَيُنْهَكَ قَطْعَ أَيْدِي السَّارِقِينَا
وَلَيْسَ بِكَاتِمٍ عِلْمًا لِدَبِّهِ
وَلَمْ يُخْلَقْ مِنَ الْمُتَجَبِّرِينَا

(١) مقاتل الطالبين للأصفهاني ص ٤٢ / طبع دار الإحياء مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٨هـ -

١٩٤٩م .

ومن أنواع الرثاء الذي توافر عليه شعر مذحج رثاء الشاعر نفسه، وقد ورد هذا النوع من الرثاء في شعر عبد يغوث الحارثي عندما قتله التميم في أسره حيث قال لهم: افسدوا أكحلي بعد أن تسقوني الخمر صرفاً، ودعوني أنوح على نفسي، ففعلوا به ما أراد فأخذ يرثى نفسه ويقول: (١)

فيا راكباً إمّا عرضتَ فَبُلْغَاً
نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَلَا تَلَاقِيَا
أَبَا كَرَبٍ وَالْأَيُّهَمِينَ كِلَيْهِمَا
وَقَيْسَا بِأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ الْيَمَانِيَا
أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنَسْعَةٍ
أَمْعَشَرْتِمِ أَطْلَقُوا مِنْ لِسَانِيَا
فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُوا بَيْ سِيدَاً
وَإِنْ تُطَلِّقُونِي تَحْرِبُونِي بِمَالِيَا
وَقَدْ كُنْتُ نَحَارَ الْجَزُورِ وَمُعْمِلَ
الْمَطِيِّ، وَأَمْضَى حَيْثُ لَاحِي مَاضِيَا
وَأَنْحَرُ لِلشَّرْبِ الْكَرَامِ مَطِيَّتِي
وَأَصْدَعُ بَيْنَ الْقَيْنَتَيْنِ رِدَائِيَا

(١) المفضليات ص ١٥٥ . للمفضل الضبي / تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون / دار المعارف / القاهرة طبعة سابعة .

وَكُنْتُ إِذَا مَا الْخَيْلُ شَمَّصَهَا الْقَنَاءَ
 لِبَيْقَاءَ بِتَصْرِيفِ الْقَنَاءِ بَنَانِيَاءَ
 وَرثى جعفر بن علبة الحارثي نفسه قبل أن يقتل فقال: (١)
 أَحَقَّاءَ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ رَائِيَاءَ
 صَحَارِي نَجْدٍ وَالرِّيَّاحِ الذَّوَارِيَاءَ
 إِذَا مَا أُتَيْتَ الْحَارِثِيَّاتِ فَنَاعِنِي
 لَهْنَ وَخَبْرَهِنَّ أَنْ لَا تَلَاقِينِيَاءَ
 وَقَوْدَ قَلْوَصِي بَيْنَهِنَّ فَإِنهَا
 سَتُبْرَدُ أَكْبَاداً وَتُبْكِي بِوَاكِيَاءَ
 وَأَوْصِيكُمْ إِنْ مَتَّ يَوْمًا بِعَارِمِ
 لِيُغْنِي شَيْئاً أَوْ يَكُونَ مَكَانِيَاءَ
 وَالْحَقُّ إِنْ عَبْدٌ يَغُوثُ الْحَارِثِيُّ الشَّاعِرُ الْمَذْحَجِيُّ يُعَدُّ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ أَحْدَثُوا
 هَذَا الْفَنَ الَّذِي هُوَ رِثَاءُ النَّفْسِ فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الشَّعْرِيِّ.

٦ - الغزل :

إذا استعرضنا شعر مذحج الذي يتناول المرأة وذكرها، لا نجد تلك
 الكثرة التي نجدها في الفخر والحرب وأوصاف، وأن معظم ما قيل في الغزل
 لا يتجاوز التشبيب بالمرأة والحنين إليها، أو ذكرها عند القتال في ساحات

(١) الأغانى (دار الكتب) ٤٧/١٣ .

الحروب، لإثارة الحماس والشجاعة والإقدام. وجُل الشعر المذحجي الذي تناول المرأة كان شعراً عفيفاً بعيداً عن التهتك الذي عُرفَ به بعض الشعراء في الشعر العربي، وأكبر الظن أن السبب هو أن القبيلة، كانت قبيلة محاربة فيها ملامح الجِدِّ والقوة والصرامة التي تُجافي رقة الغزل ونعومته، كذلك امتاز رجال مذحج بالعفة التي تَرَبَّأَ بصاحبها عن الغزل الفاحش القبيح، مما يدل على ذلك قول عبد يغوث الحارثي يصف عفته وبعده عن مواقع السوء عندما كان أسيراً لدى التميم، وقد حاولت نساؤهم أن يُغْرِينَه بأنفسهن، ولكنه امتنع وتذكَّرَ زوجه مُلَيْكَةَ فقال: (١)

وَظَلَّ نِسَاءُ التَّمِيمِ حَوْلِي رُكْدًا
يَحَاوِلْنَ مَا تُرِيدُ نِسَائِيًّا
وَقَدْ عَلِمْتُ عِرْسِي مُلَيْكَةَ أَنْنِي
أَنَا اللَّيْثُ مَعْدِيًّا عَلَيْهِ وَعَادِيًّا

وذكر المرأة عند شعراء مذحج غالباً ما يكون في بداية القصيدة، ولم نجد شاعراً منهم يفرد الغزل بقصيدة كاملة مستقلة، أو يوقف نفسه على شعر الغزل وَيُشْتَهَرُ به، إنما يذكر الشاعر منهم المرأة ثم يخلُصُ إلى ما يريد قوله من شعر، وغالباً ما يكون في الحماس والحرب، وممن شبب بالمرأة وشببها بالظبية، وذكرها بطيب الرائحة، وكمال العفة وعذوبة الثنايا، جَبْرُ بن الأسود المُعَاوِيَّيِّ حيث ذكر محبوبته ليلي بعد أن مر على أطلال ديارها، وشاهد أثافي دمنتها فقال: (٢)

(١) المفضليات ص ١٥٥ .

(٢) منتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك ١٢٧/٥ ب، ١١٢٨ .

أجَدَكَ لو تعرف أثافي دمنة
مررت على أطلالها لا تعرج
بكي فتداعى الدمع حتى كأنما
جفونك سيمطُ خانة السلك مخرج
ليالي ليلي لا تزال كأنها
هميجٌ بذى الدثين غراء غوهج
ربيبةٌ خديرٍ لم تكشف سُجوفه
وفارةٌ مسكِ آخر الليل دارج
كان ثناياها وبرد رضا بها
هدؤ نطافا بالمسيلة حشج
تُشج به رِقراقه صر خديّة
عقيلةٌ مُحذوفٍ يغص وينشج
تذكرتها من بعد ما حال دنها
من النأي طلح بالحجاز وعوسج
فأني بليلي غير أن تُسيف النوى
ومن دونها غول البطاح فمُنج

أما بعد الإسلام فنجد بعض شعراء مذبح يتأثر في رقة غزله بشعر
الغزل الذي ظهر في مدن الحجاز وباديته وفي أوائل العصر الأموي.

وبالشعراء العذريين منهم بخاصة، حيث نجد سمات الغزل عند بعض شعراء مذحج، يكاد يشابه تلك السمات من تأجج العاطفة، وخضوع المحب لداعي العلاقة التي تنشأ بين فتيان وفتيات تلك الحقب، والتي مارست الغزل بمذاق خاص، ورؤية متفردة. وقد أبدع في هذا النوع من الغزل من شعراء مذحج جعفر بن عُلبة الحارثي، فقد كان شاباً طريّ العود، صاحب لذة ومتعة. كلفاً بالحسان من النساء، وشديد التعلق بمحادثتهن ومغازلتهن، يظهر ذلك في شعره، ويمتاز فيه برقة الشعور تجاه المرأة، حتى إنه ليضعف أمامها وهو البطل الشديد القوي الجلد على نوائب الدهر، ومقارعة الأبطال. يتجل ذلك في أبياته التي قالها وهو في سجنه بعد أن ألت به محبوبته مع رفيقات لها، وكنّ جيئن لزيارته - وهي زيارة في ألطم والنام - فحادثها وبث إليها وجده فقال: (١)

هَوَائِي مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ

جَنِيْبٌ وَجُنْمَانِي بِمَكَّةَ مَوْثِقٌ

عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَسَرِبِ أَتَتْ بِهِ

بُعَيْدَ الْكُرَى كَادَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَشْرُقُ

فَلَا تُحَسِبِي أَنِّي تَخَشَعْتُ بَعْدَكُمْ

لشَيْءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُقُ

(١) الأغانى (دار الكتب) ٥٠/٢ وحماسة أبي تمام (تحقيق عسيلان) ٦٥/١ ، الزهرة الجزء الأول

ولكن عَرَّتْنِي من هَوَاكِ صَبَابَةٌ
كما كُنْتُ أَلْقَى مِنْكَ إِذْ أَنَا مُطْلَقٌ
فَأَمَّا الْهَوَى وَالْوُدُّ مِنْي فَطَامِحٌ
إِلَيْكَ وَجِثْمَانِي بِمَكَّةَ مَوْثِقٌ
أَلْتِ فَحِيَّتْ ثُمَّ قَامَتْ فَوَدَّعَتْ
فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتْ النَّفْسُ تَزْهَقُ
فَمَا بَرَحَتْ حَتَّى وَدَدَتْ بِأَنْنِي
بِمَا فِي فَوَادِي مِنْ دَمِ الْجَوْفِ أَشْرَقُ

وَصَوَّرَ لَنَا شِعْرَاءَ مَذْحِجٍ لِحِظَاتِ الْوُدَاعِ، وَلَوْعَةِ الْفِرَاقِ الَّذِي يَحْسُ بِهِ
الْحَبِيبُ عِنْدَمَا يَفَارِقُ مَحْبُوبَتَهُ، يَظْهَرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِ جَعْفَرِ بْنِ عُلْبَةَ الْحَارِثِيِّ
مِنْ أُبْيَاتِهِ لَهُ: (١)

أَشَارَتْ لَنَا بِالْكَفِّ وَهِيَ حَزِينَةٌ
تَوَدَّعْنَا إِذْ لَمْ يَوَدَّعْ سَلَامُهَا
وَمَا أَنْسَى مِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنْسَى قَوْلَهَا
وَقَدْزَلَّ عَنْ غُرِّ الثَّنَائِيَا لِثَامُهَا
أَمَا مِنْ فِرَاقِي الْيَوْمَ بُدٌّ وَلَا النَّوَى
بِمَجْتَمَعٍ إِلَّا لِشَحْطِ لِمَامُهَا

(١) كتاب الأمالي لأبي عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن المبارك اليزيدي ص ١١٠ / طبع
جمعية دائرة المعارف / بحيدر آباد الدكن (الهند) الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ م

فلو كنتُ أبكي من فراقِ صبابَةٍ
لأذريتُ عيني دمعَةً لا الأُمها

ولكنَّ لي عيناً كتوما بمائها

جموداً بماء الناظرين انسجماًها

ومما يلاحظ أن غزل شعراء مذحج، وذكرهم للمرأة لا تخلو ثناياه من
الفخر وإظهار الثوة والتجلد والشجاعة، وهو يوضح لنا خصائص هذه
القبيلة المحاربة الفخورة بنفسها.

ومن الغزل الذي يصف محاسن المرأة، ولكنه في عِفَّة وترَفُّع قول عمرو
بن معد يكرب: (١)

وأبكارٍ لهوتُ بهنَّ جِيناً

نواعمَ في أسرتها الـردوعُ

أمشي حـولها وأطوفُ فيها

وتُعجِّبني الحـاجِرُ والفـرُوعُ

إذا يـضحـكُن أو يـبسـمـن يوماً

تـرى بـرُداً أـلحَ به الصـقـيعُ

كأن على عـوارضهنَّ راحاً

يغـضُّ عليه رُماًنٌ يـنـيـعُ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ص ١٢٩ .

وَصَبَّغُ ثِيَابِهَا فِي زَعْفَرَانِ

بجَدَّتْهَا كَمَا أَحْمَرُ النَّجِيُّعُ

وقول نافع بن أصغَةَ الْمُعَاوِي يَصِفُ مِشِيَةَ مَحْبُوبَتِهِ - وَعِظَمَ ذِرَاعِيهَا،
وساقِيهَا، وحسن مبسمها، وعذوبة طعمه: (١)

مَنْعَمَةٌ تَمْشِي الْهُوَيْنِي إِذَا مَشَتْ

وَيَدْخُلُ كَرِهًا جِجْلَهَا وَسِوَارُهَا

تَبَسُّمٌ عَنْ مِثْلِ الْأَقْحَاحِي مَسَّهُ

نَدَى لَيْلَةٍ طَلَّتْ قَصِيرًا نَهَارُهَا

٧ - الهجاء :

لعل كثيراً مما قاله شعراء مذحج في الجاهلية من شعر الهجاء ضاع ولم يصلنا، فما بين أيدينا لهم في الجاهلية من الهجاء قليل، ولكن ما وصلنا لهم منه في العصر الإسلامي كثير ولا سيما ما روى لشاعر الهجاء المقذع النَّجَاشِي الحارثي الذي كان لا يتحرَّج ولا يتورَّع عن هجاء أحد، حتى إن هذا الشاعر هجا بيوت الأنصار، والقاريء في شعره يرى أن الإسلام لم يُغَيِّرْ من طبيعة هذا الشاعر الهجائية ولم يَزَعُو النَّجَاشِي من تعاليم الدين الجديد، وتختلف مقاييس الهجاء في شعر مذحج من الجاهلية إلى الإسلام، فقد كان هجاءهم في الجاهلية بِالْجِبْنِ وَالْفَرَارِ (٢) من ساحات الحروب، وبالغدر،

(١) التعليقات والنوادر/ النسخة الهندية ورقة ٦٥ .

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ٦٩ .

والبُخل، والذُّلة، وضيعة النسب، أما في الإسلام فأصبح الهجاء بالبعد عن الدين وبالخروج عن سننّه وتعاليمه، وبعداوة الله، والتأخر عن الإسلام، وبارتكاب المعاصي، وكان ذا صبغة سياسية، كذلك المهاجاة التي كانت بين شعراء علي من مذحج وشعراء معاوية في صيفين، إلا أن شاعراً وجدناه يقع في هجائه على المعاني الجاهلية مع زيادة الفحش والإقذاع، وهو النجاشي الحارثي في هجائه لتميم بن مقبل ورهطة بن العجلان وفي هجائه لحسان بن ثابت وابنه وبني النجار من الأنصار ولقريش كذلك، وفي هجائه لأهل الكوفة^(١) بجانب استخدامه للمعاني الجديدة التي حدثت بعد الإسلام واتسامه بالصبغة السياسية كذلك.

ومن هجاء مذحج في الجاهلية هجاء الأسعر الجعفي عشيرته بأكلهم دية أبيه وبجبنتهم عن الأخذ بالنار من قاتليه، والرّضا بالذلّ والهوان، وهجاهم كذلك ببيعهم عدة الحرب التي يجب أن يستخدموها في الأخذ بثأر أبيهم بل أكلوا ثمن هذه العُدّة، وسمّئوا بها أهم لكي تتزوج رجلاً مكان أبيهم فقال: ^(٢)

أبلغُ أبــــا حمرانَ أنْ عشيرتي

ناجواً وللقومِ المناجينِ التوى

باعوا جوادهم لتسمنَ أمهم

ولكي يبيتَ علي فــــراشهمُ فتى

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٣ ص ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٢٥ .

(٢) الاصمعيات ص ١٤٠ .

عَلَجُ إِذَا مَا بَزَّ عَنْهَا ثُوبَهَا
وَتَخَامَعْتُ قَالَتْ لَهُ : مَاذَا تَرَى؟

راحوا بصائرهم على أكتافهم
وبصيرتي يعدو بها عتيد وأى
مسحوا لحاهم ثم قالوا : سألوها
ياليتني في القوم إذ مسحوا اللحي

وهجا قومه كذلك بالبخل، وشدة الحاجة الدائمة وإلحاحهم على ذلك،
وأن صداقتهم ومؤاخذاتهم إنما هي للمنفعة والمصلحة فإذا ما زالت تلك
المنفعة والمصلحة التي يرجونها ممن صاحبوه، انفضوا عنه كأنهم لا
يعرفونه حيث يقول: (١)

وَحَصَاصَةُ الْجَعْفِيِّ مَا صَاحِبَتَهُ
لَا تَنْقُضِي أَبَـدًا وَإِنْ قِيلَ انْقُضَى
إِخْوَانُ صَدَقِ مَا رَأَوْكَ بِغِبْطَةٍ

فإذا افتقرت فقد هوى بك ما هوى
وهجا عبد يغوث قومه على انهزامهم يوم الكلاب، فدعا عليهم باللوم
والخزي والعار حيث قال: (٢)

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/٣٥٠ .

(٢) الفضليات ص ١٥٥ .

جزى الله قومي بالكلاب ملامةً

صريحهم والآخرين المواليا

وهجا عبد الله بن عبد المدان الحارثي، دريد بن الصمة حيث شبهه
بالكلب الذي يعوي في بيدا فقال: (١)

نُبئتُ أن دريدا ظل مُعترِضاً

يُهدي الوعيدُ إلى نجرانٍ من حَضنٍ

كالكلب يعوي إلى بيدا مقفرة

من ذا يواعدنا بالحربٍ لم يحن

أغمض جفونك عما لست نائله

نحن الذين سبقنا الناس بالدمن

وهجا جبر بن حليمة بن كعب الجعفي، الفغار فشبهه بالعجوز الآيس
من الحيض الشمطاء التي فوجئت بنزول حيضٍ منها فقغرت متعجبة، حيث
قال له: (٢)

فَغَرَّتْ لَدَى النُّعْمَانِ لَمَّا رَأَيْتَهُ

كَمَا فَغَرَّتْ لِلْحَيْضِ شَمَطَاءُ عَارِكُ

وهجا عمرو بن معد يكرب الزبيدي بني زياد من بني الحارث بن كعب
بأن شبههم بالأذنان وهجاهم بأهم كحيلة، وبانشغالهم عن الحرب

(١) الأغاني (دار الكتب) ١٠/٢٤، ٣٥.

(٢) جمهرة النسب الكبير لامن الكلبى ورقة ٢١٣، ٢١٤.

بِتَرْبِيقِ الْغَنَمِ، وَاتِّخَاذِ الْكِلَابِ لِلصَّيْدِ، وَبِسَوْقِهِمُ الْحَمِيرَ وَبَعْدَهُمْ عَنِ
الْمَعْرُوفِ وَبِانْشِغَالِ آبِيهِمْ فِي حَيَاتِهِ بِطَلْبِ الْوَعُولِ، وَبِالْكَهَانَةِ، وَهَجَاهِمُ كَذَلِكَ
بِانْهَزَامِهِمْ فِي الْحَرْبِ وَتَرْكِهِمْ لِسَوَامِهِمْ، وَلِكُلِّ بَكْرٍ وَثِيْبٍ مِنْ نِسَائِهِمْ
فَقَالَ: (١)

أَبْنِي زِيَادٍ أَنْتُمْ فِي قَوْمِكُمْ
ذَنْبٌ وَنَحْنُ فَرُوعٌ أَصْلٌ طَيِّبٌ
نَصَلُ الْخَمِيْسَ إِلَى الْخَمِيْسِ وَأَنْتُمْ
بِالْقَهْرِ بَيْنَ مُرَبِّقٍ وَمُكَلَّبٍ
لَا تَحْسَبَنَّ بَنِي كُحَيْلَةَ حَرْبِنَا
سَوْقَ الْحَمِيرِ بِجَابَةِ الْكُوكِبِ
حِيْدٌ عَنِ الْمَعْرُوفِ سَعْيُ آبِيهِمْ
طَلَبُ الْوَعُولِ بِوَفْضَةِ وَبِأَكْلِبِ
حَتَّى تَكْهَنَ بَعْدَ شَيْبٍ شَامِلِ
تَرْحَالَهُ مِنْ كَاهِنٍ مُتَكَذِّبِ
لَمَّا رَأَوْنِي فِي الْكَتِيْفَةِ مُقْبِلٌ
وَسَطَ الْكَتِيْبَةَ مِثْلَ ضَوْءِ الْكُوكِبِ
يُخْتَبُّ بِي الْعَطَافُ حَوْلَ بِيوتِهِمْ
لَيْسَتْ عِدَاؤُنَا كِبْرَقِ الْخَلْبِ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ٤٨ - ٥٠ .

واستيقنوا منا بوقعِ صادقٍ
هربوا وليس أوانَ ساعةٍ مهزَّبِ
تركوا السَّوَامَ لنا وكلَّ خَرِيذَةٍ
بيضاءَ خَرْعَبَةٍ وأخرى ثِيَبِ

ومن هجاء شعراء مذحج في الإسلام، الهجاء بِالِخِذَاعِ، وعداوة الله،
وبالتأخر في دخول الإسلام، حيث هجا شَرِيحُ بن هانئ عمرو بن العاص
ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم بقوله في معرض تحذيره أبا موسى
الأشعري من عمرو: (١)

أبا موسى رُمِيتَ بشرِ خَصْمِ
فلا تُضِيعِ العِراقَ فَدَتَكَ نَفْسِي
ولا يخدعُكَ عمروٌ إنَّ عمراً
عَدُوَّ الله مَطْلِعَ كُلِّ شَمْسٍ
له خُدْعٌ يَحَارُّ العِقلُ فيها
مموهَةٌ مَزَخْرَفَةٌ بِلَبْسِ
فلا تجعلُ معاويةً بنَ حربٍ
كشَيْخٍ في الحِوَادِثِ غيرِ نَكْسِ

(١) وقعة صفين لنصر بن مراحم المنقري ص ٥٢٤ / تحقيق عبد السلام هارون / المؤسسة العربية
الحديثة ومكتبة الخانجي / القاهرة / الطبعة الثالثة / ١٤٠هـ / ١٩٨١ م .

هداه الله للإسلام فرداً

سوى بنت النبي وأى عرس

وهجا النجاشي الحارثي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بالنفاق

فقال: (١)

أبا موسى جزاك الله خيراً

عراقك إن حضك بالعراق

فإن الشام قد نصبوا إماماً

على الأحزاب معروف النفاق

ومن الهجاء بعد الإسلام ما كان بالدعاء على المهجو حيث هجا أيوب بن

سَعْنَةَ عبد الله بن الزبير فدعا عليه بقوله: (٢)

رمى الله عين ابن الزبير بلقوة

فخلخلها حتى يطول سهودها

وعلم ما أقى المقلتين بجمرة

مُنشِنشَةَ حمراء باقٍ وقودها

(١) كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ٢٢/٤ مطبعة مجلس دائرة المصارف العثمانية بحيدر آباد الهند

١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ٢٤١/٥ ، والوحشيات لأبي تمام ص ٢٣٥ / عبد العزيز الميمني

وصاحبه دار المعارف / القاهرة ١٩٦٣م .

وهجا الاشتر النَّخعي معاويةً ببعض العيوب الخلقية وبالذعاء عليه
بالنار ومجاورة الكلاب له في جهنم حيث قال: (١)

أضربهم ولا أرى معاوية

الأخزر العين العظيم الحاوية

هوت به في النار أم هاوية

وجاورته فيها كلاب عاوية

أغوت طغاماً لا هدته هادية

ومما خالف سير الهجاء الذي ذكرناه لمذحج في الإسلام هجاء النجاشي
الحارثي في بعض حالاته، فقد كان هجاؤه مقذعاً يتجاوز حدود الآداب
الإسلامية، من ذلك قوله يهجو أهل الكوفة: (٢)

إذا سقى الله قوماً صوب غادية

فلا سقى الله أهل الكوفة المطرا

التاركين على طهر نساءهم

والنأكحين بشطي دجلة البقرا

والسارقين إذا ما جن ليهم

والدارسين إذا ما أصبحوا السؤرا

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري ص ٣٩٩ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١٠٨ . لسنة ١٣٨٥ - ١٩٦٦ م .

ألقى العداوة والبغضاء بينهم

حتى يكونوا لمن عاداهم جزرا

وهجا عبيد الله بن الحر الجعفي قيس عيلان بأنهم كالنساء، وأنهم
يلبسون البراقع على لحاهم، واستبدلوا نبلهم بالمغازل، حيث تركوا المعارك
والحرب ومكثوا يغزلون كالنساء في البيوت، وهجا الأزد بالجبن، وعدم
أخذهم بثأر سيدهم مسعود، حيث أصبحت سيوفهم مناجل لا تدفع عنهم،
وأن سكوتهم وتعقلهم أورثهم ذلة وعاراً، فهو عقل لا خير فيه، وأن لحاهم
شمطاء تشبه لحا التيوس التي بللت بالمياه حيث يقول: (١)

ألم ترقيساً قيس عيلان برقعتُ

لحاهها وباعت نبلها بالمغازلِ

ومازلت أرجو الأزد حتى رأيتها

تقصر عن بنيانها المتطاولِ

ومقتل مسعودٍ ولم يثأروا له

وصارت سيوف الأزد مثل المناجلِ

وما خير عقلٍ أورث الأزد ذلة

تسب به أحيائهم في المحافلِ

على أنهم شمطٌ كأن لحاهمُ

لحاء تيوسٍ حليت عن مناهلِ

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك المجلد الأول (الجزء الثاني) ص ٢٦١ (صورة عن

مخطوطة) (لاله لي) مكتبة السليمانية في استانبول

٨ - أغراض أخرى :

هناك أغراض أخرى اشتمل عليها شعر مذبح وهي ليست بالكثرة التي تجعلنا نفرّد لكل غرضٍ حديثاً عنه، ومن تلك الأغراض:

— التهديد والوعيد ، من ذلك قول الديّان بن قَطْن الحارثي^(١)

لَأُصِخَّرَ ظالماً حرباً رباعية

فَأَقْعُدُ لها ودَعْنُ عنكَ الأظانيناً

وقول الأسعر بن أبي حمران الجعفي:^(٢)

فلا يدعني قومي لسعدِ بن مالكِ

إذا أنا لم أسعر عليهم وأنقِبِ

ومن التهديد والوعيد ما كان بالشعر كما هو عند يزيد بن فكهة الحارثي

حيث قال يهدد رجلاً يسمى مالكا:^(٣)

سيعلمُ مالكاُ أني سأهـدي

إليه إذا دُعيتُ إلى التّهـادي

مؤبـدةً تطلع كلّ نجـدي

صواعقها وتهبُّ كلّ وادي

(١) أساس البلاغة مادة «قعد» .

(٢) الاشتقاق ص ٤٠٨ .

(٣) شرح المختار من شعر بشار للخالدين بشرح التجيبي تصحيح السيد محمد بدر العلوي / طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م ص ٢٢٦ .

وقال بعض بني الحارث بن كعب يهدد قوماً أخذوا قلوباً عليه وحلفوا
عليها: (١)

سَأَخْذَهَا غَضِباً ، وَشَيْبُ لِحَاهُمُ
لَهَا عُقْلٌ مَفْتُولَةٌ وَقِبَالُ
وقال عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ الْحَرِّ يهدد مصعب بن الزُّبَيْرِ ويتوعده: (٢)
فَلَا تَحْسِبْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ كِنَاعِسِ
إِذَا حَلَّ أَغْفَى أَوْ يُقَالُ لَهُ ارْتَحَلُ
فَإِنْ لَمْ أَرْزُكِ الْخَيْلَ تَرْدِي عَوَابِسًا
بِفِرْسَانِهَا لَا أُدْعُ بِالْحَازِمِ الْبَطْلُ
وَإِنْ لَمْ تَرِ الْغَارَاتِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
عَلَيْكَ فَتَنْدِمُ عَاجِلًا أَيُّهَا الرَّجُلُ
فَلَا وَضَعْتَ عِنْدِي حَصَانًا قِنَاعَهَا
وَلَا عِشْتُ إِلَّا بِالْأَمَانِي وَالْعِلَلُ

الاعتذار :

من ذلك اعتذار فَرَوَةَ بْنِ مُسَيْكٍ الْمُرَادِيِّ عَمَّا أَصَابَ قَوْمَهُ مِنَ الْهَزِيمَةِ يَوْمَ
الرَّزْمِ حَيْثُ قَالَ: (٣)

-
- (١) قرأصنة الذهب في نقد أشعار العرب ص ١١٦ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٥٠٥/٢ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٥٨٢/٢ .

فإن تغلب فغلابون قدماً
وإن تغلب فغيره مغلبين
وما إن طبنا جبن ولكن
منأيانا وطعمه آخرينا
كذاك الدهر دولته سجالات
تكر صروفه جينا فحينا
فلو خلد الملوكة إذا خلدنا
ولو بقي الكرام إذا بقينا
واعتذر يزيد بن مخرم الحارثي عما وقع فيه من الأسر لكثرة عدوه
وإحاطتهم به فقال: (١)

تعجب جارتني لما رأتنني
كذات النوط مخدرتي جراجي
كأنك لم تـرني قبلي أسيرا
يقاد به على جمل رذاح
فلما أن كثرت وغاب قومي
أسرت أسار محتبل البراح

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك ١٣٦/٥ ب، ١١٢٧.

رَأُونِي مَفْرُوداً فَتَبِـادِرُونِي

وَمَا صَدَعَتْ كَمَا تَهُم جَمَاحِي

وَقَدْ رَوَعْتَهُمْ قَدِماً بِخَيْلٍ

جِوَانِفَ فِي الْأَعْنَةِ كَالسَّرَاحِ

ومن الاعتذار ماهو من الجزع، وعدم الصبر يقول رجل من بني الحارث

بن كعب معتذراً عن الجزع الذي أصاب قومه: (١)

وَعَيْرَتُمُونَا أَنْ جَزَعْنَا وَلَمْ نَكُنْ

لِنَجْزَعَ لَوْ أَنَا قَدَرْنَا عَلَى الصَّبْرِ

صَبَرْنَا فَلَمَّا لَمْ نَرِ الصَّبْرَ نَافِعاً

جَزَعْنَا وَكَانَ اللهُ أَمْلَكَ بِالْعُدْرِ

الحكم والوصايا :

ومن شعراء الحكم والتجارب في مذبح الأفوه الأودي وهو من حكماء

العرب وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، ومن شعراء الوصايا الحارث بن

كعب جد قبيلة بني الحارث، وهذا الأسعر الجعفي يقول في السر وإخفائه،

وإظهاره، بما يدل على نظر فيه وحكمة وتجربة حيث قال: (٢)

(١) حماسة البحرني ص ١٢١ . عناية لويس شيخو اليسوعي / طبع دار الكتاب العربي / بيروت .

(٢) حماسة البحرني ص ١٤٧ .

وَسِرِّكَ مَا كَانَ فِي وَاحِدٍ

وَسِرِّ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ الْخَفِيِّ

وقال يزيد بن المُخَرَّم في الحكمة: (١)

تَلْقَى السَّفِيهَةَ عَلَى مَنْ لَا يَسَافِهُهُ

سِيفًا وَيَخْشَى مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ جَهْلًا

وقال كذلك: (٢)

قَدْ قَالَ ذُو الْحِنْكََةِ لِلتَّفَهُّمِ

مَنْ لَمْ يَكْذُبْ عَنْ حَوْضِهِ يَهْدِمُ

ومن شعر الأفوه الأودي في الحكمة والتجربة قوله: (٣)

وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنِّي إِلَّا عَلَى عَمْدٍ

وَلَا عِمَادٌ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْ تَادُ

لَا يَصْلُحُ الْقَوْمُ فَوْضَى لَا سِرَاةَ لَهُمْ

وَلَا سِرَاةَ إِذَا جَهَّالَهُمْ سَادُوا

وهذه الحكمة كما نراها مستقاة من تجارب الحياة، ولا تتجاوز الحكم

المأثورة عن عامة أهل الجاهلية، وبعد انتشار الإسلام ظهر نوع من الحكم

(١) حماسة البحري ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق ١٦٨ .

(٣) الطرائف الأدبية ص ١٠ وانظر كذلك ص ١١ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ .

والتجارب فيه روح الإسلام السّمة، كتأثرها بمفهوم الثواب والعقاب،
كقول عمار بن ياسر رضي الله عنه: (١)

تَوَخَّ من الطُّرُقِ أوساطها

وعَدَّ عن الجانبِ المُشْتَبِهِ

وسمِعَكَ صُنَّ عن سماعِ القبيحِ

كصونِ اللِّسانِ عن اللفظِ بِهِ

فإنَّكَ عنَدَ استماعِ القبيحِ

شَرِيكٌ لِقائِلِهِ فانتبِه

ومن الوصايا، أقوال تصدر عن عقل حكيم ومجرب وذو دربة بالأمور
وتقلباتها، يوصى بها السلفُ الخلف، من ذلك وصية الحارث بن كعب جد
القبيلة، أحد بنيهِ بالمحافظة على الرِّياسة التي حققها له، ويوصيه بمقومات
تلك الرِّياسة وهي الشجاعة والتقدم حيث يقول: (٢)

أَبْنِيَّ إنَّ أبَاكَ يوماً هَالِكٌ

فاحفظ أبَاكَ رِياسَةً وتَقَلُّبًا

(١) كتاب الزهرة للأصفهاني القسم الثاني ٦٧٢ تحقيق ابراهيم السامرائي ونوري حمود القيسي/
مكتبة المنار/ الأردن ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م وانظر شعر الهيثم بن الأسود النخعي في حماسة
البحثري ص ١٠٣ ، ٢٤٨ .

(١) المعمرون والوصايا للسجستاني ص ١٢٢ تحقيق عبد المنعم عامر/ دار إحياء الكتب العربية/
مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٢م .

وَإِذَا لَقَيْتَ كَتِيبَةً فَتَقَدَّمْ
إِنَّمَا الْقَدَمُ لَا يَكُونُ الْأَخْيَارًا
تَلْقَى الرِّيَاسَةَ أَوْ تَمُوتَ بَطْعَنَةً
وَالْمَوْتُ يَأْتِي مِنْ نَائٍ وَتَجَنَّبْنَا

ومن الوصاية الحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، والبعد عن
قبيحها من ذلك قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي حيث يقول: (١)

قَدْ نِلْتُمْ مَجْدًا فَحَازِرُ أَنْ تَدْنُسَهُ
أَبُّ كَرِيمٍ وَجِدُّ غَيْرِ مُؤْتَشِبِ
أَمْرُكَ الْخَيْرَ فَاغْلُ مَا أَمِرْتَ بِهِ
فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ
وَاتَرَكَ خَلَائِقَ قَوْمٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ
وَاعْمَدْ لِأَخْلَاقِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ
وَإِنْ دُعِيتَ لَغَدْرٍ أَوْ أَمِرْتَ بِهِ
فَاهْرُبْ بِنَفْسِكَ عَنْهُ أَبَدَ الْهَرَبِ

الحنين إلى الأهل والديار :

وغالباً ما يذكر الشعراء الأهل والأصدقاء، والندامى والمحوبات عند ذكر

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي جمع مطاع الطرابيشي ٤٦ ، ٤٧ .

الديار، وقد ذكر عبد يغوث الحارثي عندما كان في أسرهِ دياره في نجران
ونداماه، وزوجه مُلَيْكَةَ، وَحَنَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: (١)

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرْضَتَ فَلْبَغَاً

نَدَا مَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَلَّا تَلَاقِيَا

أَبَا كَرِبٍ وَالْأَيْهَمَيْنِ كَلَيْهِمَا

وَقَيْسًا بِأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ الْيَمَانِيَا

أَحْقَاً عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ سَامِعَاً

نَشِيدَ الرَّعَاءِ الْمَعَزِبِينَ الْمُتَالِيَا

لَقَدْ عَلِمْتُ عِرْسِي مَلَيْكَةً أَنْنِي

أَنَا اللَّيْثُ مَعْدِيَاً عَلَيْهِ وَعَادِيَا

وَحَنَ جَعْفَرَ بْنَ عَلْبَةَ الْحَارِثِيَّ إِلَى مَرَاتِعِ لَهْوِهِ، فَذَكَرَ نَدَامَاهُ، وَأَهْلَهُ وَفَتِيَانَ
قَبِيلَتِهِ، وَحَمَامَ دِيَارِهِ وَمَاءَهَا، وَأَرَاكَهَا فَقَالَ: (٢)

أَلَّا هَلْ إِلَى فَتِيَانَ لَهْوٍ وَلِذَّةٍ

سَبِيلٌ وَتُهْتِافِ الْحَمَامِ الْمَطْوُوقِ

وَشَرْبَةِ مَاءٍ مِنْ خَدَوْرَاءَ بَارِدِ

جَرَى تَحْتَ أَظْلَالِ الْأَرَاكِ الْمَسْوُوقِ

(١) المفضليات ص ١٥٥ .

(٢) الأغاني (دار الكتب) ٥٦ ، ٥٥ / ١٣ .

وسَيَّرِي مع الفتيانِ كُلَّ عشيَّةٍ

أُبَارِي مطاياهم بصهباءَ سَيْلِقِ

والحنين بعد الإسلام للأهل والديار لا يختلف عنه في الجاهلية فهذا خالد الزُبَيْدِي يذكر حنينه، وحنين ابني عمِّ له كانوا «سِنْجَار» من نواحي الجزيرة قرب الموصل، حيث حنوا إلى ديارهم في بني زُبَيْد فذكروا جَبَلِي عُوْجَ عندما رأوا جبلي سِنْجَار، وذكروا الأوقات التي كانوا يقضونها في مصائف ومرابع ومشاتي بلادهم حيث يقول خالد الزُبَيْدِي: (١)

أَيَا جَبَلِي سِنْجَارَ مَا كُنْتَمَا لَنَا

مَقِيْظًا وَلَا مَشْتَى وَلَا مُتْرَبَعًا

وَيَا جَبَلِي سِنْجَارَ هَلَا بَكَيْتَمَا

لِدَاعِي الْهَوَىٰ مِنَّا شَنِينِ أَدْمَعَا

فَلَوْ جَبَلَا عُوْجَ شَكَوْنَا إِلَيْهِمَا

جَرَىٰ عِبْرَاتٍ مِنْهُمَا أَوْ تَصَدَعَا

بَكَىٰ يَوْمَ تَلَّ الْمَحْلَبِيَّةَ صَابِيءُ

وَالْهَيَّ عُوَيْدٌ بَثَّه فَتَقْنَعَا

العتاب واللوم :

العتاب فيه رقة ولطافة، أما اللوم ففيه حِدَّة، وانفعال وتأنيب على تصرف

(١) معجم البلدان رسم (سنجار) ٢/٢٦٢ .

ما. ومن أوجه العتاب واللوم في شعر مذحج ما قالته أم جعفر بن عُلْبَةَ
الحارثي تلوم زوجها عُلْبَةَ على تسليمه جعفرًا للسلطان: (١)

أبا جعفرٍ أسلمت للقوم جعفرًا

فمُتُّ كـمـدًا أو عِشُّ وأنت ذليلُ

وعاتب الأفوه الأودي قومه ولامهم على وضعهم الأمور في غير موضعها
بإعطائهم الرِّياسة والقيادة للسفهاء الذين لا يُحْسِنُونَ تولى مهام الأمور
بجانب هضم لحقه ومكانته فيهم فقال: (٢)

كيف الرشادُ إذا ما كنتُ في نفرٍ

لهم عن الرّشد أغلالٌ وأقيادُ

أعطنوا غواتهم جهلاً مقادتهمُ

فكلهم في حبالِ الغيِّ مُنقَادُ

حان الرحيلُ إلى قومٍ وإن بَعَدُوا

فيهم صلاحٌ لمرتابٍ وإرشادُ

فسوف أجعلُ بعضَ الأرضِ دونكمُ

وإن دَنَتَ رَحِمٌ منكم وميـلادُ

ومن اللوم والعتاب ما كان على الغدر، والخديعة، من ذلك أن رجلاً من
بني الحارث بن كعب غزا هو ورفيق له من بني العُرَيَّان، فلما افترقا رصد

(١) الأغانى (دار الكتب) ٥٤/١٣ .

(٢) الطرائف الأدبية ص ١٠ .

للحارثي جماعة من بني العُريان، فظن الحارثي أن العُرياني هو الذي
حرّش قومه عليه فقال يعاتبه ويلومه: (١)

ألا كيف إدغال الفتى برقيقه

وقد شرعت في الزاد أيديهما معاً

لعمرك أني من رفاق محمد

(.....) (٢) حتى يحشّر الناس أجمعاً

وبات يماشينا ويجمع رهطه

وما كنت أدري أن يخبّ فيخدعاً

وقال رجل من مراد يعاتب ويلوم قومه على خذلانه وعدم نصرته: (٣)

دعوت كريباً بالمدائن دعوة

وسيرت إذ ضمت علي الأظافر

فيال بني سعدٍ علام تركتما

أخاً لكما يدعو كما وهو صابر

أخاً لكما إن تدعواه يجبكما

ونصركما منه إذا ريع فاتر

وعاتب عبّيد الله بن الحرّ الجعفي عبد الله بن الزبير في أخيه مُصعب بن

(١) التعليقات والنوادر/ النسخة الهندية ورقة ٢١٢ .

(٢) بياض في المخطوطة .

(٣) معجم البلدان رسم (المدائن) ٧٥/٥ .

الزبير — وكيف أنه كان يقدم غيره عليه، ويجفوه، وهو الذي وإلى الأمير،
وأعطاه بيعته ونصرته، فيقابل بذلك الصنيع فقال: (١)

أبلغ أمير المؤمنين رسالته
فلست على رأي قبيحٍ أو اربسه
أفي الحق أن أجفَى ويجعل مصعب
وزيريه من قد كنت فيه أحاربه
فكيف وقد أبليتكم حقَّ بيعتي
وحقِّي يلوى عندكم وأطالبه
وأبليتكم مالا يُضيع مثله
وأسيتكم والأمرُ صعبٌ مراتبه
فلما استدار الملك وانقادت العدا
وأدركت من مال العراق رغائبه
جفى مُصعبٌ عني ولو كان غيره
لأصبح فيما بيننا لا أعاتبه
لقد رابني من مصعبٍ أن مصعباً
أرى كل ذي غش لنا هو صاحبه

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٥٠٧/٣ .

وما أنا إن حلاّتموني بواردٍ
على كدرٍ قد غُصَّ بالماء شاربُهُ
وما لامرئٍ إلا الذي الله سائق
إليه وما قد خطُّ في الزبَرَكاتِهِ
إذا قمتُ عند البابِ، أُدخِلْ مُسَلِّمٌ
ويَمْنَعَنِي أَنْ أُدخَلَ البابَ حاجِبُهُ
وعاتب النجاشي الحارثي شراحيل بن السّمط على مفارقتِهِ لجماعة علي
فقال: (١)

شراحيلُ ما للدينِ فارقتُ أمرنا
ولكنْ لُبُغْضِ المالكِيّ جـريـرٍ
وشحناءِ دبتْ بين سَعْدٍ وبينه
فأصبحتُ كالْحاديِ بغيرِ بعيرِ
وما أنتِ إذ كانتِ بجيلةٍ عاتبتِ
قريشاً فيا لله بعد نصيرِ
أتفصّلُ أمراً غِبتَ عنه بشبهةِ
وقد حار فيه عقلُ كلِّ بصيرِ

(١) مجلة المجمع العلي العراقي مجلد ١٢ ص ١١٢ ، لسنة ١٣٨٥ / ١٩٦٦ م .

وتترك - إن الناس أعطوا عهدهم -

علياً على أنسٍ به وسرورٍ

لعلك إن تشقى الغداة بحربه

شراحيل ما ما جئته بصغير

وقد يكون العتاب واللوم موجهاً للنفس، وهذا عُبة الحارثي يلوم نفسه

على تسليمه جعفرأ وصحبه للسلطان فيقول: (١)

لعمركُ أني يوم أسلمتُ جعفرأ

وأصحابه للموتِ لما أقاتل

لمجتنبِ حبِّ المنايا وإنما

يهيجُ المنايا كلُّ حقٍّ وباطلٍ

فراح بهم قومٌ ولا قومٌ عندهم

مغللة أيديهم في السلاسلِ

وربَّ أخٍ لي غاب لو كان شاهداً

رآه التبايون لي غير خاذلٍ

الشكوى :

ومن الأغراض التي اشتمل عليها شعر مذحج، ولكنه ليس بالكثير شعر

الشكوى ولعل سبب قلة هذا النوع من الشعر، ترجع إلى أن شدة القبيلة

(١) الأغانى (دار الكتب) ١٢/٥٤ .

وقوتها وما تتمتع به من بأس لا يتناسب مع الشكوى التي هي دليل على الضعف والخور وأكثر شعري الشكوى كان من أفراد طال بهم العمر حتى طعنوا في السن وأصبحوا عبئاً على غيرهم فشكوا الكبر، ومن ذلك قول كعب رداة النخعي وكان قد عاش ثلثمائة سنة حتى ملّ الحياة حيث قال: (١)

لقد ملّني الأدنى وأبغض رؤيتي

وأنبأني أن لا يحل كـلامِي

على الراحتين مرّة وعلى العصا

أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي

فياليتني قد سختُ في الأرض قامّة

وليت طعامي كان فيه حِمَامِي

ومع أن الشكوى من الحروب والثارات كانت قليلة في شعر مذحج إلا أن رجلاً من زبيد من بني مازن أنكته وقومه تلك الحروب التي شنها عليهم ابن عمهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي بسبب قتلهم أخاه فحوّلوا دارهم إلى تميم وقال الزبيدي يشكو بعدهم عن أهلهم ودارهم وتفرق شملهم وقتل رؤسائهم، وما أظن شكواه هذه إلا من القطيعة والغربة التي صاروا إليها، وليس من خوض الحروب قال: (٢)

(١) العمرون والوصايا للسجستاني ٩٢ .

(٢) شرح قصيدة الدامغة للهمداني ٦٠٢ تحقيق محمد بن علي الأكواع / مطبعة السنة المحمدية /

مصر .

أبى القلب إلا حبّ أشياعٍ مَدْحِجِ
وما أنا إن أحببتهم بمليهم
وما نحن إلا عصبهً يمنيّةً
زُبَيْدِيّةً والدارُ دارُ تميمِ
وإنهم منّا وإنّا منهم
كما قد سِرّ من سراةِ أديمِ
ولكنّ عمراً فزَقَ الشملَ بيننا
بقتلِ سراةٍ من سراةِ صميمِ

وهناك شكوى من الظلم، فقد شكى رجل زُبَيْدِيٍّ من ظلم حلّ به - وهو بعيد عن قومه - في مكة حيث اشترى منه أحد بني سهم بضاعة له ولم يُوفيه حقه بل مَطَّلَ به فقال الزُبَيْدِيُّ: (١)

يا آل فهرٍ لمظلومٍ بضاعتهُ
ببطنِ مكة نائي الدارِ والنفرِ
ومحرمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمرتهُ
يا آل فهرٍ وبين الحجرِ والحجرِ
أقائمٌ من بني سهمٍ بخفرتهم
فعادلٌ أم ضلالٌ مالٌ معتمرِ

(١) الأغانى (دار الكتب) ١٧/٢٨٩ ، ٢٩٩ .

واشتكى عمرو بن عامر الحارثي من هموم أَلت به في ليل مظلم موحش
مما نفى عنه النوم والراحة حيث قال: (١)

أَرِقْتُ لِلوَعَةِ هَمِّ سَرَى

فَبِتُّ أَرَاعِي النَجْمَ وَالْمَثْوَى

وشكى جعفر بن عُلبَةَ الحارثي من السجن الذي أودع فيه، ومن غلطة
الحرس الذين عليه، ومن ثقل القيود التي كُبل بها فقال: (٢)

وَقَلْ لِأَبِي عَوْنٍ إِذَا مَا لَقَيْتَهُ

وَمَنْ دُونِهِ عَرْضُ الْغَلَاةِ يَحْوُلُ

تَعْلَمُ وَعَدَّ الشُّكَّ إِنِّي يَشْفَنِي

ثَلَاثَةٌ أَحْرَاسٍ مَعَاً وَكَبُولُ

إِذَا رُمْتُ مَشِيئاً أَوْ تَبَوَّأْتُ مَضْجَعاً

يَبِيتُ لَهَا فَوْقَ الْكِعَابِ صَلِيلُ

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٢٢ (كرنكو).

(٢) الأغاني (دار الكتب) ٥١/١٣ ، ٥٢ .

الفصل الثاني

خصائص شعر مذحج الفنية

(أ) معاني شعر مذحج :

على الرغم من أن ماوصلنا من شعر مذحج للعصر الجاهلي هو قدر لا بأس به، إلا أنه لا يتناسب من حيث الكثرة مع عظم قبيلة مذحج، وتعدد بطونها وفروعها، وكثرة شعرائها، حتى نستطيع من خلال ما اجتمع لنا أن نستحضر في أذهاننا كل تلك المعاني التي طرقتها شعراء مذحج، فالقصائد الطوال لا تكثر في شعر مذحج الجاهلي، بل جله مقطعات وأبيات، يظهر أنها تنأثرت من قصائد ضاعت ولم تصلنا، وعلى ذلك فلا نستطيع أن نقول: أن ماوصلنا من شعر هذه القبيلة للعصر الجاهلي يوضح كل المعاني التي وقع عليها شعراء مذحج في ذلك العصر، وإنما هو يمثل جزءاً من تلك المعاني التي كنا نود أن نظفر بها، وأن تلك المعاني التي دلت عليها تلك الأشعار يكاد يدور معظمها على ما اشتهرت به هذه القبيلة من قوة، ومنعة، ومكانة عالية، وسؤدد مؤثّل، ولم تكف معاني تلك الأشعار لتوضيح ما كنا نتطلع إلى معرفته عن تلك القبيلة من أوصاف البيئة الشاسعة التي كانت تسكنها قبائل مذحج، والتي يطول امتدادها من أسافل عالية نجد الجنوبية شمالاً

إلى سيف بحر عدن جنوباً ومن سواحل البحر الأحمر غرباً إلى أدغال مفازة صيهد شرقاً. كذلك لم توضح لنا تلك الأشعار أحوال تلك البلاد التي تقطنها مذحج وتشارك فيها أهلها في جنوب الجزيرة، والتي كانت تعيش عيشة فيها نوع لا يخفى من الرقي والحضارة والتقدم في شئونها الزراعية، والاقتصادية والعمرانية والثقافية، ولم يصلنا من أشعار مذحج ما يشرح لنا شرحاً دقيقاً حالتهم الدينية غير الوثنية التي كانت سائدة في تلك البلاد، وكان يعتنقها كثير من شعوب اليمن التي تخالط قبيلة مذحج، حتى تلك الديانة اليهودية والنصرانية التي كانت سائدة في نجران ويعتنقها بعض مذحج، لم تشرحها أشعار مذحج التي وصلتنا، وإنما دلنا عليها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وشيء من شعر الأعشى وإن كنا نجد تلميحاً عنها في بيتٍ لعمر بن معد يكرب الزبيدي الذي يقول فيه: (١)

عَمَرْتُ مَجَالَ الْخَيْلِ بِالْبَيْضِ وَالْقَنَاءِ

كَمَا عَمَرْتُ شُمَّطُ الْيَهُودِ الْكِنَائِسَا

لكن لا يكفي لتوضيح المعرفة التي ننشدها.

إذا فكثير من أحوال هذه القبيلة الجغرافية، والثقافية، والدينية، والاقتصادية، والحضارية، والعقلية، لم توضحها تلك المعاني التي دل عليها ما استطعنا الوصول إليه من شعر مذحج الجاهلي. وهنا نسأل فنقول: هل ضاع ذلك الجزء من الشعر الذي يوضح لنا كل ذلك أم أن قرائح شعراء مذحج لم تُجد بهذه المعاني التي نتعطش إلى معرفتها؟ ونحن إلى الرأي الأول أقرب منه للثاني.

(١) شعر عمر بن معد يكرب ص ١٢٧ .

إذن فجل ماوصلنا من شعر مذحج في العصر الجاهلي توضح معاينة شؤون القبيلة الخارجية أكثر منه توضيحاً لشؤونها الداخلية، وهذه سمة من سمات الشعر العربي الجاهلي، لم ينفصل عنها شعراء مذحج. وقد علل أحمد الشايب هذه الخاصية المعنوية بقوله: ولما كان كيان القبيلة قائماً على حمايتها وصلاتها بالقبائل الأخرى، فشعرها الخارجي يكون أكثر من الداخلي، إذ الحياة الداخلية لم تحتج إلى تسجيل وإشادة فهي أمر طبيعي ومقرر، وأما الخارجية فهي مجال الصخب والتنافس وفي حاجة إلى الإشادة والوعيد^(١).

ولو نظرنا إلى ماوصل إلينا من شعر مذحج الذي قالته في عصرها الجاهلي - وهو قدر لا بأس به، وإن كنا نطمع إلى أكثر من ذلك، لعظم هذه القبيلة - لوجدناه بصفة عامة لا يخرج عن تلك المعاني التقليدية التي كان يدور حولها سائر شعر العرب في جاهليتهم، فهي تتناول هموم ذلك الفرد وتلك الجماعة، التي تعيش عيشة خاصة في ذلك العصر، وهي تعبر عن عقلية تلك الأمة الأمية، ومدى فهمها للبعد الزمني والجغرافي اللذين كانت تعيشهما وتتحرك في محيطهما، فهي معانٍ نابعة من روح الزمن الذي استغرق حياتهم ومن طبيعة البيئة التي كانوا ملتصقين بها التصاق الطفل بأمه، فإن تحدثوا عن مدركاتهم العقلية، كان منتهى ذلك ما تنطوي عليه تلك العقلية البكر الساذجة والتي لم تتشقق عن أسرار الكون، ولم تستنبط كنه الحياة، ولم تسبر أغوار الأمور، وتغوص في قاع محيطات النفس البشرية،

(١) تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني / أحمد الشايب ص ٩١ دار القلم بيروت /

وإن تحدثوا عن مدركاتهم الحسيّة كان منتهاهم وصف ما تطوّه أقدامهم، وتراه أعينهم من طبيعة بيئتهم تلك التي عايشوها في محيط جزيرتهم التي لم يجاوزها إلى غيرها، فجاءت معانيهم معبرة عن رموز تلك الطبيعة تتسع باتساع تلك الصحراء وتعلو علوً تلك الجبال، وتهبط هبوط وديانها وسهولها، وتقف عند حدود ما يحيط بهم من مياه البحر، وإذا تجاوزت علو الجبال عَنَتَ للسماء، وكان منتهاها وصف ماتراه فيها شاخصاً من شمس وقمر ونجوم وسحاب وبرق دون السؤال عن كنه ذلك الفلك، أو محاولة استكشاف ما وراءه من مجهول.

ولو أردنا أن نرصد المعاني التي اشتمل عليها شعر مذحج الجاهلي - أو بالأخص ما وصلنا منه وجدناه يدور حول تلك العلاقة التي كانت قائمة بين قبائل مذحج فيما بينها، أو بين قبائل مذحج ومن يجاورها من القبائل العربية والقيسية منها بخاصة، وكانت هذه المعاني تدور حول تلك الحروب التي تقوم بينهم، فاشتملت على شرح ما يقع فيها، وماتستلزمه من الأشعار التي تثير معانيها روح الحماس، والنزال والمنافرة، والمفاخرة، والمنافسة، والعصبية القبلية، وما يترتب على كل ذلك من توضيح لحالة الحرب، والمعاني المتعلقة بالسلاح وأنواعها وصفاتها، وذكر للخيل وقوتها وسرعتها وما يترتب على تلك الحروب من سلب ونهب وسبي وثأر، وكانت قبيلة مذحج قبيلة محاربة من الطراز الأول، وكانت تتخذ من قضية الثأر والنساء والأرض والمال دوافع لبث المعاني الحماسية التي تدفع المحارب للتضحية والاستبسال بالنفس، وتصوغ كل ذلك في معان قوية، جزلة، نائرة، تغلي وتضطرب، اضطراب وغليان تلك الحروب، وتثور ثورة الدماء التي تشخب في ساحات القتال.

قال الأفوه يذكر تلك الحروب: (١)

وبروضة السّلان منا مشهدٌ

والخيلُ شاحبةٌ وقد عَظُمَ الثُّبَى

تحمي الجماجمَ والأكفَ سيوفُنا

ورماحُنا بالطعنِ تنتظمُ الكُلَى

في موقوفٍ ذرب الشُّبَا وكأنما

فيه الرجال على الأطائمِ واللّظى

وكانما أسلّاتهم مهنوءةٌ

بالمُهَل من ندبِ الكومِ إذا جرى

عافوا الإتاوة واستقت أسلافهم

حتى ارتووا عللاً بأذنية الرّدى

ومن المعاني التي توضح علاقة مذبح مع القبائل العربية وسيرتها

الحربية قول عمرو بن معد يكرب: (٢)

أولئك معشري وهم جبالِي

وحزني في كـريهتهم وحـدى

(١) الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني ص ٦.

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٩٧ - ١٠١.

هم قتلوا عزيزاً يوم حج
 وعلقمة بن سعد يوم نجد
 وهم ساروا مع المأمور شهراً
 إلى تغشار سيراً غير قصد
 وهم قسموا النساء بذى أراطى
 وهم عركوا الذنائب عرك جلد
 وهم وردوا المياه على تميم
 بألف مئذجج شمط ومرد
 وإخوتهم ربيعة قد حوينا
 فصاروا في النهاب بغير حمد
 وهم تركوا بكندة موضحات
 وما كانوا هناك لنا بضد
 وهم زاروا بني أسد بجيش
 مع العباب جيش غير وغد
 وهم تركوا هوازن إذ لقوهم
 وأسلمهم رئيسهم بجهد

وهم تركوا ابن كيشة مسلحاً

وهم شغلوه عن شرب المقدى

وختعم لثموا حتى أقرؤا

بخزج في مواشيهم ورفد

وهم خشوا مع الديان حتى

تفتت كل غصروط وعبد

وهم أخذوا بذي المروت ألفاً

يقسّم للحصين ولابن هندي

وهم قتلوا بذات الجارقيساً

وأشعث سلسوا في غير عقدي

وهم قتلوا بذي قلع ثقيفاً

فما عقّلوا وما فاؤوا بزند

وهم سحّبوا على الدهنا جيوشاً

يعيدهم شراحيلاً ويبيدي

وهم تركوا القبائل من معدّ

ضباباً مُحجّرين بكلّ حقد

ومن الشعر الذي وضع معانيه تلك الحروب وما فيها من سلاح
يستخدم ووصف للخيل التي هي أداة تلك الحروب قول عبد المدان يذكر
غارة لهم على هوازن: (١)

فياربَّ خيلٍ قد هديت بشطبةٍ
يعارضها عبَلُ الجزارةِ هيكلُ
سبوحٍ إذا جالَ الحزامُ كأنه
إذا انجاب عنه النقعُ في الخيلِ أجْدَلُ
يواعلُ جُرْدًا كالقنا حارثيةً
عليها قنَانٌ وإِحْمَاسٌ وزَعْبَلُ
معاقلهم في كل يوم كـريهةٍ
صدورُ العوالي والصفيحُ المصقلُ
وزعفٌ من الماذي بيضٌ كأنها
نهاءٌ مَرَّتْهَا بالعشياتِ شمألُ
فما ذرَّ قرنُ الشمسِ حتى تلاحقتُ
فوارسُ يهدِيها عُمَيْرٌ ومَعْقِلُ
فجالتُ على الحيِّ الكلابي جولةً
فباكرها ورْدٌ من الموتِ مُعْجِلُ

(١) الاغاني ٢٠/١٢ «مصور عن دار الكتب المصرية».

فَعَادَرْنَ وَبِرّاً تَحْبُلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ
وَنَجَى طَفَيْلاً فِي الْعَجَاجَةِ قُرْزُلُ
فَلَمْ يَنْجِ إِلَّا فَارِسٌ مِنْ رَجَالِهِمْ
يَخْفِفُ رِكْضاً خَشِيَةً الْمَوْتِ أَعَزْلُ

وكثرة الحروب هذه يكثر بعدها وقبلها الشعر الذي تدعو معانيه للأخذ
بالتأثر من ذلك قول ابن عم سويد المرائد الحارثي: (١)

لَقَدْ سُرُّ حَتَّى اسْتَحَمَقْتُ أَلْ مَالِكِ
بِقَتْلِ سُوَيْدٍ غَثُّهَا وَسَمِينُهَا
سَتَعْلَمُ إِنْ طَالَ الْمَدَى أَلْ مَالِكِ
أَبَا لِرُشْدِ أُمِّ بِالْغِيِّ قَرَّتْ عَيُونُهَا
فَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ وَإِنْ طَالَ تَرْكُكُمْ
كَحَامِلَةٍ يَزْدَادُ ثِقَلًا جَنِينُهَا

وقال سُوَيْدُ الْمَرَاثِدِ الْحَارِثِيِّ فِي طَلْبِهِ لِلتَّأْتِرِ: (٢)

بَنِي عَمَّنَا زِدُوا قُضُولَ دِمَائِنَا
يَنْمُ لِيُكْمِ أَوْلَا تَلْمَنَا اللُّوَاءِ

(١) الوحشيات لأبي تمام رقم (١٠٥) ص ٧٤ / تعليق عبد العزيز الميمني ومحمد محمود شاكر /

طبع دار المعارف القاهرة / سنة ١٩٦٣م

(٢) الوحشيات لأبي تمام رقم (١٠٤) ص ٧٢.

وإنّاء وإياكم وإن طال تركُّكم

كذي الدّين ينأى ما نأى وهو غارمٌ

ولكثرة الحروبِ وُجد الرثاء في معاني شعر مذحج لكنه كان رثاءً تقليدياً
تخلو معانيه من التأمل في الحياة، والموت، وفي هذا الكون: في مبدئه
ومصيره وما يخفى وراءه من أسرار، بل كانت معانيه عادية، تنتهي عند
تلك الحُرقة، واللوعة التي يعبر عنها الشاعر إذا فقد إلفه، وتقف كذلك عن
تعداد محاسن الميت من شجاعة وكرم وسماحة وندى، وهذه سمة تكاد
تغلب على معاني الرثاء عند العرب في الجاهلية، من ذلك قول سُوَيْدِ الْمُرَائِدِ
الحارثي يرثي أخاه: (١)

لَعَمْرِي لَقَدْ نَادَى بِأَرْفَعِ صَوْتِهِ

نَعِي حَيِّيْ إِنْ صَاحِبَكُمْ هُوَ

أَجَلٌ صَادِقاً وَالْقَائِلُ الْفَاعِلُ الَّذِي

إِذَا قَالَ قَوْلًا أَنْبَطَ الْمَاءَ فِي الثَّرَى

فَتَى قَبْلَ لَمْ تَغْنِسِ السُّنُّ وَجْهَهُ

سَوَى خَلْسَةٍ فِي الرَّأْسِ كَالْبَرْقِ فِي الدُّجَى

أَثَارَتْ لَهُ الْحَرْبُ الْعَوَانُ فَجَاءَهَا

يَقْعَقُعُ بِالْأَقْرَبِ أَوَّلَ مَنْ أَتَى

(١) الحماسة لأبي تمام رقم (٢٧٧) ج ١ ص ٤٠٤ تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان طبع/ دار
الهلل للأوفست/ الرياض/ أشرفت على طبعه ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد
بن سعود ١٤٠١هـ / ١٩٨١م الرياض.

ولم يجنّها لكن جناها وليه

فأسى وأداه فكان كمن جنى

وتكثر معاني الفخر في شعر مذحج، وكان ذلك الفخر إما بالأنساب أو بالشجاعة أو بالكرم أو بفكّ العاني والأسير أو بعمل المعروف والحفاظ على العهد والوفاء به، والفخر هذا إما فرديّ يفخر فيه الشاعر بنفسه نحو قول يزيد بن مخرّم الحارثي يفخر بشجاعته وبعمله الخير والمعروف وفكه الأسير، وإعطائه الفقراء: (١)

ألم تعلموا علماً يقيناً بأنني

أخذ ثقة يشفى به من يحاربه

وقد أبت الأيأم في بقيّة

كخير حُسامٍ لم تخنه مضاربه

وكم من كميّ قد تركتُ مجدلاً

تنوحُ وتبكي معولاتٍ قرائبه

وكم من أسيرٍ قد فككتُ وعائل

جبرتُ وقد أعيتُ عليه مذهبه

ومن الفخر بالجماعة حيث يفخر الشاعر فيه بقبيلته وعشيرته نحو قول

الأفوه: (٢)

أيها الساعى على آثارنا

نحن من لست بسعاء معه

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٩٤ (كرنكو).

(٢) الطرائف الأدبية، ص ٢٠.

نحن أودّ حين تصطك القننا

والعوالي للعوالي مُشْرَعَةٌ

يوم تبدى البيض من لمع البرى

ولأهل الدار فيها صعصعة

ثم فينا للقرى نارٌ يرى

عندها للضيف رَحْبٌ وسِعة

ومعاني الحرب، والحماس، وذكر السلاح، ونتائج ومقدمات، تلك الحروب والفخر الفردي، والجماعي هي أكثر المعاني سيطرة على شعر مذبح الجاهلي^(١) ومن الشعر الدال على معاني الإباء وعدم قبول الضيم قول عمرو بن قعاس المرادي:^(٢)

أمشي في سراة بنسي غطيْفُ

إذا ما سامني شيءٌ أبيتُ

والوفاء بالعهد من المعاني التي تضمنها شعر مذبح وافتخروا بها من ذلك قول يزيد بن مخرم الحارثي يذكر محافظته على الحلف والعهد الذي بينه وبين صُداء، وقد طُلب منه الغدر بهم:^(٣)

(١) انظر شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي من ص ٩٢ - ١٠٢.

(٢) كتاب الاختياريين للأخفش الأصغر رقم (٢٦) ص ٢٢١.

(٣) شرح أبيات سيبويه للسّيرا في ٦/٢.

وقالوا : تعال يايزي بن مخرم

فقلت لهم : اني حليف صـدء

ومن معاني شعرهم الجاهلي الاعتراف بالفضل لأهله وإنصافه ولو كان خصماً، وقد اشتهر بعض شعراء مذحج بالأنصافات من القصائد، ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي في حروبه مع العباس بن مرداس وذلك كقوله: (١)

لقيتُ أبا شأسي وشاساً ومالكاً

وقيساً فجاشت من لقاءهم نفسي

لقونا فضموا جانبيناً بصادق

من الطعن مثل النار في الحطبِ اليبسِ

كأن جلود النمر جيبت عليهم

إذا جعجعوا بين الإناخة والحبسِ

ولما دخلنا تحت فيء رماحهم

خبطت بكفي أطلب الأرض باللمسِ

فأبست سليما لم تمزق عمامتي

ولكنهم بالطعن قد خرّقوا ترسِ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب / ص ١٢٨

وليس يعابُ المرءُ من جبنِ يومِهِ

إذا عُرِفَتْ منه الشجاعةُ بالأمسِ

وكانت معاني الهجاء في شعر مذحج فيها شيءٌ من العِفَّة، فهو لا يعدو أن يكون تشهيراً بالفرار من المعركة، وَوَسْماً بالجبن والخوف من النزال، والطَّعن في النَّسب، من ذلك قول الأفوه الأودي: (١)

وَوَلَّوْا هَارِبِينَ بِكُلِّ فَجٍّ

كَأَنَّ خُصَامَهُمْ قَطَعُ الْوِدَابِ

وقد خرج الأسعر الجعفي بهجائه إلى تَفْحُشٍ غير معهود في شعر مذحج كهجاء إخوانه بقوله: (٢)

بَاعُوا جِوَادَهُمْ لِتَسْمَنَ أُمَّهُمْ

وَلَكِي يَبْتَ عَلَى فَرَاشِهِمْ فَتَى

عَلَجَ إِذَا مَا بَزَّ عَنْهَا ثُوبَهَا

وَتَخَامَصَتْ قَالَتْ لَهُ : مَاذَا تَرَى ؟

ومثل الأسعر خرج عمرو بن معد يكرب في قوله يهجوا «أَعْلًا وَأَنْعَمَ» (٣)

(١) الطرائف الأدبية ص ٧ .

(٢) الاصمعيات لعبد الملك بن قريب الاصمعي ص ٤٠ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون / طبع دار المعارف / مصر طبعة رابعة .

(٣) شعر عمرو بن يكرب الزبيدي / ص ١١٢ .

وكنتم أعْبُ—دُأ أولادَ غَيْلٍ

بني أمِّ قَرَنَ على السِّفَادِ

وهذا الفحش خالف السمة العامة لهجاء شعراء مذبح الذي امتاز
بالعِفَّة.

أما غزلهم في الجاهلية فكانت معانيه عفيفة مقصورة على التشبيب
والنسيب البعيد عن التهتك والتخلع، ويقل فيه وصف مفاتن المرأة، ذلك
الوصف الفاحش الذي عهدناه عند امرئ القيس وغيره من شعراء العرب،
وكثيراً ما كان ذكر المرأة والتغزل بها مقروناً بشعر الحروب، وأراجيز النزال
في المعارك فكان عفيفاً صادقاً، وكانوا يستلهمون من معانيه التي تصف
حواء روح الحماس والقداء عند خوضهم لتلك الحروب، وتتجلى تلك المعاني
في قول عبد المدان الحارثي: (١)

عفا من سُلَيْمَى بطنُ غولٍ فيذبُلُ

فغمرةٌ فيفِ الرِّيحِ فالمتنخلُ

ديارُ التي صاد الفؤادَ دلالتها

وأغررت بها يوم النوى حين ترحلُ

(١) الاغانى لأبي الفرج الاصفهاني ١٢/٢٠ مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية تصوير دار
إحياء التراث العربي/ بيروت/ ومؤسسة جمال للطباعة والنشر، وللمزيد من معاني الغزل هذا
انظر منتهى الطلب ج ٥ ورقة ١٢٧ ب ، وشعر عمرو بن معد يكرب ٨١ — ١٨٢ جمع مطاع
الطرابيشي.

فإن تك صدت عن هواي وراعها

نوازل أحداثٍ وشيبٍ مجلّل

فيارُبّ خيلٍ قد هديت بشطبة

يعارضُها عبُلُ الجزارةِ هيكلُ

ويقول المدح في شعر مذحج الذي بين أيدينا وأكثر مانجد من مدح إنما هو مدح لأنفسهم أو لمن هم يروونه جديراً بمدحهم، كمدح يزيد بن عبد المدان للنعمان بن المنذر بحضرة الحارث بن جبلة الغساني عندما غمطه القيسيون حقه عند الحارث حيث قال يزيد: (١)

تمالا على النعمان قومٌ إليهمُ

مـواردُه في ملكِه ومصـادرُه

على غيرِ ذنبٍ كان منه إليهمُ

سوى أنه جادت عليهم مواطرُه

فباعدهم من كلِّ شرٍ يخافُه

وقرّ بهم من كلِّ خيرٍ يبيادرُه

فظنوا وأعرض الظنون كثيرةُ

بأن الذي قالوا من الأمر ضائرُه

(١) الاغاني ١٤/١٢ (مصورة عن طبعة دار الكتب).

فلم يُنْقِصوه بالذي قيلَ شعرةً
ولا قُلَّتْ أنيابُه وأظافرُه
فيا حارِكم فيهم لنعمان نعمة
من الفضل والمنّ الذي أنا ذاكره
ذنوباً عفى عنها ومالاً أفادة
وعظماً كسيراً قومته جوابرُه

ووضحت لنا معاني شعر مذحج جانباً من علاقة قبائل مذحج وجاراتها
من القبائل العربية بالدول والممالك المحيطة ببلادهم، كالمناذرة والغساسنة،
وملوك اليمن، فقد كانوا يفدون على هؤلاء الملوك، وكان بعض هؤلاء الملوك
يَهْبُون الهبّات ويعطون العطايا لوجوه هذه القبائل، وكان بعض هؤلاء
الملوك يسوم بعض العرب خسفاً، فيأخذ عليهم الإتاوات قال يزيد بن عبد
المدان: (١)

يا للرجالِ لطارقِ الأحزانِ
ولعامرِ بنِ طفيلِ الوُشْنانِ
كانت إتارةُ قومه لحرقِ
زمناً وصارت بعدُ للنعمانِ

(١) الاغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١١/١٢.

ووقعت حرب بين مذحج وعمرو بن هند، أسر فيها عبد الله بن سويد
الصُّدائي فقال يستعطف عمرو بن هند: (١)

إِنَّ الْأَرَاقِمَ لَنْ تَنْفِكَ صَالِحَةً

مُبْرَثِينَ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَاللُّؤْمِ

مَا دافع الله عن عمرو مِنْتَه

فَاختر لنفسك بين المُنِّ وَاللُّؤْمِ

وكانت معاني شعر مذحج مرتبطة بالبيئة التي عاشوا، فيها، فوضحت
أشعارهم جانباً من طبيعة بلادهم، الجامدة الساكنة والحيوانية المتحركة من
ذلك قول الأفوه الأودي: (٢)

لَهُ هَيْدَبٌ دَانٍ وَرَعْدٌ وَدَلَجَةٌ

وَبَرْقٌ تَرَاهُ سَاطِعاً يَتَبَلَّجُ

فَبَاتت كِلَابُ الْحَيِّ يَنْبَحْنَ مَزْنَهُ

وَأَضْحَتْ بِنَاتُ الْمَاءِ فِيهِ تَعَجُّجُ

وقال عمرو بن معد يكرب: (٣)

فَكَمْ مِنْ غَاطِطٍ مِنْ دُونِ سَلْمَى

قَلِيلِ الْأَنْسِ لَيْسَ بِنِ كَتِيْعُ

(١) الأنوار ومحاسن الأشعار ص ٨٠ .

(٢) الطرائف الأدبية ص ٩ .

(٣) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٤٦ .

من السرحان مفترشاً يديه
 كأن بياض لبتة الصديع
 وأرض قد قطعت بها الهواهي
 من الجنان سربخها مليع
 ترى جيف المطي بحافتيه
 كأن عظامها الرخم الوقوع
 وناب ما يعيش له حوار
 شديد الطعن مثقال جزوع
 سديس نضخته بعد حمل
 تحري في الحنين وتستأجح
 بأوجع لوعة مني ووجدأ
 غداة تحمل الأنس الجميع

والأعجب من ذلك، هذا المعنى الدقيق والعميق الذي جمع شدته من تلك
 الصور المتعددة، وشبهه به لوعته ووجده، وهذا المعنى كما نشاهد مُستقى
 من البيئة، وجمع أطرافه مما يحيط به من مظاهر تلك الحياة. وكثرة
 المعمّرين في قبائل مذحج انتشرت في أشعارهم الجاهلية معاني السأم
 والتضجر والشكوى من طول العمر وملالته، وتوافر شعر مذحج في

الجاهلية على معاني التهديد والوعيد وذلك لكثرة حروبهم، والاعتذار، والحكمة والتجارب والوصايا واللوم والعتاب والشكوى من حوادث الزمن ولوعة الفراق، مما يطول المقام بالتمثيل لكل ذلك، وقد سبق أن ذكرنا أمثلة لهذه المعاني عند حديثنا عن أغراض شعر مذحج.

أما معاني شعر مذحج في العصر الإسلامي، فلن نكون مغالين في القول إذا قلنا إن الإسلام أحدث تغييراً عظيماً في معاني شعر مذحج وأظهر تغييراً واضحاً فيها وأبرز خصائص جديدة، ولكن هذا التغيير كان في بدايته بطيئاً بعيد اللمس ضحل التناول لتلك المعاني العظيمة التي جاء بها الإسلام ولم تستقر بعد في قلوب الشعراء ولم تختلط بدمائهم اختلاط المعاني الجاهلية التي نتبوا عليها، فالتغيير كان معدوماً في معاني شعر مذحج التي قيلت أثناء الفترة الممتدة من ظهور الإسلام في مكة وانتقاله إلى المدينة إلى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، فلم يكن شعراء مذحج في ديارهم يحسّون بتلك الدعوة الجديدة التي شع نورها في مكة والمدينة، وأخذت تناضل من أجل تغير الحياة الجاهلية، ولم تتجاوزهما إلى سائر القبائل العربية. والجنوبية منها بخاصة، فما قاله شعراء مذحج في هذه الفترة يعد امتداداً من حيث معانيه - لمعاني الشعر الجاهلي، يأخذ سماته وخصائصه التي سبق أن وضحناها، ومن هذا الشعر ما قاله شعراء مذحج يوم الكلاب الثاني، ويوم قيّف الرياح، ويوم الرّزم كقصائد عبد يغوث الحارثي^(١) ومسهر الحارثي^(٢)

(١) الفضليات رقم (٣) ص ١٥٥، للمفضّل الضبّي تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون/ دار المعارف/ مصر/ السابعة.

(٢) العقد الفريد ٧٦/٦ لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان/ طبع دار الفكر.

وفروة بن مسيك المرادي^(١) وعند دخول قبائل مذحج في الإسلام في السنة الثامنة للهجرة، كان شعرهم على العموم ذا صبغة جاهلية لا تحس فيه بشيء من روح الإسلام إلا تلك الرائحة التي تدل على أن صاحبه متجه إلى الرسول ﷺ لكي يسلم ويدخل في هذا الدين الجديد الذي سمع به، ولم يعرف كنهه من ذلك قول عمرو بن سبيع الرهاوي عند وفادته على رسول الله ﷺ ليسلم.^(٢)

إليك رسول الله أعملت نصها
تجوب الفيافي سملقاً بعد سملق
على ذات ألواح أكلفها السرى
تخبُّ برجلي مرة ثم تعنق
فمالك عندي راحة أو تلججي
ببواب النبي الهاشمي الموفق
عُتقت إذن من رحلة ثم رحلة
وقطع دياميم وهم مؤرق

وفروة بن مسيك المرادي يذكر أن زهابه للرسول ﷺ وإسلامه، إنما كان

(١) السيرة النبوية ٥٨٢/٢. لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وآخرون / طبعة ثانية / بدون مكان أو تاريخ.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤٥/١، طبع دار صادر / بيروت.

لإعراض ملوك كندة عنه ولطلب الغنى والثراء من الرسول ﷺ حيث يقول: (١)

لما رأيتُ ملوكَ كِنْدَةَ أَعْرَضَتْ

كَالرَّجْلِ خَانَ الرَّجْلِ عَرَقَ نَسَائِهَا

يَمَّمْتُ رَاحِلَتِي أُوْمَ مُحَمَّدًا

أَرْجُو فَوَاضِلَهَا وَحَسَنَ ثَرَائِهَا

فما سبق يدل على بداية أنفُسٍ تتحول لا أنفُسٍ مطمئنة بالإسلام.

وأكثر الشعر الذي جاءنا بعد ذلك حتى مقتل عثمان رضي الله عنه كان لشعراء مقلّين مغمورين، ولم يكن قصائد بل كان مقطّعات تحتوي على أشعار ذات معانٍ، تختلف باختلاف مقدار اتصالهم بالإسلام وتأثرهم به وخضوعهم لحوادثه الجديدة وروحه القويم^(٢). وكان صدى لأحداث تلك الفترة فسجّلوا في معانيه لحظات استفاقتهم من الشرك ودخولهم في الإسلام، وفودهم على الرسول ﷺ مؤمنين منقادين راغبين في تعلّم شرائع الإسلام وتعاليمه، وما سبق ذلك من صراع تمخّض عنه غلبة إرادة الإيمان على الشرك، سجلوا في مقطعاتهم كذلك استعدادهم لنصرة هذا الدين الجديد كما هو في شعر ذباب الجعفي الذي وضع فيه لحظات استفاقته من غيبوبة الشرك وانطلاقه إلى إشراقه الإسلام ونوره الساطع، وصراعه الذي تمخّض عن تحطيمه لرمز الشرك (فراض) وإقامته عمود الإسلام وتقانيه في

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٩٨/٢.

(٢) تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني / أحمد الشايب ص ١١٧، دار القلم/ بيروت.

نصرته، بكل قوته وقدرته، وقلب حياته من الضلالة إلى الهداية حيث
يقول: (١)

تبعْتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى
وخلَّفتُ فراضاً بدارِ هوان
شددتُ عليه شدةً فتركتُهُ
كان لم يكن والدَهْرُ ذو حدثان
فأصبحتُ للإسلام ما عشتُ ناصراً
والقيتُ فيها كلكلي وجراني
فمن مبلغُ سعدَ العشيرة أنني
شريتُ الذي يبقى بآخرِ فاني

وقد ذكروا في هذه الفترة في مقطعاتهم أحداث الردة، التي ظهر منها في
اليمن بخاصة، فقد صورتها تلك المقطعات لنا ذاكرة أحداثها ورموزها،
وموقف عمرو بن معد يكرب مع من ارتد من قبائل مذحج ضد نشاط
فروة بن مسيك المرادي الذي كان عاملاً لرسول الله ﷺ على مذحج حيث
قال فيه: (٢)

وجدنأ ملكَ فروةَ شرَّ ملكِ
حمارٍ سافٍ منخره بقذرٍ

(١) طبقات ابن سعد ١/٣٤٢.

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٢٣.

وإنك لـو رأيتَ أبَا عميرِ

ملأتَ يديكَ من غدرِ وخثرِ

ونجد فروة الذي تأثر بمعاني الإسلام الجديدة عندما يرد على عمرو بن معد يكرب فإنه يرميه ببغض الله له وبالأخبث والغدر بالإسلام المتمثل في رَدِّته حيث يقول: (١)

أتاني عن أبي ثورٍ كلامٌ

وقدماً كان في الأبطالِ يجري

وكان الله يبغضُهُ قديماً

على ما كان من خُبثِ وغدرِ

أما عبد الحارث بن أنس فقد اطمأن قلبه بالإيمان فتمسك بالإسلام عندما هم قومه بالردة، حيث قام فيهم خطيباً يحثهم على التمسك بدينهم الجديد الحق والبقاء عليه فأجابوه ثم قال: (٢)

نحن بحمده الله هامةٌ مَدَّجِج

بنو الحارث الخيرِ الذين هم مَدَرُ

ونحن على دينِ النبي نرى الذي

نهانا حراماً منه والأمرُ ما أمر

(١) تاريخ الامم والملوك للطبري ١٢/٢٩٨.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم (٥٠٦٧) ج ٢ ص ٢٨٠.

وأخذت المعاني الإسلامية تترعرع في قلوب المؤمنين من شعراء مذبح
وتزداد يوماً بعد يوم، فأصبح فخرهم بدخولهم الإسلام، وحبهم لله
ورسوله، والإشادة بفرائض الدين الجديد والقيام بتلك الفرائض والشرائع،
فهذا جُهَيْش ابن أويس النخعي يثرف شعره بمدح رسول الله ﷺ ويورد
في شعره بعض المعاني الجديدة التي جاء بها الإسلام، وأخذوا يستوعبون
تدريجياً قاموس المعاني الإسلامية، كالتصديق والهدى والشرع والحنيفية
والطأغوت، حيث يقول جُهَيْش: (١)

ألا يا رسولَ الله أنت مصدِّق

فَبُورِكَتْ مَهْدِيًّا وَبُورِكَتْ هَادِيًّا

شَرَعْتَ لَنَا دِينَ الْحَنِيفَةَ بَعْدَمَا

عَبَدْنَا كَأَمْثَالِ الْحَمِيرِ الطَّوَاغِيَا

وتتجلى تلك المعاني الإسلامية الجديدة كذلك في قول ظَبْيَانَ بن كَدَادَةَ

المرادي: (٢)

أشهدُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْصِّفَا

شَهَادَةً مِنْ إِحْسَانِهِ يُنْقَبَلُ

بَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ عَلَيْنَا مَبَارَكٌ

وَفِي أَمِينٍ صَادِقُ الْقَوْلِ مَرْسَلٌ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٢٥٦/١ .

(٢) صفة جزيرة العرب ص ٢٧٧ . للهمداني .

أَتَيْتَ بِنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِمِثْلِهِ

ولا عيب في القولِ الذي يُتَنَخَّلُ

عليك قَبُولٌ من إلهي وخالقي

وسيماءُ حقُّ سعيها مُتَقَبَّلُ

حلفتُ يميناً بالمحجِّبِ بيتهُ

يمينِ امرئٍ بالقولِ لا يُتَنَحَّلُ

بأنك قسطاس البريةِ كُلِّها

وميزانُ عدلٍ ما أقام المُشَلَّلُ

ونحن نلاحظ في هذه الفترة بداية تحول أغراض الشعر ومعانيه، وظهور بعض التغيرات وإن كانت طفيفة، إلا أنها تسير بِخُطَى متقدمة نحو التَّحَوُّل والتَّغْيِير، فأصبحت سمة الفخر وخصائصه كما رأينا ليس المباهاة والمنافسة في الحسب والنسب والشجاعة المتهورة، بقدر ما كانت بشرف الإسلام والتفاني في نصرته والقيام بعباداته ولم تَعُدْ خصائص الهجاء هي تلك التي عهدناها في الجاهلية من رَمِي بالنقائص والمعاييب إلى ما هو رَمِيَّ بالبعد عن الإسلام والبقاء على الشرك وعبادة الأصنام والنفاق والكفر، أما الرثاء فتحوَّل من المبالغة في الحزن والخروج عن الواجب فيه إلى ذكر محاسن الميت الدينية وذكر مآثره التي كانت له اتجاه نصره الإسلام وأعماله الخيرة وبعده عن الشر، والدعاء له في آخرته والإيمان بالقضاء والقدر، وانظر إلى هذا الرثاء الذي قاله عمرو بن الفحيل الزُّبَيْدِي - وهو

مؤمن مهاجر - وما فيه من ازدياد يقينه بالإسلام حتى إن الحياة لتهون عليه، بعد فراق الرسول ﷺ ويتمنى اللحاق به في الرفيق الأعلى، وهذا يدلنا على أن الإسلام أخذ يتغلغل في نفوس هؤلاء المؤمنين الجدد وقد كان تعبيرهم عن ذلك بقدر ما وَقَّر في قلوبهم من إيمان فظهرَ ذلك كتطور نحو المثاليَّة في معاني شعرهم، يقول عمرو بن الفحيل الزبيدي: (١)

أسعديني بدمعِ الرِّقراقِ

لفراقِ الرِّسولِ يومَ الفراقِ

ليتني متُّ يومَ مات ولم

ألق من الرِّزءِ ما أنا لاقِ

وعند انتشار المسلمين للفتوح الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وضحت لنا أشعار مذحج في هذه الفترة زحف القبائل المذحجية في تلك الفتوح فمضى شعرهم يسجل وقائعها وأحداثها ويفخر بالدين الجديد الذي يحملونه لتلك البلاد، ويسجل بطولات فرسان مذحج ومشاركتهم في تلك الفتوح العظيمة. وذكر جانباً من أخبار البلاد المفتوحة وصفاتها وذكر مدنها. ولحدائث قبيلة مذحج بالإسلام وقربهم الزمني من عهدهم الجاهلي، فإن معاني شعرهم أيام الفتوحات الإسلامية وإن كانت تحوي ألفاظاً ذات معانٍ إسلامية كان يخالطها فخر الشعراء بأنفسهم وبطولاتهم تلك التي يسطرونها، وفخرهم بمجد قبيلتهم الزاخر في الجاهلية، حتى إنه ليطغى على تلك المعاني الإسلامية أحياناً كما هو عند قيس بن المكشوح المرادي، وعمرو

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم (٥٩٢١) ج ٢ ص ١١ .

بن معد ي كرب الزبيدي وذلك لأن تغيير مَلَكَاتِ الشُّعْر، ومواهبه تتم ببطء بل تتم على يد جيلٍ جديد، وهؤلاء مازالوا حديثي عهد بالجاهلية لما يندمج الإسلام بدمائهم، حتى تكون معانيهم الإسلامية خالصة، فهذا قيس بن المكشوح المرادي يعبرُ لنا عن خروجه للفتح فلم نظفر لديه بمعنى إسلامي جديد سوى أسماء تلك البلدان التي وطىء أرضها فاتحاً لها، ووصفه لنا مناهضته ومنازلته لأبطال تلك البلدان، وفخره بنفسه وبشجاعته، الذي يغطي على ذلك المعنى الإسلامي الذي في آخر بيت من هذه المقطعة التي يقول فيها: (١)

جلبتُ الخيلَ من صنعاء تردي
بكلِّ مدججٍ كالليثِ حامي
إلى وادي القُرَى فديارِ كَلْبِ
إلى اليرموك بالبلد الشَّامِ
وجئن القادسية بعد شهرٍ
مسومةً دوابرُها دوامي
فَنَاهُضْنَا هُنَاكَ جَمَعَ كسرى
وأبناءَ المرازبةِ الكرامِ
فلما أن رأيتُ الخيلَ جـالت
قصصتُ لموقفِ الملكِ الهمامِ

(١) شرح قصيدة الدامغة ص ٢٧ .

فأضرب رأسه فهوى صريعاً

بسيـفٍ لا أفـل ولا لهام

وقد أبلى الإله هناك خيراً

وفعلُ الخيرِ عند الله نـام

وخير من توضح لنا معاني شعره تلك الفتوح الإسلامية التي خاضتها قبائل مذحج في عصر صدر الإسلام هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي شارك في تلك الفتوح، إلا أن المعاني الإسلامية تذبذبت تذبذب العقيدة في قلبه، وإن رائحة فخره بنفسه وشجاعته وقوته وقومه تطفى على رائحة تلك المعاني الإسلامية حيث يقول: (١)

لقد علمت أقيال مذحج أنني

أنا الفارسُ الحامي إذا القوم ضجروا

صبرت لأهل القادسية معلماً

ومثلي إذا لم يصبر الناس يصبر

وطاعتهم بالرّمح حتى تبددوا

وضاربتهم بالسيف حتى تكسروا

بذلك أوصاني أبي وأبو أبي

بذلك أوصوني فلست أقصر

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٩٠ .

حمدتُ إلهي إذ هداني لدينيهِ

فلله أسعى ما حييت وأشكرُ

وعدم تغلغل العقيدة الجديدة في نفسية عمرو بن معد يكرب تجعله ينزع إلى حياته الجاهلية، ولا يتورع من أن يمينَ على سعد بن أبي وقاص بحربه يوم القادسية، ويفخر بذلك، بل يسخط على سعد قائده، ويهجوهُ بمعان توّضح لنا أن الإسلام بتعاليمه الجديدة لم تكن قد أخذت موقعها العميق من قلب عمرو، فيهجو سعداً هجاءً عنيفاً لنقصه له في العطاء، حيث وزّع الغنائم على المجاهدين على قدر ما يحفظون من القرآن، وكان حظ عمرو منه قليلاً، فقال: (١)

ألا أبلغ أمير القومِ سعـداً

فقد كذبت أليته (٢) وجارا

وحرق نابه (٣) ظلماً وجهلاً

علي فقد أتى زمياً وعاراً

هبت لقد نسيت جلاّد عمرو

وأنت كخامع (٤) تلج الوجاراً (٥)

(١) شعر عمرو بن معد يكرب ح ١١٤.

(٢) أليته : اليمين .

(٣) حرق نابه : سحقه حتى سمع له صريف، وذلك من غيظ أو غضب .

(٤) الخامع : الضعيف .

(٥) الوجار : الحجر .

أطاعن دونك الأعداء شَزْرًا

وأغشى البيض والأسل الحَرَارًا^(١)

بياب القادسية مستميتاً

كليث ريكية يابى الفَرَارَا

أكرّ عليهم مُهْرِي وأحمي

إذا كرهوا - الحقائق والذُّمَارَا

جَزَاكَ اللهُ في جنبي عقوقاً

وبعد الموتِ زَقُوماً ونارَا

ومن الفنون والمعاني التي جَدَّتْ في هذه المرحلة وظهرت في شعر مذحج وصف البلاد المفتوحة الجديدة، وذكر أسمائها، وذكر حروبهم، وديارهم ومخلوقات بلادهم، وجبالهم، وبعض عاداتهم، وتقاليدهم، وأخلاقهم، وحنين الشعراء القاطنين هذه البلاد الجديدة إلى مواطنهم في جزيرتهم العربية، فهذا خالد الزُّبيدي يَحِنُّ إلى موطنه في الجزيرة ويذكر دار اغترابه في «سِنْجَار» و«تَلَّ المَحْلَبِيَّة» فيقول:^(٢)

أيا جَبَلِي سِنْجَارَ ما كنتم لنا

مَقِيظاً ولا مَشْتَى ولا مُتْرَبَعاً

(١) الحرار : جمع حرى والمراد العطشى للدماء .

(٢) معجم البلد أن رسم « سنجار » ٢٦٢/٢ .

وَيَا جَبَلِي سَنَجَارُ هَلَا بِكَيْتُمَا
 لِدَاعِي الْهَوَىٰ مِنْأَ شَنِينَيْنِ أَدْمَعَا
 فَلَوْ جَبَلِي عَوُجٍ شَكَوْنَا إِلَيْهِمَا
 جَرَّتْ عِبْرَاتٌ مِنْهُمَا أَوْ تَصَدَّعَا
 بِكِي يَوْمَ تَلَّ الْمَخْلَبِيَّةَ صَابِيءُ
 وَالْهَىٰ عَوِيْدَا بَثُّهُ فَتَقْنَعَا
 وَذَكَرَ عَمْرُو بْنُ مَعَدٍ يَكْرِبُ «نَهَا وَنَدُّ» وَحَرَبَهُ لِأَهْلِهَا وَوَصَفَ أَفْيَالَهَا
 فَقَالَ: (١)

وَمَا حَادَ عَنْ جُمَعِي نَهَا وَنَدُّ جَمْعُنَا
 وَمَا زَالَ قَوْمِي يَمْنَعُونَ الْمَوَالِيَا
 فَإِنْ نَلْتُ مَا نَلْتُ الْغَدَاةَ فَإِنِّي
 لِأَلْقَىٰ لَدَى الْهَيْجَاءِ فِيهَا الدَّوَاهِيَا
 فَيَوْلَا أَرَاهَا كَالْجِبَالِ أَمَامِنَا
 تُشَيِّبُ مِنَّا فِي الْحُرُوبِ النَّوَاصِيَا

وَقَالَ أَحَدُ شُعْرَاءٍ مَرَادٍ يَذْكَرُ «خُتْلًا» وَأَخْلَاقَ أَهْلِهَا: (٢)

(١) شعر عمرو بن معد يكرب ص ١٩٢.

(٢) معجم البلدان رسم « ختل » ٢ / ٢٤٦.

عَدَّ مِنْ خُتْلٍ فَخُتْلٌ أَرْضٌ

عُرِفَتْ بِالذَّوَابِ لَا بِالنَّاسِ

ويتضح لنا مما سبق، ذلك التغيّر البطيء الذي طرأ على معاني شعر مذحج في عصر صدر الإسلام، ويبدو فيه الجديد في صورة غائمة لم تتضح ملامحها كل الوضوح بعد، وإن أكثر شعراء هذه المرحلة لم يكونوا على قدر وافر من الاتصال بدعوة الإسلام، ووقائعها الأولى، ولم يكونوا من الشعراء الفحول الذين لهم احترام في قول الشعر، بل كان أكثرهم من المغمورين والمقلّين، الذين يقولون الشعر في لحظات الانفعال، قُبِيلٌ تحولهم من الشرك إلى الإسلام، أو وفؤدهم على الرسول ﷺ، أو مشاركتهم في حروب الردة، أو اندفاعهم إلى تلك الفتوح الإسلامية^(١)، لذلك رأينا أن التطور عند هؤلاء الشعراء قد جرى على نحو طبيعيّ تدرجيّ يتأثر فيه الشاعر بشيوع تلك اللغة الإسلامية الجديدة، وبتلك البيئة الجديدة التي انتقل إليها إذا كان ممن شاركوا في الفتوحات الإسلامية، أو هاجروا من الجزيرة العربية إلى أحد الأقطار التي استقر فيها الإسلام. وقد لا نجد أيّ أثر ملموس من آثار التطور عند بعض هؤلاء الشعراء إلا في كلمة إسلامية هنا أو هناك. أو بعض عبارات^(٢) مأخوذة من القرآن، أو الحديث دون التعمق في معاني الدين الجديد، وتمثله في النفس تمثلاً خليقاً بتغيير تلك الأنفاس الشعرية التي أطلقوها، ولم نجد من الشعراء المحترفين والفحول في هذه الفترة من يمثل مَذْحِجَ سَوى عمرو بن معد يكرب، والنجاشي الحارثي، أما الأول فقد سبق

(١) انظر في الشعر الإسلامي ولأموي لعبد القادر القط ص ٤٩، دار النهضة العربية/ بيروت.

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ (بتصرف).

أن أشرنا إلى أن معاني شعره الإسلامية لم تكن جلية بل ترددت بين القرب والبعد من الإسلامية تردد العقيدة في قلبه، وأن فخره بنفسه وقومه طغى على معانيه الإسلامية حتى إنه يكاد يخفيها. أمّا النجاشي، فكان فاسقاً، رقيق الإسلام، وإنه حين اعتنق الإسلام في السنة التاسعة للهجرة، لم يكن من المؤمنين الصادقين. ولم يستطع أن يمتنع عن كثير مما حرم الإسلام ومنع منه. وأكبر الظن أن النجاشي لم يجاوز موطنه نجران^(١) مع جيوش المسلمين المكوّنة من القبائل العربية والتي اتجهت من الجنوب للشمال للفتوح. بل إنه كان في هذه الفترة كما تذكر الروايات يُشعل معركة مهاجاة مقذعة مع بني العجلان وشاعرهم تميم بن مقبل، ويستعدي عليه بنو العجلان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فيحبسه عمر، ثم يُشعل بعد ذلك معركة أخرى من المهاجاة العنيفة مع عبد الرحمن بن حسان بن ثابت تُجبر حسان للتدخل بجانب ابنه عبد الرحمن ولا يتورع النجاشي عن هجاء حسان وابنه عبد الرحمن ولم تفرعه حرمة قريش قبيلة النبي ﷺ ولا حرمة الأوس والخزرج أنصار الرسول ﷺ من أن يهجوهم، حيث يقول في هجاء قريش:^(٢)

ظَهَرَ النَّبِيُّ وَمَا قَرِيْشٌ وَسُطْنًا

إِلَّا كَمَثَلِ قُلَامَةِ الظَّفَرِ

فَعَسَى قَرِيْشٌ أَنْ تَزَلَّ بِهَا

نَعْلٌ فَتَقْسِمَهَا عَلَى ظَهْرِ

(١) شعر النجاشي الحارثي / مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ٩٥ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١٠٠ .

ويقول في هجاء الانصار: (١)

بَنَى اللُّؤْمُ بَيْتاً فَاسْتَقَرَّ عِمَادُهُ

عليكم بني النجّار ضربةً لازم

ويقول كذلك في هجاء الخزرج: (٢)

ولو كان غدرٌ مهلكٌ أهلَ قريةٍ

من النَّاسِ أفني باقي الخزرج الغدرُ

ويُقذع في هجاء حسان وابنه ولم يراع صحبته لرسول الله ﷺ فيقول: (٣)

ستاتي اليهؤديين حسان وابنه

قصائدٌ لم يُختم عليهن رؤسهم

لعين رسول الله مالك ذمة

ومالك من دين ومالك محرم

أبوك أبو سنو وعمك مثله

وخالك شر من أبيك والأم

وهل تظن أن هذه الألفاظ التي استجدت في صدر الإسلام مثل — ذكر

رسول الله، والذمة، والدين، وضربة لازم، والحرمة التي أوردها النجاشي في

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق مجلد ١٢ ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق مجلد ١٢ ص ٩٩ .

شعره تجعلنا نضع النجاشي في هذه الفترة التي سبقت مقتل عثمان رضي الله عنه في مصاف من يعد شعره ذا معنى إسلامي؟ كلا فمعانيه في هذه الفترة إنما هي امتداد لتلك المعاني الجاهلية التي تفوح منها العصبية القبليّة الجاهليّة، وإن قلنا إن من المعاني الجاهلية ماهي أعف من هذه المعاني.

إنّ فهذه هي خصائص معاني شعر مذحج في عصر صدر الإسلام التي ظهرت فيما وقعنا عليه من المقطعات الشعريّة التي قيلت في تلك الفترة الممتدة من ظهور شعاع الإسلام في مكة ودخول قبائل مذحج في الإسلام إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وشملت حركة الردة في اليمن وفترة الفتوحات الإسلاميّة ولا ننكر من خلال تتبع معاني شعر مذحج في هذه الفترة أنّ الإسلام قد بدأ يرسّخ بتعاليمه في قلوب مذحج وبدأ المسلمون منهم يستظهرون القرآن وآياته وتعاليمه ويطلّعون من كبار الصحابة على تفسيره ومعانيه البعيدة والقريبة، وبدأت العقيدة الإسلاميّة تتبلور حقيقةً في قلوب الشعراء، وأخذت عقولهم تحوي هذه المفاهيم الإسلاميّة الجديدة والعميقة، بجانب سرّيان ذلك الفكر الذي أخذ ينتشر على يد السبئيّة بين المسلمين مما جعلهم يُعملون أفكارهم، ويشحذون عقولهم لفقه الأمور التي تدور حولهم. وبعد مقتل عثمان، وما صاحب ذلك من أحداث مهّدت لذلك الحدث العظيم، أو جاءت بعده أخذ شعر مذحج يواكب تلك المتغيرات العنيفة، التي أخذت تُعصّف بالأمة العربيّة والإسلاميّة، وأخذ شعر مذحج يحتوي ما أفرزته تلك الأحداث من معايير ويَسِيرُ معها سيراً متوازياً، وأخذ يتابع شعراء مذحج بعد هذه الفترة تطوير معانيهم في خطى سريعة وثابتة وقوية، وأخذوا يبتعدون عن المعاني الجاهلية ويتخطّون

بجسارة، تلك الملامسة البعيدة والرقيقة للمعاني الإسلامية التي عهدناها منهم قبل هذه الفترة، لِيُسَجَّلُوا في معاني شعرهم فنيةً إسلاميةً جديدة، أكثرَ عمقاً وأوضحَ تطوراً، وهو في هذا التطور يوسع طاقته لِيُعَبِّرَ عن الدين الجديد، الذي أخذ يدركه بحسِّ واعٍ، وفهمٍ عميقٍ في نواحيه واتجاهاته وآفاقه، وَلِيُعَبِّرَ عن السياسة الجديدة تعبيراً جديداً على حظِّ كبيرٍ من الجِدَّة والطَّرَافَة، فأخذ الشعر يمتصُّ الأفكار الإسلامية الجديدة والأساليب كذلك لِيُخْرِجَهَا فناً إسلامياً^(١)، يعبرُ عن العقيدة الجديدة تعبيراً يَنُمُّ عن فَهْمٍ لها وتمثِّل لمعطياتها في هذا الوجود.

يظهر بداية هذا التغيير الذي شرحناه في شعر عمار بن ياسر العنسي رضي الله عنه، الذي مكنه تقدمه في الإسلام وقربه من رسول الله ﷺ من احتواء مفهوم الإسلام، ومعاني القرآن بتعمقٍ وإدراكٍ لقضاياها واستظهار لمعانيه، واستبطانٍ لِكُنْه تلك المعاني، فنجد معاني شعره قد تشبعت بقضايا الإسلام والحياة الجديدة - كاختيار الوسط من الأمور، والبعد عن الشُّبه، وصَوْنُ السَّمْعِ واللِّسَانِ عن قبائح الأشياء، وأنَّ الرَّاظِي بالمعاصي والسَّاكِت على ارتكابها يعد مشاركاً في إثمها - وهذه مفاهيم جديدة وعميقة فهمها عمارٌ من فِقْهه حيث يقول^(٢).

تَوَخَّ من الطَّرْقِ أوساطها

وعَدَّ عن الجَانِبِ المُشْتَبِه

(١) حياة الشعر في الكوفة ص ٢٥٨ (بتصرف) ليوسف خليف / طبع دار الكتاب العربي للطباعة

والنشر / مصر / ١٩٦٨ م.

(٢) كتاب الزُّهْرَة القسم الثاني ص ٦٧٢، تحقيق إبراهيم السامرائي ونوري حمود القيسي.

وسمعك صُنَّ عن سماعِ القبيحِ
كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ القَبِيحِ
شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ

ألا ترى أن هذه المعاني إنما يقولها من أدرك بعمقٍ معانٍ قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»^(١)، وقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»^(٢)، وقوله تعالى: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ»^(٣)، وقوله تعالى: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ: مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا»^(٤).

إنَّ هذا الشعرَ صادرٌ عن نفسٍ أدركت معاني هذه الآيات وفهمتها
وامتزجت بروحها حتى صاغتها في هذا القالب الشعريِّ.

ولقد أدرك عمار من خلال معاشته الطويلة للإسلام وحبه له وتمثله
معاني القرآن والحديث الدالة على قدرة الله وعظمته، والإقرار بالفضل له

(١) سورة البقرة آية ١٤٢.

(٢) سورة آل عمران آية ٧.

(٣) سورة النساء آية ١٤٠.

(٤) سورة النور آية ١٦.

والحمد والثناء عليه بما يليق بجلاله، وأدرك مفهوم الشهادة في سبيل الله فهماً عميقاً، فتشوّق لها، وساح تفكيره وأحاسيسه في أوصاف الجنة التي ذكرها القرآن، والحديث، وما فيها من نعيم كالرّحيق والسّلسبيل، والمسك والزنجبيل وأن ذلك إنما هو للأبرار من المؤمنين، فتناول كل ذلك في شعره، تناول الواعي المُدرك والمتشوّق حيث يقول: (١)

صَدَقَ اللهُ وَهُوَ لِلصَّادِقِ أَهْلٌ

وتعالى ربيّ وكان جليلاً

رَبِّ عَجَلْ شَهَادَةً لِي بِقَتْلِ

في الذي قد أحبّ قتلاً جميلاً

مقبلاً غير مدبرٍ إنَّ للقتلِ

على كل ميّتةٍ تفضيلاً

إنهم عند ربهم في جنانٍ

يشربون الرّحيق والسّلسبيلاً

من شراب الأبرار خالطه المسكُ

وكأساً مِرْزَاجها زنجبيلاً

فهذه المعاني مسبوكة من قوله تعالى: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا

(١) وقعة صفين ص ٢٢٠ .

وَعَدَّةٌ»^(١) ومن قوله تعالى: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٢) ومن قوله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»^(٣). وقوله تعالى: «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ، خِتَامُهُ مِسْكٌ»^(٤). وقوله تعالى: «يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ مِرْجُوحًا زَنْجَبِيلًا، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا»^(٥).

والأشتر النخعي يدرك مفهوم الخوف والرجاء، الذي يجب أن يعيش بينهما المؤمن بالله، وهو من مظاهر العقيدة الجديدة التي ترى أن المؤمن بالله، لا يركن إلى عمله في دخوله الجنة، بل إن رحمة الله هي التي تدخله الجنة فلا ييأس منها، وأن يطمع في عفو ربه جلّ وعلا، ولو ارتكب شيئاً من المعاصي فلا يجب أن يستبد به الإحباط واليأس، وأن رحمة الله قد وسعت كل شيء حيث يصوغ هذا المعنى في قوله:^(٦)

أَرْجُو إِلَهِي وَأَخَافُ رَبِّي

وَلَيْسَ شَيْءٌ مِثْلَ عَفْوِ رَبِّي

وكان الأشتر في قوله هذا قد أدرك إداركاً عميقاً مفهوم قوله تعالى

(١) سورة الزمر آية ٧٤ .

(٢) سورة الرحمن آية ٧٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

(٤) سورة المطففين آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٥) سورة الإنسان آية ١٧ ، ١٨ .

(٦) كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي ٢/٦٦ / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد /

الهند / سنة ١٢٩٢هـ - ١٩٧٢م .

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا»^(١). وقوله تعالى : « وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ »^(٢).

بجانب إدراك الشعراء التدريجي لمعاني الدين الجديد وأخذهم في التعميق فيه وتمثل معانيه، أخذت الأهواء والمكائد تندسّ بين صفوف المسلمين على يد السبئية والمتربصين بالأمة العربية والإسلامية ودولتها الفتية، فأخذوا يَبْنُونَ مفاهيم جديدة تُحْدِثُ البلبلة الفكرية وتُهْزِ الثوابت العَقْدِيَّةَ بين المسلمين متّخذين من تأويل معاني القرآن والحديث وما يحدث من اختلاف في الاجتهاد بين بعض الصحابة رضوان الله عنهم حجة وتعليلًا لممارساتهم المشبوهة، فاختلّفت الأهواء، وتصادمت الأفكار والرغبات وكان بداية ذلك الفتنة العظيمة التي انفجرت بمقتل عثمان رضي الله عنه، فانعكس ذلك على معاني شعراء مذحج يظهر في شعر الأشتر النخعي وسوّدان بن حمران المرادي^(٣). فقد هجيا الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه هجاء مقذعاً لا يليق بمكانته العظيمة في الإسلام .

حاشا عثمان رضي الله عنه من كل ما قالوا، وإنما هي الدسائس والأهواء الضالة التي أملت عليهم ذلك. وهذه المعاني كما نشاهدها وإن كانت ضالة منحرفة إلا أنها توضح لنا بجلاء ما أصاب شعر بعض شعراء مذحج من تغيير في معانيه عبر رحلته في العصر الإسلامي.

(١) سورة الزمر آية ٥٣ .

(٢) سورة الإسراء آية ٥٧ .

(٣) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ١٧٨ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/٢٢٩ / «أخبار

التراث العربي وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ٢/٢٢٨ .

ولقد التزم الشعر العربي - وشعر مذحج من ضمنه - بالسياسة التزاماً حقاً بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وما أعقبه من فتن وحروب أهلية متصلة، انقسم العرب فيها إلى شِيعٍ وأحزاب متنافسة على السلطة، وتختلف في فهمها لِنِظَامِ الحكم اختلافاً كبيراً، وحين استتب الأمر لمعاوية رضي الله عنه بعد مقتل علي رضي الله عنه، كان هناك عدة أحزاب سياسية أهمها: الشيعة والخوارج، والزبيريون بجانب أنصار بني أمية. وكان لكل حزب شعراؤه الذين يعبرون عن أهدافه، ومفهومه للحكم، وحقه فيه، ويهاجمون خصومه ويشككون في حقهم ويحطون من شأنهم، ويرمونهم بالمروق عن الدين^(١). يؤوّلون نصوص الشريعة لتوافق رؤيتهم، فهذا الأشتر النخعي يتأول خروج عبد الله بن الزبير في جيش عائشة ومحاربتة علماً بأنه خروج على الإمام فَيَهُمُّ بقتله ولكن لم يتمكن وإن كان قد نوى حيث اختلفا بضربتين وصرع الأشتر عبد الله على الأرض، ولكن عبد الله نجا من الأشتر. فقال الأشتر يذكر عتاب عائشة له ويدافع عن صنيعه بعبد الله:^(٢)

وقالتُ على أيّ الخصال صرعتُه

بقتلِ أتى أم ردةٍ لا أبالكَا

أم المحصنِ الزاني الذي حلّ قتلُه

فقلتُ لها : لا بُدُّ من بعضِ ذلكَا

(١) في الشعر الإسلامي والأموي/ لعبد القادر القط ص ٢٧٦ / دار النهضة العربية/ بيروت/

١٩٧٩م.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢١٥ / طبع دار الحياة/ بيروت.

فمعنى البيتين يحمل مناقشة، ومجادلة، وتفسيراً، وتأويلاً لموقف عبد الله بن الزبير في حربه لعلي، وموقف الأشتر من عبد الله بن الزبير على ضوء قوله ﷺ «لا يَحَلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثَ: النَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَالثَّيْبِ الزَّانِي وَالْمَفَارِقِ لِدِينِهِ التَّارِكِ لِلْجَمَاعَةِ»^(١).

وهذا وَهْبُ بْنُ زَمْعَةَ الْجَعْفِيُّ يُوَوِّلُ بَعْضَ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ؛ لِيُثَبِّتَ أَحْقِيَّةَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ وَآلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ فِي الْخِلَافَةِ، وَالْقِيَامِ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ ﷺ، حَيْثُ يَقُولُ:^(٢)

لَقَدْ كَانَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ وَفِي الْهَدَى
وَفِي الْوَحْيِ لَمْ يُنْسَخْ لِقَوْمٍ عُلُومُهَا
فَرَائِضُ فِي الْمِيرَاثِ لَوْ تَعَلَّمُونَهَا
يَلُوحُ لِذِي اللَّبِّ الْبَصِيرِ أَرُومُهَا
بِهَادَانٍ مِنْ قَبْلِ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ
وَمِنْ بَعْدِهِ لَمَّا أَمَرَ بِرِيمُهَا
فَأَمَّا لِكُلِّ غَيْرِ آلٍ مُحَمَّدٍ
فَيَقْضِي بِهِ حُكْمُهَا وَزَعِيمُهَا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني رقم (٦٨٧٨) ج ١٢ ص ٢٠٩ تحقيق

محب الدين الخطيب / طبع المكتبة السلفية / القاهرة / طبعة ثانية سنة ١٤٠٠ هـ .

(٢) كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي ٦٨/٦ .

وأما لميراثُ الرَّسُولِ وأهلِهِ

فكلُّ يَراهم رُمُّها وجسيمَها

فكيف وذلُّوا بعد خمسين حجَّةً

يُلامُّ على هلك الشِّراةِ أديمُها

ولكثرة قبائل مذحج، فقد تَعَدَّدَت مشاربها السياسية والعقدية والفكرية بتعدد هذه الأحزاب، ففي كل حزب نجد صوتاً لشعراء مذحج، يسكبون في شعرهم تلك المعاني الصادرة عن اتجاه ذلك الحزب ورؤيته العقدية والسياسية، فهذا عمار بن ياسر العنسي رضي الله عنه، كان هواه مع علي رضي الله عنه، يحارب معه معاوية، ويصوغ في شعره ما يراه من هذه المعاني الجديدة ليُوضِّح صواب رؤيته التي يراها حقاً، وهي أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة، وَيَسِّمُ خصومه بأنهم أعداء النبي ﷺ، وأن خير الناس بعد النبي والذي هو علي حق إنما هو علي رضي الله عنه وأتباعه، فهو هنا يُعَبِّرُ في معاني شعره عن رؤية سياسية حيث يقول: (١)

كَلَّا وَرَبَّ الْبَيْتِ لَا أَبْرَحُ أَجِي

حتى أموتَ أو أرى ما أَشْتَهِي

أنا مع الحقِّ أحامي عن علي

صهر النبيِّ ذي الأماناتِ الوفي

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري ٣٤٢ .

نقتل أعداءه وينصرنا العلي

والله ينصرنا على من يبتغي

وهكذا نرى تأثير بعض شعر مذحج في تطوره بالمعاني الإسلامية الجديدة، فتمثلها، ونبضت في عروقه، حيث عبر في ذلك الشعر عن هذه السياسة الإسلامية التي كان المسلمون يتقاتلون من أجلها تعبيراً يستمد أفكاره ومعانيه من الحياة الإسلامية الجديدة، التي كانت قد استقرت تماماً في نفوس المسلمين، كما كان الشعر يستمد معانيه وعباراته من المعجم الإسلامي الجديد بل من المعجم القرآني نفسه^(١). كما رأينا ذلك عند الأشتر النخعي وعمار بن ياسر ووهب بن زمعة الجعفي وغيرهم من شعراء مذحج بعد الإسلام^(٢).

وأخذ مذهب الشيعة السياسي يتشكّل على يد مجموعة من شعراء مذحج، ممن انحازوا لعلي وأبنائه - من فاطمة رضي الله عنها - في حروبهم ضد كل مخالف، لهم ومنازع لهم في أمر الخلافة، فاظهروا في شعرهم موالاتهم لعلي وبنيه وأبصروا أن الحق معه، وأن غيره ظالم له، وجائر عليه، ويعد شعر عمار بن ياسر العنسي رضي الله عنه والأشتر النخعي والنجاشي الحارثي وعُبيد الله ابن الحرّ الجعفي، ووهب بن زمعة الجعفي، ارهاصات وبدايات لظهور اتجاه التشيع في الشعر العربي، وبداية لظهور مصطلحات الشيعة العقديّة والسياسية ذات المعنى والمفهوم الخاص لديهم، فقد تردد في شعرهم

(١) حياة الشعر في الكوفة ٢٥٥ - ٢٥٨ .

(٢) أخبار شعراء الشيعة ٤٧ ، وقعة صفين ٢٤٢ ، كتاب الفتوح لابن أعمش ٦٨/٦ .

عبارة - آل البيت، والميراث، وصهر النبي، والإمامة، والوصي، فعبارة الإمام وصهر النبي تظهر عند عمار بن ياسر العنسي في قوله يذكر موقف سعد بن أبي وقاص من علي وبيعته: (١)

قَالَ سَعْدٌ لَدِي الْإِمَامِ وَسَعْدٌ

فِي الَّذِي قَالَهُ حَقِيقٌ ظَلُومٌ

وقوله كذلك ذاكراً قرابة علي من النبي ﷺ: (٢)

أَنَا مَعَ الْحَقِّ أَحَامِي عَنْ عَلِيٍّ

صَهْرِ النَّبِيِّ ذِي الْأَمَانَاتِ الْوَفِيِّ

والحقُّ أن عماراً هو أول من وردت في شعره تلك الألفاظ والعبارات التي عُرِفَتْ فيما بعد بمصطلحات التشيع لآل البيت ولعلي وبنيه منهم بخاصة.

ويُعدُّ الأشتر النخعي أول من ورد في شعره فيما رأيت كلمة الوصي بمفهومها ومعناها المذهبي عند الشيعة حيث يقول في علي: (٣)

كُلُّ شَيْءٍ سِوَى الْإِمَامِ صَغِيرٌ

وَهَلَّاكَ الْإِمَامُ خَطْبٌ كَبِيرٌ

مَنْ رَأَى عِزَّةَ الْوَصِيِّ عَلِيٍّ

إِنَّهُ فِي دَجَى الْحَنَاسِ نَوْرٌ

(١) كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ٢/٢٥٩ .

(٢) وقعة صفين ص ٢٤٣ .

(٣) كتاب الفتوح لابن أعثم ٢/٢٢٦ .

من رضاه إمامه دخل الجنة

عفوا وذنبه مغفور

ويكاد شعر الأشتر هذا يقطر بموقفه السياسي والعقدي وإخلاصه لعلّي رضي الله عنه. وإن طموحه ومطامعه السياسية ورغبته في الزعامة وإخلاصه لمعتقديه الديني والسياسي تجعله صبوراً، مقداماً في حروبه تلك التي خاضها في اليرموك والجمل وصفين وقد عبّر لنا عن كل ذلك في شعره، بمعان تُعدّ قِمة النضج المعنوي التي وصل إليها شعر مذحج في هذه الفترة من عصر الإسلام، ونضج شعره بتلك المعاني الجديدة التي تمثلت روح الإسلام بجانب تلك الأهواء والرؤى التي طرأت على الفكر الديني والسياسي في تلك الفترة الحرجة من عصر الإسلام.

وتوالى شعراء مذحج يرصّون لِبَنَاتِ مذهب التشيع هذا، وهذا النجاشي الحارثي يصرّح بلفظ التشيع فيقول: (١)

جعلتم علياً وأشياعه

نظير ابن هنيذٍ ألا تستحوننا

إلى أولِ الناس بعدِ الرسولِ

وصنوّ الرسولِ من العالمينَا

وصهّرِ الرسولِ ومن مثله

إذا كان يومٌ يشيب القرونَا

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١١٢ .

وما سبق أن وضحناه من أن مذهب التشيع السياسي والعقدي ومصطلحاته بدأت تظهر وتتشكل في عصر علي رضي الله عنه وفي فترة حروبه مع معاوية على يد عمار بن ياسر، والأشتر النخعي، والنجاشي الحارثي من شعراء مذبح يُصَحَّح لنا ما ذهب إليه يوسف خليف من رأي ذكره في كتابه «حياة الشعر في الكوفة» عندما قال: «إن عصر المختار هو العصر الذي بدأت فيه مصطلحات عقيدة الشيعة تظهر في الشعر الكوفي، وأن ألفاظ التشيع أول ما ظهرت في أسجاع المختار التي كان يملأ بها أسماع أصحابه في كل مناسبة^(١).

ويُعدّ عبيد الله بن الحر الجعفي هو الذي وضع لمن جاء بعده من الشعراء النقاليد الفنية لرتاء الحسين بن علي، وأنه هو الذي مهّد لهم - في معاني شعره - الطريق وذلك لهم مناكبه، حتى أصبح رثاء الحسين موضوعاً أساساً من موضوعات الأدب الشيعي^(٢). حيث يقول في رثاء الحسين:^(٣)

يقول أمير غادرٍ وابن غادرٍ
ألا كنت قاتلتَ الشهيدَ ابنَ فاطمةَ
ونفسي على خذلانهِ واعتزالهِ
وبيعة هذا الناكثِ العهدِ لائمةَ

(١) حياة الشعر في الكوفة ص ٧٠٣ ليوسف خليف .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٣) خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب / لعبد القادر بن عمر الغدادي ١٥٩/٢ تحقيق عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي بالقاهرة .

فيا ندمي أن لا أكون نصرته
ألا كل نفس لا تسدُّ ناديمته
وأني لأنني لم أكن من حماته
لذو حسرة ما إن تفارق لازمة
سقى الله أرواح الذين تآزروا
على نصره سقياً من الغيث دائماً
وقفت على أجسادهم ومجالهم
فكاد الحشا ينفض والعين ساجمة
لعمري لقد كانوا مصاليت في
الوغي سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمة
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم
بأسيا فهم آساد غيل ضارمة
فإن يقتلوا فكل نفس تقيّة
على الأرض قد أضحت لذلك واجمة
وما إن رأى الرءون أفضل منهم
لدى الموت سادات وزهرا قماجمة

أقتلهم ظلماً وترجوا وداونا
فدعْ خُطَّةَ لينا بملائمَّة
لعمري لقد راغمتُمونا بقتلهم
فكم ناقمٍ منا عليكم وناقِمَةٌ
أهمُّ مــــرارةً أن أسيرَ بجحفلٍ
إلى فئسَةٍ زاغت عن الحقِّ ظالمَةٌ
فكفروا وإلا زرتكم في كتابٍ
أشدُّ عليكم من زُحُوفِ الديالمَةِ

وأغلبُ الظنُّ أن نَدَمَ ابنِ الحَرِّ وحسرتَه على خذلانه الحسين وتخليه عنه، وحديثه في شعره عن ذلك، ودعوته إلى الثأر له وتحريضة على الوقوف في وجه الأمويين، كانت الإرهاصات الأولى لظهور التوابين، فمن الواضح أن هذه المعاني التي كثر ترديدها في شعره، هي نفسها الأسس التي قامت عليها حركة التوابين والأهداف التي كانوا يعملون من أجلها^(١). وحركة التوابين هذه هي لبنة من لبنات بناء المذهب الشيعي الذي أخذ يتشكل وينضج بعد مقتل الحسين بكربلاء، وهذا وهب بن زَمْعَةَ الجعفي أحد شعراء مذبح وهو من جيش التوابين الذي انطلق مع سُلَيْمان صرْد لمحاربة أهل الشام، وأخذ الثأر منهم لأهل البيت، وهاهو ذا يقف مع سائر الجيش على قبر الحسين بالطَّفِّ، ويقول شعراً يذكر فيه مصطلح الميراث والإمامة

(١) حياة الشعر في الكوفة ٢٧٩ - ٢٨٠ .

وظلم آل البيت وهي مصطلحات صارت فيما بعد من مصطلحات الشيعة
حيث يقول^(١):

تَبَيْتُ نَسَاءً مِنْ أُمِيَّةٍ نَوْمًا
وبالطف قتل ما ينام حميمها
وما ضيَع الإسلام إلا قبيلةً
بأمرٍ فزكأها ودام نعيمها
وعادت قناة الدِّين في كفِّ ظالم
إذا مال منها جانبٌ لا يُقيمها
فأقسم لا تنفكُ نفسي حزينَةً
وعيني سفوحاً لا يجفُّ سجوؤها
لقد كان في أمِّ الكتابِ وفي الهدى
وفي الوحي لم يُنسخ لقومِ علومها
فرائضُ في الميراثِ قد تعلمونها
يلوح لِيذِي اللُّبِّ البصيرِ أرومها
بها دان من قبلُ المسيح بن مريم
ومن بعده لما أمرَ برِيمها

(١) كتاب الفتوح لابن أعمش ٦٨/٦ .

فأما لكلٍ غير آلٍ محمدٍ
فَيَقْضِي بِهٍ حَكْمُهَا وَزَعِيمُهَا
وأما لميراثِ الرّسولِ وأهليهِ
فكلُّ يراها رمُّها وجسيمُها
فكيف وظلّوا بعد خمسين حجّةً
يُؤْلَمُ على هلكِ الشّراةِ أديمُها

بجانب رؤية الشيعة السياسيّة والعقدية التي حملتها معاني شعر مذحج في هذه الفترة، حمل شعر مذحج كذلك ذلك التنافس السياسي الذي نبع من التعصب للبيئة، فقد وضح لنا شعرُ مذحج الصراع السياسي بين أهل العراق والشام على الخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ورد ذلك في شعر النجاشي الحارثي حيث قال يوصي أبا موسى الأشعري في حكومته مع عمرو بن العاص من حيث قال^(١):

أبا موسى جزاك الله خيراً
عراقك إن حظك بالعراقِ
وإن الشام قد نصبوا إماماً
على الأحزابِ معروف النفاقِ

(١) كتاب الفتوح لابن أعمش ٢٣/٤ .

وإنّا لا نزال لهم عدوا

أبا موسى إلى يوم التلاقي

واعتنق جماعة من شعراء مذبح مذهب الخوارج الذين خرجوا بعد قبول علي رضي الله عنه لمبدأ التحكيم يوم صفين، وقد اتخذ هؤلاء رؤية خاصة في الحكم نتج عنها مذهبهم العقدي والسياسي، فاتخذوا موقفاً معادياً تجاه كل من علي ومعاوية ومن جاء بعدهما من الأمراء، وكان لشعراء قبيلة مراد من مذبح الحظ الوافر في اعتناقهم لهذا المذهب فجاءت معاني شعرهم تعبيراً عن معتقد الخوارج، وأقوى تعاطفاً معهم، ورثوا كثيراً من رجالهم، وصار من شعراء مذبح من يُعد من رجال هذا الحزب، فصوّروا في شعرهم صواب مذهبهم هذا، ونزاهة رؤسائهم، وأنهم على الحق وأخذوا يدافعون عن ذلك دفاعاً صادقاً وقوياً، بألسنتهم وسيوفهم، صادرين في كل ذلك عن قناعة تامة، فهذا رُهَيْنُ بن سَهْم المرادي - الذي كان بصيراً وفقياً بمذهب الخوارج، ومجتهداً فيه - يرثي رؤساء الخوارج^(١):

يانفسُ قد طالَ في الدنْيا مُراوغي

لا تأمني لصروفِ الدَّهرِ تنغيصاً

إني لبائعُ ما يفنى لباقية

إن لم يعقني رجاءُ العيشِ تنغيصاً

(١) الكامل في الأدب للمبرد ٢/١٩٣ (مؤسسة المعارف). أنساب الأشراف للبلاذري القسم الرابع الجزء الأول ص ٢٨٧ تحقيق إحسان عباس / المطبعة الكاثولوكية ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م.

فَأَسْأَلُ اللَّهَ بِبَيْعِ النَّفْسِ مُحْتَسِبًا

حَتَّى الْأَقْيَ فِي الْفِرْدَوْسِ حُرْقُوصًا

وَابْنَ الْمُنَيْحِ وَمِرْدَاسًا وَإِخْوَتِهِمْ

إِذْ فَارَقُوا زَهْرَةَ الدُّنْيَا مَخَامِيصًا

تَخَالَ صَفَهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ

لِلْمَوْتِ سُورًا مِنَ الْبَنِيَانِ مَرْصُوصًا

والحق إن معاني شعر مذحج الذي يعبر فيه شعراؤهم عن مذهب الخوارج الذي اعتنقوه، تمتاز بصدق العاطفة وحرارتها، وشدة الاندفاع في سبيل رؤيتهم هذه دون مبالاة مع إخلاصهم في عقيدتهم تلك، وتأثرهم الواضح بأسلوب القرآن، فقد كانوا شديدي التمسك بتعاليم الإسلام، واسعي الاطلاع على معانيه، لأن أكثرهم ممن كان يحفظ القرآن ويجادل به، إلا أنهم جَنَحَتْ بهم تلك الشبّه، ولأهواء التي عصفت بالأمة في تلك الفترة. ونحن ندرك في هذه الأبيات أن قول رُهَيْنُ المرادي - «بيع النفس والفردوس، والصف والبنيان المرصوص» ألفاظٌ، ومعانٍ، واضحة التأثير بآيات القرآن الكريم، فهي مأخوذة منه.

ولقد توافر شعر مذحج في معانيه على معنى القَدَر، ولعل النجاشي

الحارثي كان من أوائل من لهجت السننهم بذلك حيث قال^(١):

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١٠٨ لسنة ١٣٨٥ - ١٩٦٦م

ضربوني ثم قالوا : قدرّ

قدر الله لهم شرّ القدر

وهذا المعنى الجديد الذي ظهر في شعر مذحج أصبح فيما بعد مذهباً سُمّي أصحابه بالقدريّة. والحق إن العقيدة قد ظلت محوراً لتلك الخصومات السياسية بين تلك الأحزاب، تلمس كل حزب فيها بياناً لحقه، وإعلاء لشأنه وتأييداً لنظرته، يرمي سواه من الأحزاب بالخروج عليها في السلوك، والأخلاق، ونظام الحكم^(١).

ولقد احتوى شعر مذحج كما رأينا، ما طرأ على حياتها من تغيير منذ دخولها في الإسلام، حيث ظهرت مفاهيم جديدة في معاني شعرهم غرسها الإسلام في نفوس شعرائها، كذلك احتوى شعر مذحج في معانيه تلك المذاهب والمعتقدات والأهواء والنزعات، فظهر عليه من التغير والتجديد في معانيه، ما يجعلنا نجزم دون تردد بأن الدين الإسلامي والحياة الجديدة التي شكلتها تلك الظروف التي طرأت بعد ظهور الإسلام كان لها أثرها في شعر مذحج وشعرائها.

ومع كل ذلك نرى كثيراً من شعراء مذحج لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من الانتماء القبلي القديم، بل ظلوا يفخرون بأنسابهم، وأيامهم وقبائلهم في الجاهلية، فانتشرت في شعرهم - منذ دخولهم الإسلام - المعاني التي تنفث تلك العصبية العربية التي مقتها الإسلام، وكان شعراء مذحج يلجؤون إلى ذلك لبيان منزلتهم العظيمة بين العرب في الجاهلية حتى يثبتوا أنهم

(١) في الشعر الإسلامي والاموي ص ٢٧٦ . لعبد القادر القط .

جديرون بما يلحون إليه من مناصب الزعامة والقيادة في ظل الإسلام، وأن لا ينفرد بذلك عرب الشمال من المضرية والربيعة دونهم، لذلك رأينا أنه لما أراد عليُّ أن يجعل يوم صفين عبد الله بن عباس حكماً يمثله أمام عمرو بن العاص، أنفت القحطانية، ونخرت على علي، ولم ترص بأن يكون الحكمان من مضر، وقالت: «لا والله لا يحكم فيها مضرين حتى تقوم الساعة، ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر»^(١). واضطر علي مرغماً أن ينزل على تعيين أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وتظهر معاني الفخر بتلك العصبية في شعر الأشتر النخعي والنجاشي الحارثي وعبيد الله بن الحر الجعفي، وهذا الأشتر النخعي يفخر بمذحجيته أمام ربيعة ومضر فيقول^(٢):

إني أنا الأشتر معروف الشتر

إني أنا الأفعى العراقي الذكر

لست من الحي ربيع أو مضر

لكنني من مذحج الغر الغرر

وكان معاوية يأمر أهل اليمن بالغزو بحراً وقيساً في البر؛ فسخط النجاشي من تلك التفرقة وأخذ يثير حفيظة اليمنية ويبث فيها روح العصبية القبلية ضد معاوية والقيسية فقال^(٣):

(١) وقعة صفين ص ٥٠٠ .

(٢) وقعة صفين ص ٣٩٦ .

(٣) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١٩ . لسنة ١٣٨٥ / ١٩٦٦ م.

ألا أيها الناس الذين تجمَعوا
بعكأ أناس أنتم أم أباعر
أنتُّركُ قيساً آمنين بدارهم
ونركبُ ظهرَ البحرِ والبحرُ زاخرُ
فوالله ما أدري وإني لسائلُ
أهمدانُ تحمي ضيمَها أم يحابِرُ
أم الشرفُ الأعلى من أولاد حمير
بنو مالكٍ أن تستمر المرائرُ؟
أأوصى أبوهم بينهم أن تواصلوا
وأوصى أبوكم بينكم أن تدابروا؟

على أن هناك شخصية شاعرية مذبجية إسلامية ظهرت في أواخر العصر
الأموي كانت بعيدة عن مواطن هذا الصراع السياسي والعقدي الذي كان في
العراق والشام، وكانت هذه الشخصية متأخرة من ناحية الزمن عن تلك
الصراعات، تلك الشخصية هي جعفر بن عُلبة الحارثي الذي يظهر من
شعره أنه لازم موطنه نجران، ولم يغادرها إلى الشام أو العراق، وتتسم
معاني شعره بتلك السمة التي تظهر على شعر الغزل في الحجاز في العصر
الأموي، فلا غرابة أن يتأثر بتلك الموجة لقريبة من تلك البيئة الحجازية
الغزلية، فظهرت في شعره معاني اللذة والمتعة التي كان يعيشها مع فتیان

قبيلته بني الحارث، وظهر في شعره كذلك معاني الغزل الرقيق العفيف، وكانت معاني شعره كذلك متأثرة ببيئة بلاده الطبيعية، فمن شعره الذي يحمل معاني المتعة واللذة، وهو الشباب، ووصف طبيعة بلاده قوله يتذكر أيامه، وكان قد سجن^(١):

ألا هل إلى فتيانٍ لهوٍ ولذّةٍ
سبيلٌ وتُهتَافِ الحمامِ المطوّقِ
وشربةٍ ماءٍ من خدوراءٍ بارِدِ
جرى تحت أظلالِ الأراكِ المُسوّقِ
وسيرى مع الفتيانِ كلَّ عشيّةٍ
أباري مطاياهم بصهباءٍ سيلقِ

وهو لا يرى - كما تدل معاني شعره - غضاضة من التلذذ بشرب الخمر ما دام الإنسان كريماً حسن الأخلاق، وأن ارتكاب هذه اللذة لا تُنقص من شخصية الكريم حيث يقول^(٢):

لقد زعموا أنني سكرتُ وربما
يكونُ الفتى سكراناً وهو حليمٌ
لعمركُ ما بالسُّكرِ عار على الفتى
ولكنَّ عارا أن يقالَ لثيمٌ

(١) الأغانى ١٢ / ٥٥ ، ٥٦ . دار الكتب المصرية .

(٢) المصدر السابق ١٣ / ٤٥ .

ومن شعره الذي حوى معاني الغزل الرقيق قوله يصور لنا لحظات
الفراق^(١):

أشارتُ لنا بالكفِّ وهي حزينَةٌ
تُودِّعُنَا إذ لم يودِّعِ سَلامُهَا
وما أنسَ من الأشياءِ لا أنسى قولَهَا
وقد زَلَّ عن غُرِّ الثنايا لثامُهَا
أما من فراقِي اليومِ بدٌّ ولا النوى
بمجتَمِعِ إلَّا لشحِطِ لثامُهَا
فلو كنتُ أبكي من فراقِ صبايِ
لأنزيتُ عيني دمعَةً لا ألامُهَا
ولكنَّ لي عيناً كتوماً بمائها
جموداً بماءِ الناظرينِ انسجامُهَا

وخلاصة القول في معاني شعر مذحج، أن معاني شعرها الجاهلي كان
منتزعاً من البيئة الجاهلية التي كان يعيشها شعراء مذحج، وأنه يوضح
شخصية القبيلة القوية المحاربة وأنه يحمل من القوة، والمتانة والجزالة ما
يجعله يتناسب وفخر تلك القبيلة العظيمة، وأن معاني شعر مذحج في
الجاهلية قد وضحت لنا علاقة هذه القبيلة الحربية مع جيرانها من القبائل

(١) أمالي البيهقي ص ١١٠ .

العربية، ووضحت علاقتها مع الأمم المجاورة للعرب كالمناذرة والغساسنة وملوك اليمن، ووضحت لنا كذلك تلك العلاقة الوصفية التي قامت بين المذحجي ووطنه، وعلاقة الرجل بالمرأة داخل القبيلة. وقد حملت لنا معاني شعر مذحج كثيراً من المعاني الأخلاقية التي يفخر بها شعراء مذحج كالكرم، والشجاعة، والإبساء وعدم قبول الضيم وفك الأسير والعاني، وعمل المعروف، والحفاظ على العهد، وكيف كان غزلهم وهجاؤهم عفيفاً وأن التَّفحُّشَ فيهما كان نادراً، أما مدحهم فكان لمن يستحقه وكان صادقاً، خالياً من التَّكسُّبِ وطلبِ العطاء، وتوافر شعر مذحج كذلك على معاني السَّامة، والشكوى، والضجر من طول العمر عند كثير من المعمّرين من مذحج، وتوافر كذلك على معاني اللوم والتّهديد والوعيد، والشكوى من الزمن، ووصف جانبٍ يسيرٍ من طبيعة بلادهم، كما نلاحظ أن أكثر المعاني التي حفلت بها أشعار مذحج في الجاهلية، كانت توضح شؤون مذحج الخارجية أكثر منها توضحاً لشؤونها من الداخل، فهناك كثيرٌ من الحياة الطبيعية والعقلية والثقافية والدينية والمعرفية والفكرية كنا نود أن نراها في شعر مذحج، ولكننا افتقدناها ولم يذكرها ذلك الشعر.

رأينا أن شعر مذحج الذي قيل في تلك الفترة التي كان فيها الإسلام منحصرًا بين مكة والمدينة والذي قدرنا مدته من ظهور الإسلام في مكة حتى دخول قبائل مذحج في الإسلام في السنة الثامنة، رأينا أنه لم يحدث فيه تغيير في معانيه وإنما كانت معانيه امتداداً لمعاني شعر مذحج في الجاهلية وأن التغيير نحو الإسلامية بدأ يظهر في شعر مذحج بعد دخولها الإسلام أي من السنة الثامنة للهجرة، وأن ذلك التغيير بدأ يسير بطيئاً، تناول ذكر

بعض تعاليم الإسلام وعباراته وألفاظه الجديدة دون التعمُّق في ذلك، كمدح الرسول ﷺ وجريان ذكر الإسلام على السنة الشعراء وهجاء الشرك والمشركين وذكر بعض أحوال الردة التي حدثت في اليمن، ثم ذكر الفتوح التي شارك فيها شعراء مذحج ورجالاتها، وذكر بعض البلدان الجديدة وعادات أهلها وما شاهدوه فيها من جديد بجانب حنينهم لأوطانهم في جزيرتهم العربية، وامتدت هذه السمات لمعاني مذحج حتى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث كان الإسلام قد تمكن في قلوب شعراء مذحج، وتشبَّعوا بتعاليمه واستظهروا أساليب القرآن والحديث، ورُسِّخَت معانيهما في قلوبهم وأفكارهم، وبدأت صورة العقيدة الجديدة تتشكل وتنضج في أنفسهم وبدأوا يدركونها إدراكاً واعياً فيه من العمق، بجانب ذلك ظهرت تلك الفتن والأهواء والاضطرابات والتي كان مقتل عثمان بداية تفجرها واشتعالها، عند ذلك ظهر التغيير الحقيقي في شعر مذحج بمعان إسلامية ناضجة تدرك معنى الإسلام وتعاليمه إدراكاً عميقاً، وتدرك معاني القرآن وروح العقيدة الجديدة بمفهومها الشامل المغيرة لحياة الأمة، وأخذت الفتن والأهواء تعصف بأفكار المسلمين واتجاهاتهم. مما أدى لظهور كثير من الآراء السياسية والعقدية التي تشكل عنها أحزاب الشيعة والخوارج والزبيرين والأمويين، وأصبح لشعراء مذحج مواقفهم المتباينة كل حسب ما يعتقد من مذهب سياسي وعقدي، ولقد رأينا أن شعر مذحج قد حوى في معانيه تلك التغييرات، وقد تمثلها تمثلاً عميقاً، وأنه قد عبر عنها تعبيراً صادقاً، بجانب ذلك رأينا أنه مازال شعراء مذحج ينزعون في فخرهم إلى معاني العصبية التي كانت تستوحي الأمجاد الجاهلية؛ كذلك رأينا أن شعر

مذحج ممثلاً في جعفر بن عُلبَة الحارثي قد تمثل في معانيه ذلك الاتجاه الذي ظهر في العصر الأموي في الحجاز والذي ينحو منحى اللذة والمتعة واللهو والغزل الرقيق وأن ذلك إنما كان لقرب جعفر بن علبَة في موطنه نجران من شعراء ذلك الاتجاه من أهل الحجاز.

(ب) الصورة الفنية :

يقول الجاحظ في كتابه الحيوان : (فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)^(١) وتحدث الإمام عبد القاهر الجرجاني عن التصوير، وعن الذين لا يحفلون بالصورة، وكان في كلامه نوع من السخرية بهؤلاء، ثم وضع ذلك بأن جودة الخاتم، أو السوار المضروب ليس في مادته التي يحملها، إنما هو في الصورة التي خرج عليها، وأن التمييز بين خاتمٍ وخاتمٍ وسوارٍ وسوارٍ ليس في قيمة المادة التي حملها، وصنعا منها، وإنما هو في الصورة والصياغة وجودة العمل الذي خرجا فيه^(٢).

وليست الصورة التي أنشدها في شعر مذحج، وأرغب في تناولها، وتحليلها، وإيضاح خصائصها مقصورة على التشبيه، والإستعارة، والكناية (الصورة الجزئية) إنما هي بجانب ذلك، ما يتماثل بوساطة الكلام الموحى والمصور، سواء كان لفظاً مفرداً أو جملة تركيبية، وأن هذا الإيحاء

(١) الحيوان/ للجاحظ / ١٣٢/٣ ، تحقيق عبد السلام هارون/ الياحي الطلبي / مصر/ طبعة ثانية.
(٢) دلائل الإعجاز/ لعبد القاهر الجرجاني ١٦٧ - ١٦٨ تصحيح محمد عبده ومحمود الشنقيطي، تعليق محمد رشيد رضا/ شركة الطباعة الفنية المتحدة القاهرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

التصويري لا يأتي من مدلول الكلمة المعجمي ابتداءً، إنما يأتي مما اكتسبه اللفظ أو التركيب الفني من دلالات وظلالات فنيّة عبر رحلته التاريخية أو بنيته الموضوعية.

والشعر تصوير، يصور صوراً نظرية، وسمعية، وشمسية ولمسية وذوقية ومتحركة، يستمد من التصوير المحسوس في جميع أشكاله وينفر من المجردات، ويرتاح إلى التشبيه والاستعارة والتمثيل والحركة، وما يوافق ذلك من تخطيط وتلوين، ومادته المعاني المحسوسة، التي تنبض بالحركة والحياة وخير تصوير ما أمعن في وصف الجزئيات، وما تضمن صوراً متتابعة متماسكة^(١). والذي يهمننا كشفه ويجب أن نُعنى به من مبحث الصورة في شعر مذحج أكثر من غيره هي تلك الصور الفنية المتكاملة، التي تترابط فيها الجزئيات ترابطاً بنائياً؛ لتفضي بنا في النهاية إلى بناء كلي متكامل. ونحن إذا ما أوردنا صورة جزئية فإننا لم نوردنا من باب الاحتفال بها على أنها ظاهرة أو خاصية جديدة في شعر مذحج، بل لأنها جزء من كل، أو أن فيها لمحة فنية لم نعهدنا في الشعر العربي الجاهلي والإسلامي، فالصورة الجزئية بذاتها - كما يقول الدكتور/ محمد أحمد العزب - قد تعطي حساً جمالياً من طريق تجسيد المعقولات لكنها تحبط في إعطاء حس بنائي إذا لم تحقق ذلك من خلال تآزر الصور ودخولها معاً في جدل علاقات بنائية تضيئ ظلها النهائي على القصيدة بما هي خلق فني

(١) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي / ٩٥ ، ٩٦ / روز غريب / دار العلم للميلان / بيروت سنة ١٩٥٢م.

متكامل، وليس مجرد إطارٍ شكليّ ينحني على نوعيات من الصور التي لا تنهض بينها بنائية أو حسّ تشكيلي^(١).

سيطرة البيئة على الصورة في شعر مذحج :

وأول ظاهرة تواجهنا ونحن نستعرض الصورة في شعر مذحج سيطرة البيئة، التي كان يعيش الشعراء في محيطها بمختلف أجزائها الزمنية، والمكانية، والطبيعية، والحيوانية، فلم يستطع شعراء مذحج أن يخرجوا من قبضة هذا المؤلف البيئي في الشعر الجاهلي، فجاءت صورهم متكئة على حيوانات الصحراء كالأسد، والذئب، والثعلب، وبقر الوحش، وحمار الوحش، والنّاقة والمهاة، والظّبَاء والرّئال، والسعالى، والحيّات. وعلى طيورها كالقطا، والنعام، والباز، والصقر، والعقبان، والرّحْم، والقمارى، والجراد، والنمل. وطبيعة تلك البيئة من جبال وصحاري ونخل، وأقحوان، وكمأة، بجانب الشمس والقمر، والنجوم، والكواكب، واللّيل، والنّهار، والسحاب، والمطر، والبرق، والرعد. فالأفوه الأودى يصوّر لنا معركة وقعت بين قومه وقوم من كعب، فيشبه قومه بالآساد في الشجاعة، ويشبه بني كعب في انهزامهم بالنعام، وهما حيوان وطائر من البيئة، حيث يقول^(٢):

غُدَاةٌ تَجَمَّعَتْ كَعْبٌ إِيْنَا

جِلاَثُبٌ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْحَرِيْبِ

(١) طبعة الشعر العربي / ١٣٢ / محمد أحمد العزب / مطبعة الفجر الجديد / مصر / طبعة أولى سنة ١٩٨٠ م.

(٢) الطرائف الأدبية ص ٨ .

فلماً أن رأوننا في وغانما
كأسادِ العرينةِ والحجيبِ
تداعوا ثم مالوا في ذراما
كفعلِ معانتي أمينِ الرّجيبِ
وطاروا كالنّعامِ ببطنِ قو
مواالة على حذرِ الرّقيبِ

والصورة وضحت شجاعة الأفوه وقومه عندما شبههم بالأساد التي تحامي عن العرين فهي تستमित حول عرينها فتظهر منها شجاعة زائدة عن العادة، وصور أعداءه في غاية الذلة والجبن والإنهزام، وزاد من ذلتهم عندما شبههم بالنعام في حالة هروبها فهي تتلفت حذراً وخوفاً من اللحاق بها، فهي لا تثق بنفسها حتى في الفرار، والأساد والنعام حيوانات وطيور من البيئة المحيطة بالشاعر. وشبهوا مشية الكمأة الشجعان بمشية الجمال الشابة القوية، التي تحمل أوساقاً من الطعام، وتخطر في تودة وثبات، وهي صورة كما نراها مستقاة من البيئة، حيث يقول الديان بن قطن الحارثي^(١):

صَبَحْنَا تَغْلِباً وَسِرّاً بِكِرِ
بِداهيةِ يشيبُ لها الوليدُ
كان كمانها بـزُلّ تخطأ
بأوساقٍ وقابلها سعودُ

(١) شرح قصيدة الدامغة ص ٢٦٧ .

وشبَّهوا الفرس عند استعراضه وهو مسرع بسرحان الغضا، حيث يقول
الأسعر الجعفي^(١):

وإذا هو استعرضتَه متمطراً

فتقولُ هذا مثلُ سرحانِ الغُضَا

وشبَّهوا الدروع وما يعلوها من حلقٍ وحديدٍ بالغدير الرقراق، الذي
تعلوه تجعدات من أثر الرِّيح به، وهي صورة من البيئة الطبيعية، حيث
يقول عبد المدان الحارثي^(٢):

وزَغَفُ من الماذي يَبْضُ كأنها

نهاءً مررتها بالعشياتِ شمالاً

ومن الصور التي تتضح فيها البيئة تشبيه الكتيبة من الجيش بجامعة
الجراد، حيث يصور لنا ذلك عبد يغوث الحارثي^(٣):

وعاديةٍ سومِ الجرادِ وزعتُها

بكفي وقد أنحوا علي العواليا

والصورة توضح لنا كثرة هذه العادية، وانتشارها، وإهلاكها كل ما أتت
عليه، كما هو حال الجراد الذي يسير جماعات منتشراً مهلكاً كل ما يأتي
عليه، والصورة الأجل في هذا البيت هي هذه الصورة التي جاءتنا دون أن

(١) الأصمعيات ص ١٤٠ .

(٢) الأغاني (دار الكتب) ١٢ / ٢٠ ، ٢١ .

(٣) الفضليات ص ١٥٠ .

تتكىء على أي نوع من المجاز، والذي وضحها قوله: «وقد أنحوا على العواليا»، فقد استطاع الشاعر أن يَصوِّرَ لنا الرِّمَاحَ في وضعٍ وهيئةٍ مخصوصة، وهي متجهة إليه، وسنعرض لمثل هذه الصور فيما يأتي من هذا المبحث.

وشبَّهوا الفتيات بالظباء، حيث يقول عمرو بن قيس المرادي يصف فتيات بيكين في ماتم فقال^(١):

في ماتم كظباء الروضِ قد قرَّحتُ

من البكاء على سَعْدَى مَاقِيهَا

وشبَّهوا الأسنان بالاقاحي، حيث يقول نافع بن أصغَةَ المَعَاوِي، يَصوِّرُ تَلَالُؤَ أسنان محبوبته وعليها ريقها بتلالؤ نبات الاقاحي الأبيض اللون بعد أن أصابه الندى^(٢):

وَتَبَسُّمٌ عن مثلِ الأَقَاحِي مسَّه

ندى ليليةٍ ظلت قصيرا نهارُها

وشبَّهوا طعنات السيوف والرماح في أجسام الخصوم بأفواه المزداد في مقدار فتحتها، وفي عمقها، حيث يقول فروة بن مُسَيْكِ المرادي^(٣):

سَيَمْنَعُكَ يَوْمَ اللِقَاءِ فَوَارِسُ

بطعنِ كَأَفْرَاهِ المَزَادِ اسبَكَرَتْ

(١) معجم الشعراء للمزرباني ٢٢٦ (كرنكو).

(٢) التعليقات والنوادر/ هندية/ ورقة ٦٥.

(٣) معجم البلدان ٢/ ١٨٨.

وشبه الأشر النخعي نفسه بالذکر من الأفعی، حیث یقول^(١):

إنی أنا الأفعی العراقی الذکر

والصورة توضّح لنا مقدار الهلاک الذی یحمله لعدوه، وسرعتة فی إلحاق
الضرر بعدوه فی سرعة وشراسة وخبث وخفاء.

ومن الصور الذی تمثّل البیئة تشبیه رؤوس القتلی من لابسی الدرّوع
بشجر الحنظل الملقی علی وجه الأرض، حیث یقول عبید الله بن الحرّ
الجعفی^(٢):

کأنّ رؤوس الدارعین عشیة

من الحنظل الملقی بکلّ صعید

والصور وضّحت لنا کثرة القتلی، وهیئة انتشارهم علی وجه الأرض.
وشبه أبو البقرات النخعی صیاح أعدائهم فی المعركة وذعرهم بصیاح وذعر
النیاق المسنة مما أصابها من الحر، حیث یقول^(٣):

وعجت بنو شجب عجیجاً کأنه

عجیج جمال تشتکی الحرنیبها

(١) وقعة صفین لنصر بن مزاحم ٣٩٦ .

(٢) منتهی الطلب من أشعار العرب لابن المبارک ٢/٢٥٨ / مصورة عن مخطوطة «لا له لی» ٩٤١
مکتبة السلیمانية فی استنبول / نشر معهد تاریخ العلوم العربیة والإسلامیة / جامعة
فرانکفورت / ألمانيا الاتحادیة.

(٤) التعليقات والنوادر لأبی علی الهجری رقم (١٢١) ج ١ ص ٩٤ تحقیق عبد الامیر الحمادی / دار
الرشید / العراق ١٩٨٠ م.

وشبّهت أمّ سِنِيانَ المَذْجِيَّةِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالهلال،
وشبّهت من حوله من أهله وأصحابه بالنجوم، حيث تقول^(١):

هَذَا عَلِيٌّ كَالهَلَالِ يَحْفَهُ

وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الكَوَاكِبِ أَسْعَدُ

فالشاعر العربي قد ألف في بيئته الصحراوية وسكنه بعيداً عن العمران
والبنيان المتناول صورة الهلال والكواكب فَحَطَفَتْ بَصَرُهُ واستَوَلَّتْ على
خياله فاتَّخَذَ الشاعر منها صورةً فنيّةً، وهذه الصورة التي رسمتها
الشاعرة تعطي علياً وأصحابه الرفعة والمكانة والشرف والعلو، بجانب
الجمال والتألُّو الذي يجذب أعينُ الأنصار والأعوان، كما تجذب هذه الأجرام
أعينُ الناظرين إليها، كذلك صورة تألُّو الهلال والنجوم في وسط السماء
المظلمة توحى لنا بأن النور والهدى والضياء إنما هو في عليّ وأنصاره وأن
سواهم هم ذلك الظلام الذي يحيط بهم، فعليٌّ وأنصاره ومن سار على نهجه
عند الشاعرة رمزٌ للحق الأبلج المضيء كضوء الهلال والنجوم، وأن أعداءه
رمز للظلم والباطل المظلم كظلمة سواد الليل الذي يحيط بالهلال والنجوم في
وسط السماء، وكلمة (وسط) في البيت / الصورة أوحى بِوَسَطِيَّةِ علي رضي
الله عنه وأصحابه ونهجه المعتدل الذي يأمر به الدين، وأنهم هم الفرقة
الوسط. ويصور لنا عمرو بن معد يكرب الزبيدي أرضاً قطعها قفراً خالية
من الأنيس ثم صور ما فيها من أصوات الجن وعزيفها وضوضائها في
هذه المَفَازَةِ المقفرة، وصور ما فيها من جيفِ المطي المترامية في أماكن عدة

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢٩٦/١.

من هذه الصحراء، وشبه بقايا تلك الجيف بالرّخم الواقعة، والصورة توحى بالوحشة المكانية المفزعة، وبالهلاك الذي يتربص بمن يغامر بالدخول فيها، ومن ثم توحى هذه الصورة بشجاعة الشاعر الذي استطاع قطع هذه الصحراء المخيفة، فالصورة توضح لنا جانباً من طبيعة تلك البيئة التي عاش فيها شعراء مذحج وتأثرو بها في صورهم، حيث يقول^(١):

وأرضٌ قد قطعتُ بها الهوامي

من الجنان سرّ بخها مليعُ

تري جيفَ المطيِّ بحافتيه

كان عظامها الرّخمُ الوقوعُ

وشبّه النجاشي الحارثي جيش علي في صفين بالسحاب المنهل مطراً حيث يقول^(٢):

بصفين إذ قمنا كأننا سحابةٌ

سحابٌ وئي صوبه متبادرُ

ويتضح جمال الصورة فيما يضيفه المشبّه به على المشبّه من إحياءات متزاحمة، تدل على خصب الصورة وامتلائها بالخيال الخلاق المبدع لعدد من المعاني التي تتسع لها الألفاظ وتشرّق بها، فالصورة توحى لنا بعظم الجيش، وكثرتة، وبطء حركته من خلال صورة السحابة العظيمة التي

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٣٤ .

(٢) وقعة صفين ص ٢٠٧ .

تسير في السماء وهي محملة مثقلة بما تحمله من المزن، والجيش كذلك مُثقل يتحرك ببطء لكثرتة وكثرة ما فيه من الحديد من دروع وسيوف ورماح، ثم صور لنا هذا التشبيه كثرة ما انهمر من الجيش على العدو من ضرب بالسيوف، وطعن بالرماح، ونبل بالسهام، حيث سال على العدو منهمراً كأنهمار المطر من السحاب، وأفادت الصورة كذلك سرعة الضرب والرمي من خلال كلمة «متبادر» وكيف أن ما لحق الخصم من هذه السهام والرماح والسيوف كان قد عمهم وشملهم جميعاً كما يعم المطر ويشمل الأرض.

ومن الصور المستقاة من البيئة وهي دقيقة ورائعة قول عُفَيْر بن جَنْدَل الحماسي^(١):

تلمعُ البيضُ فوقَ فرسانِهِ الغرِّ

كلمعِ الحبي فيهِ الرّعدُودُ

والشاعر هنا يصور لمعان السيوف في الجيش وهو يزحف من بعيد، بالضوء الذي يحدثه البرق في السحاب المتراكم المعترض بين الأفق والأرض كاعتراض الجبل، ثم يعقبه الرعد، واستطاع الشاعر أن يصور لنا من خلال هذا التشبيه صورة دقيقة، وهي صورة لمعان السيوف في الجيش العظيم المتلاطم، وهو يزحف لعدوه من بعيد متجهاً نحو المعركة، أفاد ذلك الصورة التي رسمها الشاعر للمشبه به، حيث أضاف اللّمعان للسحاب، وذلك لبعده، فالسحاب عندما يكون متراكماً وبعيداً ترى لمعان البرق ولا ترى

(١) التعليقات والنوادر/ المصرية ١٦٢، ب .

البرق، فيظهر للرّائي الضوء من خلال السحاب المتراكم ويعقبه الرعد، لذلك وجدنا الشاعر يضيف للمعان للسحاب ويذكر صوت الرّعد دون ذكر البرق، ومن خلال هذه الدقة في التعبير والتّخيل استطاع أن يخيّل لنا صورة جيشٍ عظيم، متلاطم، يسد الأفق، وهو يتجه نحو مكان المعركة، زاحفاً إليها، ولمعان السيوف تظهر من خلال عتمته التي أحدثها نغعه وغباره، الذي يعلو رؤوس الفرسان، فلا يتبين من سواده إلا لمعان السيوف خلال صورة حركة الجيش الزاحفة، وهذا تصوير دقيق للجيش في حالة خاصة من حالاته، والصورة مستقاة من البيئة.

إذاً من خلال تتبعنا المستفيض لهذه الصورة والتشبيهات نجد أنها مع اختلاف مآخذ صورها إلا أنها مأخوذة من محيط، الشاعر وبيئته، وأن التأثيرات الخارجة عن محيط الشاعر تكاد تكون معدومة على الرغم من أن بعض هذه الصّور لشعراء إسلاميين، ونلاحظ كذلك طريقة تناول الشعراء لهذه الصور، والتي تكاد تكون متقاربة، وحسيّة مادية في تناولها؛ لأنها مأخوذة من واقع الحياة والبيئة.

سيطرة الحياة الحربية على الصورة :

ولطبيعة قبيلة مذحج الحربية تكاد الصور الحربية تسيطر على أخيلة شعراء مذحج وتصويراتهم، ومازلنا نراهم يبالغون ويُلحّون في وصف المعارك وتصوير بدايتها ووسطها ونهايتها، وتصوير شجاعتهم خلال تلك المعارك وانهزام عدوهم، ويصورون قتل المعركة، وبقايا الأسلحة المكسرة، وألحوا كذلك في تصوير أدوات الحرب بدءاً بالفرس ومروراً بالدرع والسيوف

والرمح، ويتخذون لها في تصويراتهم رموز الصورة القويّة المبتوثة في قوى الطبيعة من حولهم، وما ذلك إلا تعبيراً رامزاً إلى شجاعتهم والطبيعة الحربية التي جُبِلَ عليها المذحجي، ووطن نفسه عليها.

ولقد وجه شعراء مذحج عيونهم الباصرة على المعركة من خارجها لتعطيهم صورة عامة لها، ومن داخلها لتعطيهم صوراً جزئية داخلية لها. فهذا الأفوه الأودي يصور لنا كتيبة الجيش وهي متجهة للمعركة، حيث ينقل لنا في صورة حركية صوتية، زحف الكتيبة حيث يقول^(١):

إذ عاينوا بالخبتِ رجراجة

تمشي ازدلافاً كازدلافِ العروس

فالصورة كما نراها وضحت لنا حركة هذه الكتيبة البطيئة لعظمتها، وصورت كذلك ما بداخلها من صخب وأصوات من خلال تصوّرنا «لازدلاف العروس» التي تمشي في ببطء وتؤدّة ويصاحبها الضجيج والصوت، والصخب الذي تحدثه النسوة، وضربات المزاهر، والدفوف.

وشبه عمرو بن رزّام الحنشي الصّدائي الحرب بالعجوز الشمطاء، وشبه غارتهم على عدوهم بالغداة وقتلهم إياهم، بأكل النار المتقدة لمادة وقودها حيث يقول^(٢):

ماذا تقولون في شمطاء قد لُقحت

وعُلقت بذوي الغاياتِ والهَمِمِ

(١) الطرائف الأدبية ص ١٧ .

(٢) التعليقات والنوادر/ هندية/ ٣١١ .

إننا صبحناهم بالعطفِ غاديةً

شعواء مثل وقودِ النارِ بالضرَامِ

فالصورة توضح لنا مقدار تأرجح الحرب وارتفاع هيجانها وشدة احتدامها. وشبهه يزيد بن عبدالمدان الحارثي الحرب في احتدامها بالرّحى ودورانها في حركة ساحقة لما بداخلها، وشبهه أصوات الجيش والجلبة التي تحدثها، بأصوات الرعد القوية، وشبهه أعداءهم في المعركة وهم منهزمون أذلاء، لا منجى ولا ملاذ لهم بالشياه في الصحراء التي فقدت راعيها الذي يحميها، فهي مذعورةٌ خائفةٌ مروعةٌ من أصوات الناهبين لها، أو من السّباع التي تريد افتراسها حيث يقول^(١):

أَتَوْنَا بِجَمْعِ يَضْلُعُ الْأَرْضَ رِزُهُ

لَهُ لَجِبٌ عَالٍ كَصَلِقِ الصَّوَاعِقِ

وَدَارَتْ رَاحَانَا وَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ

وَنَادَيْتُ أُخْرَى جِشْمُونِي مَوَاتِقِ

فكَانُوا كَشَاءِ غَابَ عَنْهَا رِعَاتُهَا

مَرُوعَةٌ بِالْجَوْفِ مِنْ نَعَقِ نَاعِقِ

وصور شعراء مذبح المعارك الحربية من داخلها فصوروا أصوات المقاتلين التي يطلقونها عند الضراب والطعان بأصوات الإبل عند حكها جلود

(١) شرح قصيدة الدأمة ص ٢٦١ .

جنوبها مما تحسّه من وَخْز الذَّبَاب الذي يقرصها، والصورة قد تعبر عن التَّأذي والتَّألم، أو أنها تعبر عن الراحة واللذة، فإن أُريد التَّألم فيمكن تفسير الصورة على أن الألم والتَّأذي الذي يحس به المقاتلون من جراحات السيوف وطعنات الرماح لا يتجاوز تلك الأصوات التي تصدرها الجمال عندما تحك جنوبها من قَرُص هذا الذباب لها.

وإن أُريد اللذة والراحة فتُفسر الصورة على أن تلك الأصوات التي يطلقها الأبطال عند ضربهم أعدائهم معبرين عن شجاعتهم فرحين بها وباستلذاز قتلهم لأعدائهم، شبه ذلك باللذة والراحة التي تحس بها الجمال عندما تحك جنوبها بشيء صلب لتزيل ما تحس به من وخز حشرات الشذا، وَالجُكُّ يعقبه لذة وراحة ولكن كلمة (الموت) ترجح إرادة التفسير الأول، حيث يقول الأسعر الجعفي^(١):

لا يشتكــــــــــــــــون الموت غير تغمغم

حك الجمال جنوبهن من الشذا

وصوروا أدوات الحرب، فصوروا الخيل، وهي منطلقة متوازية في سرعة واحدة بصورة السهام المرصوفة في تساوي قبل أن تُراش وتُنصل، حيث يقول يزيد بن مخرم الحارثي^(٢):

إذا أبـلـت أعنتها بناني

خـرجن نواشط كـالقـداح

(١) الأسمعيات ١٤٠ .

(٢) منتهى الطلب ١٣٦/٥ ب ، ١١٣٧ .

وقد أبدع شعراء مذحج ووقفوا طويلاً أثناء تناولهم صور الخيل، فوجدوا فيها متسعاً لتشبيهاتهم وشبهوها بكل عناصر القوة والجمال في سائر المخلوقات والحيوانات المحيطة بهم؛ ليجعلوها رمزاً للقوة والحياة والجمال لديهم، فشبهوها بالباز والصقر في الانقضاض ورسوموا لها صورة حركية رائعة دقيقة حيث صور الأسعر ذلك بقوله^(١):

أما إذا استقبلته فكأنه

بأز يكف أن يطير وقد رأى

وقال عبد المدان الحارثي^(٢):

سبوح إذا جال الحزام كأنه

إذا انجاب عنه النقع في الخيل أجدل

وشبهوها بالسبع في القوة وبالثعلب في السرعة وشبهوا ذوائب شعرها بذوائب شعر العروس التي أصلحتها ليلة عرسها، والتشبيه بالعروس يوضح لنا مكانة الخيل عندهم احتفاءً وعنايةً بها كما هي العروس، حيث يقول الشؤيعر الجعفي^(٣):

في نحره متقبضاً

كتقبض السبع الرمي

(١) الاصمعيات ١٤٠ .

(٢) الاغانى ٢٠/١٢ ، ٢١ (دار الكتب) .

(٣) الوحشيات ٤٦ ، ٤٧ .

يعدو كعدو الثعلب
المطور رَوْحُهُ العشي
تُدري ذوائبُهُ كما
تُدري إلى العرسِ الهدى

وشبه الأفوه الأودي الفرس بالجبل العظيم في الضخامة، والقوة، وشبه
يديه بيدي المهاة، ورجليه برجلي الظلِّيم من النعام، أو برجلي بقر
الوحش^(١):

ومضبر مثل ركن الطود تحمله
يدا مهاة ورجلا خاضبٍ يجفُّ
وصور الأسعر الجعفي الخيل بالحصون التي تمنع وتحمي من الهلاك،
وهو تصوير رائع مبتكر حيث يقول^(٢):

ولقد علمت على تجشمي الردى
أن الحصون الخيل لا مدرُ القرى
ولقد أعجب أبو هلال العسكري بهذه الصورة حتى قال: إن في حديث
رسول الله ﷺ ما يؤيد هذا المعنى ويؤكدده حيث يقول ﷺ عن إناث الخيل
(ظهورها حرز وبطونها كنز)^(٣)

(١) الطرائف الأدبية ٢١ .

(٢) الأصمعيات ص ١٤٠ .

(٣) ديوان المعاني ١٠٨/٢ . لابي هلال العسكري . نشر مكتبة القدسي بنة ١٣٥٢ هـ .

وشبهوها بالرّماح في الانطلاق، حيث يقول عبد المّدان الحارثي^(١):

يواعل جردا كالقنا حارِثَةً

عليها قنّان وإحمّاس وزعْبَلُ

وصور النجاشي الحارثي فرس معاوية رضي الله عنه، فوجدناه يأخذ له من كل حيوان أو مخلوق الصفة التي ينفرد بها، ويتميز بها، حتى نسج من الفرس هذا صورةً مثاليةً جامعة لكل بديع من الصفات، وهذه الخصوصية الصورية عند شعراء مذحج تعبر لنا كما يقول مصطفى ناصف — عند ملاحظته لهذه التشبيهات المتلاحقة في خدمة الفرس «هو تعبير عن حلم الشاعر العربي ورغبته في خدمة الإحساس بوفرة الحياة، فالفرس معوذة مزوذة بقوى كثيرة، وكأن الشاعر يريد أن يراها قادرة على مواجهة كل عدو، وكل نازلة، وقوة البطل في الأساطير ترجع إلى أن يتكون من عناصر متفرقة لا تجتمع في أحد سواه»^(٢). ومن هنا نجد النجاشي الحارثي ينتزع للخيل تلك الصفات المتميزة في سائر الحيوانات ويجملها له؛ لأنه يرى فيه البطل المُنقذ؛ فيقول^(٣):

ونجى ابنَ حربٍ سابِحٌ ذو غلالَةٍ

أجشُّ هـزيمٍ والرّماحُ دوانٍ

(١) الأغانى ١٢/١٠، ٢١ (دار الكتب).

(٢) دراسة الأدب العربي / مصطفى ناصف / ٢٤٥ — ٢٤٦ / دار الأندلس / ط ثانية ١٤٠١ / ١٩٨١ م.

(٣) المعاني الكبير ١/٢٤١، ٤١٧، معجم البلدان ١/٥٠، شرح القصيدة الدامغة ٢٨٥.

من الأعوجيات الطَّوَالِ كأنه
على شرفِ النَّقْرِيبِ شِثَاءُ أَرَانِ
سَلِيمِ الشُّظَى عِبْلُ الشَّوَى شَنِجُ النِّسَا
كسِيدِ الغُضَى بَاقٍ عَلَى النِّسْلَانِ
أَجْشُ هَزِيمٍ مَدْبِرٌ مَقْبَلٌ مَعَا
كَتَيْسِ ظَبْيَاءِ الحَلْبِ وَالغُذْرَانِ
كَأَنَّ بَمْنَهِي سَرْجَه وَقَطَاتِه
مَلَاعِبَ وَلَدَانِ عَلَى صَفْوَانِ
شَدِيدٌ عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ شَكِيمُهُ
يَفْرَجُ عَنْهُ الرِّبُو بِالْعَسْلَانِ
كَأَنَّ عَقَاباً كَاسِراً تَحْتَ سَرْجِه
تَحَاوَلُ قَرَبَ الوَكْرِ بِالطَّيْرَانِ
إِذَا ابْتَلَّ بِالمَاءِ الجَمِيمِ رَأَيْتِه
كَقَادِمَةِ الشَّوْبُوبِ ذِي النِّفْيَانِ
كَأَنَّ جَنَابِي سَرْجِه وَلجَامِه
مِنَ المَاءِ ثُوباً مَائِحَ خُضْلَانِ

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١٠٧ سنة ١٣٨٥ / ١٩٦٦ م.

من الورد أو أحوى كأن سراته

بُعَيْدَ جَلَاءِ صُرُجَتِ بَدَهَانِ

جزاءً بنعمي كان قدّمها له

بما كان قبلُ الحرب غير مهانٍ

وهناك صور عدّة للخيل مبنوثة في شعر مذحج يضيق المقام باستقصائها. وصور شعراء مذحج السيوف والرّماح في وسط المعركة فشبهاوا الصورة المؤلفة من كثرتها، ودوام بقائها، وما تحدثه في وسط المعركة من لمعان، وتوهّج مضيء متلألئ، فتملاً سماء المعركة وتعمره، شبهاوا هذه الصورة بصورة رؤوس شيوخ اليهود التي اختلط فيها بياض الشعر بسواده والتي امتلأت بها الكنائس لدوامهم على العبادة، حيث يصور ذلك عمرو بن معد يكرب فيقول^(١):

عَمَرْتُ مَجَالَ الخيلِ بالبِيضِ والقَنَاءِ

كما عَمَرْتُ شمطُ اليهودِ الكنائسَا

والصورة تفيد كثرة المداومة على الحرب واتخاذها كالعبادة التي لا يمكن لصاحبها تركها لأن في تركها إثماً ومخالفة لما هو واجب. أما سِمَاكُ بن حَرْشَةَ الجعفي فيوضح لنا صورة أخرى من وجه المعركة، فيصور لنا حالهم عند اقتحامهم لها وتقديمهم في وسطها إذا ما احتدمت وهاجت، وصور هذه الحالة التي هم عليها بصورة من أصابه السُّعار فهو يهلك كل

(١) شعر عمرو بن معد يكرب ١١٢.

من أتى عليه، وهي صورة توضح لنا شجاعتهم وتحقيق ذواتهم في الحرب،
حيث يقول^(١):

لقد علمت غسانُ عند احتدامِها

بأننا لدى الهيجاء مثلُ السعائرِ

ثم يشبه تهيج الحرب وتحركها واتقادها بتهيج ضرع الدابة وتجمع
اللبن فيه عند إرادة حلبها، وصور الأسباب المساعدة على استمرارها
بالجبال الرواسي التي تثبت الأرض، وشبه أنفسهم داخلها بالأسود، حيث
يقول^(٢):

ترانا إذا ما الحربُ درتُ وأنشبتُ

رواسيها في الحربِ مثل الضبَاطِرِ

بيد أن الشاعر لم يوفق في تشبيه الحرب، وسرعة هيجانها، بضرع الدابة
المتهيج لدر اللبن، لأن الضرع فيه خير، وغزارة، وعنصر بقاء، وحياة، وهو
اللبن، أما الحرب ففيها الموت، والهلاك، والفناء، فالخلاف واضح بين المشبه
والمشبه به.

أما الأشر فيشخص لنا الحرب، فيجعل لها نابا تكشر به، وأنها تغضب
فإذا ما غضبت مزقت ثيابها وغلقت أبوابها فهي شرسة، حنقة، شديدة،
محتدمة، مطبقة على من يخوضونها، وفي تمزيقها أثوابها تصوير لتكشفيها

(١) وقعة صفين ص ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

عن مصائبها حتى تظهر ممقوتة، عارية واضحٌ منها مشاهد الفضحية لمن
ينظر إليها، حيث يقول^(١):

إني إذا ما الحرب أبدت نايها

وغلقت يوم الوغى أبوابها

ومزقت من حنقٍ أثوابها

كُنَّا قَدَامَهَا ولا أَدْنَاهَا

وشبه عمرو بن معد يكرب وطء الخيل لجثث القتلى وقت احتدامها، وفي
نهايتها بعد سقوط القتلى حتى تتكسر عظامها، شبه هذه الصورة بصورة
الطبّاخ الذي يدوس ويكسر رؤوس العظام المطبوخة مع اللحم وسط القدر
الذي يطبخ فيه، حيث يقول^(٢):

لُدسناكُمْ بالخيلِ من كل جانبٍ

كما داسَ طبّاخُ القُدورِ الكرادسا

ومن خلال استعراضنا لصورة الحرب والمعارك لشعراء مذحج وهي
الصورة المسيطرة على مخيلة شعراء مذحج - يتضح لنا من هذه الصور
الحربية شجاعة قبيلة مذحج وفخرها بهذه الشجاعة، كذلك توضح قوة
القبيلة، ومكانتها بين القبائل العربية.

(١) شرح نهج البلاغة ٢١٢/١ . لابن أبي الحديد (طبع دار الحياة)

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١١١ .

وتوافر شعر مذحج على صور هجائية عدّة: صور شعراء مذحج من خلالها مواقف خصومهم الذليلة الانهزامية في الحروب خاصة، ومن تلك الصور قول الأفوه الأو دي مصوراً انهزام أعدائهم في ذل وعار وصورة مضحكة^(١):

فولوا هـاربين بكل فجّ

كأن خصاهم قطع الـوذاب^(٢)

وصور الأسعر الجعفي قومه في صورة هجائية حيث يقول^(٣):

كفيت حـريماً ومـرانها

مـراساً وخـلّيتهم للـفخـار

فلا تـدعـوئهم إلى نجـدة

وإلا فهـيب بهـم من تجـار

زـعـانف سودّ كخبث الحديد

يكفي الثـلاثـة شـيق الإزار

فالآبيات تصوّر أنهم جبناء وليسوا أهل حرب وشجاعة، وأنهم مثل خبث الحديد الذي ينفيه الكير، وأن الهوان والنقص بلغ بهم أن الثلاثة منهم

(١) الطرائف الأدبية ص ٧ .

(٢) الـوذاب خرب المـزادة ولأكراس التي يجعل فيها اللبن ثم تقطع، (اللسان، وذب).

(٣) الوحشيات ٢١٣

يكفيهم شق الإزار، وهذا يدل على النقص من شأنهم. ومن الصور الهجائية قول بعض شعراء بني الحارث بن كعب^(١):

سَأَخَذَهَا غَضِباً وَشَيْبٌ لِحَاهِمُ

لَهَا عُقْلٌ مَفْتُولَةٌ وَقِبَال

حيث أخرج لحاهم في صورة عَقْل البعير، وأذن الناقة أو الشاة إذا ما شقت وفنتت وهي صورة مزرية في منظرها وموضعها.

واستخدم عبيد الله بن الحر في تصوير خصومه مجموعة من الصور الشعرية المتحركة فهم عنده كالمعز الذي تحنى خشية الذئب بالصخر، وقد جمع فيها كثيراً من أمارات الخوف والتذلل لهذه المعز الخائفة اللائذة^(٢).

وكان قد قابلهم عند إيوان كسرى وصور كيف اختبئوا في ذلة وانكسار في ردهات القصر فراراً منه، ثم جعلهم في صورة أخرى مثل الحمام التي تلون من الصقر وهذه الصورة تعطينا نموذجاً آخر من نماذج الهروب والخوف والتستتر^(٣). حيث يقول^(٤).

(١) قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ١١٦ تحقيق الشاذلي بويحي / المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.

(٢) شعراء أمويون / ٨٧ ، ٨٨ جمع وتحقيق ودراسة نوري حمود القيسي / طبع بمطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ١٢٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٥٠٦/٣.

سلوا ابنَ رُوَيْمٍ عن جِلادِي وموقِفِي

بِإِيوانِ كِسْرَى لا أولِيَهُمْ ظَهْرِي

أَكْرَرَ عَلَيْهِم مَعْلَمًا وتَبْرَاهِمُ

كَمَعزَى تَحْنَى خَشِيَةَ الذَّبِّ بالصِّدْرِ

وَبَيْتُهُم فِي حَصَنِ كِسْرَى بنِ هُرْمَزُ

بِمَشْحُوذَةٍ بِيضٍ وَخَطِيئَةٍ سُمْرِ

وَأَجْزِيَّتُهُم طَعْنًا وَضَرْبًا تَبْرَاهِمُ

يَلْوِذُونَ مَنَا مَوْهِنًا بِذُرَى القَصْرِ

يَلْوِذُونَ مِنِّي رَهْبَةً وَمَخَافَةً

لِوَإِذَا كَمَا لِأَذِ الحَمَامِ مِنَ الصَّقْرِ

والصورة توحى لنا بالذعر، والاضطراب، وخفض الرأس، الذي هو رمز
الذل والمهانة، أوحى بذلك (تَحْنَى، تَلْوِذٌ، تَرْهَبٌ، تَخَافٌ).

فالشاعر استطاع في صورة هجائية أن يصور ضعف عدوه، وعدم
قدرته على حماية نفسه، وعلى ذلهم كذلك، فنراه يرمز لهم من الحيوانات
بالأليف منها، وبأكثرها خوفاً وفراراً، وهي الماعز، ومن الطيور رمز لهم
بأضعفها على حماية نفسها، وأكثرها وداعة وهي الحمام، ثم لاحظ عند
رسم الصورة ذلك التسلط الذي حفظته لنا الطبيعة من الذئب للمعزي، ومن

الصقر للحمام، لتكون الصورة أكثر وضوحاً، وأشدَّ إحياء، وتصويراً،
لموقف الهجاء.

وصور عبَّيد الله كذلك قيس عيلان والأزد في صور هجائية، حيث شبه
رجال قيس عيلان بالنساء، فألبسهم البراقع على لحاهم، وأبدلهم بالسيوف
في ساحات الوغى المغازل التي تصنع بها النساء الصوف، وجعل البيوت
مكانهم، وشبه سيوف الأزد بعد أن قعدوا عن القتال، بالمناجل التي يحشُّ
بها الزرع، وشبه لحي شيوخهم بلحاء التيوس بعد أن ترد الماء فتزداد
صورتها ازدياداً من تبللها بالماء، حيث يقول^(١):

ألم تر قيساً قيسَ عيلان برقعتُ لحاها

وباعت نَبَّأها بالمغازلِ

ومازلتُ أرجو الأزدَ حتى رأيتها

تقصرُ عن بنيانها المتطاولِ

ومقتلُ مسعودٍ ولم يثأروا بهِ

وصارتُ سيوفُ الأزدِ مثل المناجلِ

وما خيرُ عقلٍ أورثَ الأزدَ ذلَّةً

تُسبُّ بهِ أحياءُهم في الحافلِ

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب، لابن المبارك، المجلد الأول، الجزء الثاني، ورقة ٢٦١ مصورة
عن مخطوطة (لاله، لي)، ١٩٤١م، المكتبة السليمانية، استنبول. نشر معهد تاريخ العلوم العربية
والإسلامية، جامعة فرانكفورت/ ألمانيا الاتحادية.

على أنهم شمطٌ كأن لحاهم

لحاء تيسٍ حُليت من مناهل

وحظيت المرأة بصور غزلية متعددة في شعر مذحج: فسوروا ملامح جمالها تصويراً حسيّاً، وصوروا أحاسيسهم النفسية تجاهها، واختاروا من عناصر الطبيعة أجملها، وألطفها، وأرقها، ليرسموا لنا من خلالها تلك الصور الغزلية، التي اختزنتها عقولهم لها. ولا أكاد أتجاوز الحق إذا قلت إن تلك العلاقة بين الحرب والمرأة في حياة العربي هي التي جعلت شعراء مذحج - وهي القبيلة المحاربة - شديدة الاهتمام بالمرأة وذكرها، فمن خلال المرأة يستطيع شعراء مذحج أن يحققوا بطولاتهم وذواتهم الشجاعة في ساحات المعارك، وأن الفروسية التي امتاز بها كثير من شعراء مذحج ربطوها بالمرأة حباً، وحماية، وتحقيقاً لجدارتهم بها، أمّاً، وأختاً، وحبیبة، وزوجة، فهذا عمرو بن معد يكرب - وقد رأى نعر نساء قومه، وهن يهربن خشية السبي، وكانت محبوبته ليس بينهن، وقد تكشف عنها حجابها - لا يتوانى أمام هذه الصورة إلا أن يكرّ على أعدائه ليحمي عرضه ونساءه فيقول^(١):

لما رأيتُ نساءً نساءً

يفحصنَ بالمعزاء شداً

وبندتْ لميسُ كأنها

ببدرُ السماء إذا تبداً

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٦٤.

وَبَدَّتْ مُحَاسِنُهَا الَّتِي

تُخَفِّي وَكَأَنَّ الْأَمْرَ جَدًّا

نَازَلْتُ كِبْشًا هُمْ وَلَمْ

أَرَّ مِنْ نَازِلِ الْكِبْشِ بَدًّا

فالشاعر يصور لنا جميع النساء في صورة عامة، وهن يحاولن الفرار وقد أثرن بأقدامهن الهاربة في أرض المعركة، ثم يسלט نظره في الصورة العامة ليرسم لنا صورة أخرى أكثر دقة وسط هذه الصورة العامة لحبيبتة ليس من بين جمع النسوة، وكأنه يوحي لنا بأن جمال صورتها ميّزها بالظهور من بين النسوة حتى ظهرت بينهم كأنها البدر بين سائر النجوم، ثم صور لنا الشاعر منظرًا ثالثاً أكثر دقة داخل صورة ليس العامة، وهي صورة مفاتن ليس التي تكشفت مما يسترها من الثياب، وهنا نجد الشاعر استطاع بفنّه ودقة تصويره أن يصوّر لنا ثلاثة مناظر متداخلة، كل منظر يؤدي للمنظر الآخر، أو قل بالأحرى كلّ صورة تجذب لتميّزها عين الشاعر الباصرة المصورة، وهذا يوضّح لنا تميّز المنظر المصوّر من سائر المناظر، ودقّة عين الشاعر الراصدة والمصورة.

أما الأقوه الأودي فيصور لنا جمال المرأة الحسيّ، فيصور شعرها بأنه طويل مسترسل فاحم اللون أسود، وأنها ذات عيون واسعة؛ لذلك كان برقعها واسع الفتحات، ثم يشبه أطرافها بالسّيور الحمر الممتدة، أو بشجر العنم حيث يقول^(١):

(١) الطرائف الأدبية ص ٢٠ .

سودّ غدائرُها ، بلجّ محاجرُها

كأن أطرافها لما اجتلى الطنفُ

ونحن نرى أن الشاعر ركّز على الأجزاء التي هي مواطن جمال المرأة، وملامح الحسن التي تفخر وتتباهى بها، فكأنه أدرك ذلك فوصفه، وغالباً ما تتباهى المرأة بجمال شعرها، وعيونها الواسعة، وأطرافها الناعمة، وتتعمد إظهارها بين أترابها؛ لتفخر بها عليهن، فأدرك الشاعر هذه المواضع فركّز عينه المصوّرة عليها، ونقل لنا من خلال هذه الانتقائية صورةً لجمال المرأة.

وصور نافع بن أصغة المُعاويّ محبوبته بأنها رقيقة، ناعمة الملمس، ذات مشية جمالية هادئة، ثم صور لنا عظم معصمها وساقها عندما ذكر بأن سوارها وحجلها يدخلان كرها في مواضعهما، أي أن موضع السوار والحجل منها ممتلئ، وضخم، وبذلك استطاع أن يصور لنا سيمنها، والسمن كان شيئاً محبوباً عند العرب، وهو من مقاييس الجمال لديهم، إذاً فقد صور لنا الشاعر جمال محبوبته القائم على هذا السمن، والرقّة، والنعومة، والمشية الهادئة، ثم وَشَى لنا هذا الجمال بإلباسها السوار، والحجل، وهما متممّان لجمال المرأة، فيقول^(١):

منعمّةٌ تمشي الهويّني إذا مشت

ويدخلُ كرهاً حجلها وسوارها

(١) التعليقات والنوادر! مندية/ ورقة ٦٥

وكأن هيئة مشيتها البطيئة تدل بجانب دلالتها على سمنها أنها ذات خَدِمٍ وَحَسَمٍ، لا أحد يستعجلها لنفعة، أو قيامٍ بِعَمَلٍ شَيْءٍ من أعمال البيت، التي تقتضي منها سرعة المشي، والصورة نقلت لنا جمال شكلها وجمال حركتها.

وصور لنا جعفر بن علبة الحارثي بياض وتلألؤ أسنان محبوبته ظهوراً واختفاءً إذا ما ابتسمت عند التحدُّث، شَبَّهَ هذه الصورة بصورة حركة لمعان البرق، حيث يقول^(١):

كَأَنَّ رَفِيفَ الْبَرْقِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

إِذَا حَانَ مِنْ بَعْضِ الْحَدِيثِ بِاتْسَامُهَا

والجميل في الصورة دِقَّتُهَا التي تصور هذه الحركة الهادئة اللامعة الخفيفة التي تحدثها أسنان المحبوبة عند ظهورها واختفائها تبعاً لتبسمها أثناء الحديث، وكيف استطاع الشاعر أن يجعل هذه الحركة التصويرية المضيئة اللامعة تشغل الحيز المكاني بين الشاعر ومحبوبته، وهذه الحركة اللامعة التي تظهر وتختفي تبعاً للابتسامات التي تتخلل الحديث يدل على الراحة النفسية التي كانا يحسان بها أثناء حديثهما، لأن الابتسامة تخفي وراءها هذه الأحاسيس والمشاعر. والصورة تدل على رهافة أحاسيس الشاعر وقدرته التصويرية.

وشبه عمرو بن معد يكرب أسنان الأبقار بالبرَد في البياض، والريق على

(١) المصدر السابق / المصرية / ١٢٢٠

عوارض الأسنان بالخمرة في العذوبة، وحمرة اللثة فوق الأسنان بالرمان
اليانع في الحمرة، حيث يقول^(١):

إِذَا يَضْحَكُنَّ أَوْ يَبْسِمُنَّ يَوْمًا

تَرَى بِرَدَاً أَلْحَ بِهِ الصَّقِيعُ

كَأَنَّ عَلَى عَوَارِضِهِنَّ رَاحًا

يَعَضُّ عَلَيْهِ رَمَانٌ يَنْبِغُ

وصور كذلك ثياب الأبيكار فوضح ألوانها، وما فيها من خطوط فقال^(٢):

وَصَبِغٌ ثِيَابِهَا فِي زَعْفَرَانِ

بَجَدَّتْهَا كَمَا أَحْمَرُ النَّجِيعُ

وشبه عمرو بن معد يكرب كذلك سلمى بظبية ذات طفل، وصور
شعرها بأنه ناعم شديد السواد، مسترسل، مناسب في تموج على جيدها
وصدرها، حيث يقول^(٣):

كَأَنَّ سَلْمَى ظَبِيَّةٌ مُطْفِلٌ

تَرَعَى حِقَافَ الرَّمْلِ مِنْ أُرْزَنَاءِ

تَنْشُرُ وَحْفَاءً مُسْتَبَكَّرًا عَلَى

لِبَاتِهَا أَسْوَدَ مُغْوَدُونَ دَنَاءِ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ص ١٢٩ .

(٢) السابق ١٣٠ .

(٣) السابق ١٥٥ .

وقوله (مطفل) تشحن الصورة بالحنان ومشاعر الأمومة وعطفها التي تتمتع بها صاحبة الصورة، وتجعلنا ننظر لها بروح العطف والحب والمودة، ولم تقف مخيلة شعراء مذبح التصويرية عند تناولهم صورة المرأة على تلك الصورة الحسية المادية التي تقف عند تصوير الوجه والشعر والعيون والثغر والشكل الخارجي بل صوروا لنا أحاسيسهم الروحية ومشاعرهم العاطفية تجاه المرأة، فنقلوا لنا من خلال هذه الصور الغزلية الروحية موقفهم من المرأة وأنهم لم ينظروا لها على أنها لذة حسية ومتعة جسدية ليس غير، وهذا يفسر لنا اختفاء الصور الفاحشة الفاضحة في شعر مذبح الذي تناول صورة المرأة.

فمن تلك الصور الغزلية الروحية العاطفية: التي توضح أحاسيس شعراء مذبح ومشاعرهم تجاه المرأة وأن علاقتهم بها كانت روحية عاطفية قبل أن تكون حسية مادية تلك الصورة التي رسمها لنا جعفر بن علبة الحارثي والتي وضح من خلالها خيوط وحبال المودة والمحبة والأحاسيس والعواطف والمشاعر الروحية التي تشد قلبه لمحبيبته وهو في سجنه، حيث يقول^(١):

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينِ مُصْعِدُ

جَنْيِبُ وَجْثَمَانِي بِمَكَّةَ مَوْثِقُ

(١) الأغاني (دار الكتب) ٥٠/١٢ وحماسة أبي تمام (عسيلان) ٦٥/١ ، وكتاب الزهرة القسم الأول

عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنِّي تَخَلَّصْتُ
 إِلَىٰ وَبَابِ السَّجْنِ بِالْقُفْلِ مَغْلُقُ
 عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَسَرِبُ أَتَتْ بِهِ
 بُعِيدَ الْكَرَىٰ كَادَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَشْرُقُ
 فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَعْتُ بَعْدَكُمْ
 بِشَيْءٍ وَلَا أَنِّي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرَقُ
 وَلَا أَنَّ قَلْبِي يَزْدَهِيهِ وَعَيْدُهُمْ
 وَلَا أَنِّي بِالْمِثْيِ فِي الْقَيْدِ أَخْرَقُ
 وَكَيْفَ وَفِي كَفِّي حُسَامٌ مَذَلُّقُ
 يَعْضُّ بِهَامَاتِ الرَّجَالِ وَيَعْلَقُ
 وَلَكِنْ عَرَّتْنِي مِنْ هَوَاكِ صَبَابَةٌ
 كَمَا كُنْتُ أَلْقَىٰ مِنْكَ إِذْ أَنَا مُطْلَقُ
 فَأَمَّا الْهَوَىٰ وَالْوُدَّ مِنِّي فَطَامِحُ
 إِلَيْكَ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوْتَقُ
 أَلَمْتُ فَحَيَّتْ ثُمَّ قَامَتْ فَوَدَّعَتْ
 فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتْ النَّفْسُ تَرَهَّقُ

فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى وَدِدْتُ بِأَنْنِي

بَمَا فِي فِئِوَادِي مِنْ دَمِ الْجَوْفِ أَشْرَقُ

فجعفر هنا يصور لنا لقاء وقع بينه وبين حبيبته وهو في سجنه وهذا اللقاء كان في الحلم، وقد قدّم الشاعر لهذه الصورة الغزلية الروحية الشعورية، بصورة نفسية لحاله في السجن، حيث صور لنا تعلقه النفسي والفكري والروحي بمحبوبته مع أن شخصه مقيد في مكة، فقد جعل حبه وهواه يرتحل به مع المرتحلين لموطنه. ثم صور تلك الزيارة الخلسة التي قامت بها محبوبته له في سجنه، وكيف أن ذلك الحب الشديد بينهما استطاع أن يختصر الزمان والمكان، ويتجاوز العقبات والموانع الطبيعية، حيث استحالت أبواب السجن وأقفاله أمام قوة الحب وعنفوانه إلى عدم، وفقدت خاصيتها المانعة، والصورة توضح كذلك مكانة محبوبته هذه المرموقة وعظمتها من خلال هذا الوفد النسائي الذي جاء معها مرافقاً لها في هذه الزيارة، وقد شبّهن الشاعر بسرب القطا، وصوّر لنا جمال محبوبته وجمال المرافقات لها، وكيف أن بهاءهن وشدة بياضهن بدداً الظلام - وكأنه يشير لظلمة السجن - وأحالت الظلمة نوراً مشرقاً، ولا يفوت الشاعر أن يصور لمحبوبته أمام صويحباتها، شجاعته وشدة تحمله لوقع الزمن وأقداره - ويمكننا أن نحس من خلال هذا الموقف التصويري للشجاعة، النزعة الحربية والشجاعة التي جبل عليها أبناء هذه القبيلة - ثم صور لنا تلك الرعشة والهزة التي غمرته عند رؤيتها، وأنها ليست خوفاً أو خشية من أعدائه، أو خوراً من السجن، وإنما هي من أثر حبّها عليه، وذكر لها أن هذه الحالة التي أصابته مثلها مثل تلك الحالة العاطفية والشعورية

التي كانت تصيبه، وكان يحس بها عند كل لقاء يلقاها فيه - وهذه صورة نفسية يحب الفارس أن يظهر بها أمام محبوبته اشتهر بها الفرسان من المحبين - ثم صور لنا لحظات الوداع بعد أن نعما باللقاء، فصور تلك الحالة الشعورية التي أصابته وهو يودعها، فصور غصة الفراق ومرارته بقوله «كادت النفس تزهق» وقوله «بما في دم الجوف أشرق» ونحن نجد ونلمس أن خيال الشاعر الذي صور لنا هذه الصورة اللقائية مشوبٌ بعاطفة حب صادقة، ورائعة، تجلت في هذه الخطابات القولية التي حشدها الشاعر للتعبير عن حبه، وشجاعته، واعتذاراته لمحبوبته، ولكن انشغال الشاعر بذلك العجب الذي كرره مرتين في أبيات الصورة أضعف من الدهشة وأضعف من انصرافه الكامل للحبيبة الزائرة التي فوجيء برؤيتها، حيث كان الأولى له أن يلتفت بكفه إلى محبوبته والحديث معها والسؤال عن حالها، وأن يعلق نظره بشخصها في دهشةٍ وشغفٍ واستيلاءٍ منها على كل أحاسيسه، ومدركاته، واهتبالٍ منه للحظات اللقاء، لا أن يتفرغ للعجب من كيفية وصولها إليه وكيفية تَحَطُّبِها أبواب السجن وأقفاله، حتى وجدنا أن هذا العجب والتفكير فيه قد اختلس منه وقتاً كان من الواجب أن يكون للحبيبة، ولو تجاوز هذا لكانت الصورة أعظم وأجمل وأبلغ في تصوير لحظات الحب، لقاءً ووداعاً، في حالة إشراقية وإحساس شعوري، وعواطف ملتهبة، مع ذلك فقد أحسن الشاعر تلك الحالة النفسية التعلُّقية، التي صور لنا من خلالها تعلقه بمحبوبته، - حيث إن هذا التعلق الذهني هو الذي مهد - ابتداءً - لهذه الصورة اللقائية، والوداعية التي رسمها الشاعر لزيارة محبوبته له حلماً في سجنه، فالنائم غالباً ما يحلم بما هو مستَوَلٍ على ذهنه

حالة صحوه بخاصة قُبيل نومه، أي أن العقل الباطن عبْرَ الحلم هو الذي رسم لنا هذه الصورة الغزلية، ومن هنا يمكننا أن نقول: إن العقل الباطن المتحرّر من كل سيطرة قد ظهر أثره في رسم الفنية في شعر مذحج، وأن شعراء مذحج قد استوحوه وتمثلوه في صورهم الفنية.

إذاً فشعراء مذحج في صورهم لم يكونوا حسيّين ماديين مطلقاً، بل احتوت صورهم بجانب الحسية والمادية على الصور النفسية، التي تصور خلجات النفس، وأحاسيسها، وشعورها، وهيجانها، واعتدالها، واضطرابها، ورضاها، وغضبها، وأن هذه الصور النفسية لم تكن مقصورة على الصور الغزلية، بل صوّرت حالة النفس في مختلف اتجاهاتها، من ذلك هذه الصورة التي نقلها لنا الأشتر النخعي لنفسه الثائرة المضطربة، التي تجيش وتفور بالحنق، والغضب على عدوه حتى شَبَّهَهَا بالقدر التي تغلي وتضطرب بما في داخلها، حيث يقول^(١):

تَغْلِي بِهِ عِنْدُ اللَّقَاءِ قِدْرِي

وصورت لنا أم سنان المذحجية، ما ألم بها من الهموم والأحزان التي تعاورتها بسبب تلك الحروب التي شنّها خصوم علي عليه، وكيف تحولت حالتها النفسية إلى قلق واضطراب نفي النوم عن هينيتها فقالت مشخّصةً ومجسّمةً هذه الهموم والأحزان حيث جعلت الليل شخصاً يسوق الهموم والأحزان إلى نفسها كما يسوق الراعي الأنعام لحياض الماء، ثم ما يلبث أن يعود بها بعد أن تمتلئ بطونها بالماء حيث تقول^(٢):

(١) وقعة صفين ص ٤٤ .

(٢) العقد الفريد ٢٩٦/١ لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان / طبع دار الفكر.

عزب الرِّقَادُ فمقلتي لا ترَقُدُ

والليلُ يصدرُ بالهمومِ ويورِدُ

والصورة تشخص كذلك الهموم والأحزان وتجعلها حية متحركة، تختلف على الشاعرة رَوْحةً وجِيئةً، حتى أمست ذات حالةٍ نفسيةٍ قلقيةٍ مزعجةٍ، فهي لا تهدأ ولا ترقد في هذا الليل، والصورة توحى لنا بأن هذه الهموم والأحزان ما تلبث بطول الليل أن تَثْقُلُ بعد تواردها على نفسِ الشاعرة كما تَثْقُلُ الأنعام الصادرة من الماء بعد شربها وامتلاء بطونها.^(١)

وصور عُلبَة الحارثي حالته النفسية الحزينة القالقة على مصير ابنه جعفر وهو في سجنه، فصور حذره وترقبه للأخبار التي ينتظرها عن ابنه، ومن خلال اسقاطه لهذه الحالة على نفسه طول الليل وثقله عليه، حتى لم يعد يسأيه عن همومه وأحزانه شيء، حيث يقول^(٢):

لَعَمْرُكَ إِنَّ اللَّيْلَ يَا أُمَّ جَعْفَرٍ

عَلَيَّ وَإِنْ عَلَّلْتَنِي لَط_____وَيْلُ

أحاذرُ أخباراً من القومِ قد دَنَّتْ

وأوبئةً أنقِضَ لهنَّ زَيْلُ

وأسقط شعراء مذحج بعض حالانهم النفسية على بعض الحيوانات المرتبطة بحياتهم التي تخالطهم في حياتهم اليومية كالفرس والناقة،

(١) العقد الفريد ٢٩٦/١ لابن عبد ربه .

(٢) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٢٩ ، ٣٠ .

فصوروا خلجاتهم النفسية من خلالها، وكأنهم يعبرون عن مدى مشاركة هذه الحيوانات لهم وذلك لشدة ارتباطها بهم وقربها منهم، وقد صور لنا الأسعر الجعفي صورة نفسية لفرسه مخالفة لهمة التي يتطلع هو إليها، صور ذلك من خلال بعض الكلمات الموحية التي أوحى لنا بحركة الفرس، وصورته، وأقصى همته، وتطلعاته، حيث يقول^(١):

أُرِيدُ دِمَاءَ بَنِي مَازِنِ
وَرَأَقَ الْمَعَلَى بِيَاضِ اللَّبَنِ
خَلِيطَانِ مُخْتَلَفُ شَأْنُنَا
أُرِيدُ الْعُلَا وَيُرِيدُ السَّمْنَ
إِذَا مَا رَأَى وَضِحاً فِي الْإِنَاءِ
سَمِعَتْ لَهُ زَمْجراً كَالْمِغْنِ

فقد صور لنا بقوله «يريد السمن» مدى تدني همته وحقارة تطلعه، وكان الأسعر بهذه الصورة التي رسمها لفرسه المخالفة لما هو عليه، أراد أن يصور من خلال الفرس، ما يوضح هممة بعض قومه التي قعدت بهم عن الأخذ بثأر أبيه، وكان همهم اللبن والسمن دون الحرب، فأخذوا الدية، وقعدوا عن القتال الذي فيه عزهم، ورفع شأنهم.

أما النجاشي الحارثي فقد صور لنا حالته النفسية من خلال ناقته، تلك الحالة من الغربة التي يحس بها وهو في العراق بعيد عن وطنه نجران،

(١) أنساب الخيل لابن الكلبى ص ١٠٨ .

حيث صور ناقته نأدة شاردة من البلاد التي جاء بها إليها فلم تطق طعم ماء الفرات العذب الرقراق، حيث استحال بسبب هذه الحالة النفسية التي أصابتها بسبب الغربة إلى سُم زعاف مُر كالحنضل والمقر^(١). وصور لنا تلك الغربة كذلك من خلال نفورها، وفزعها، لما رأت أشخاصاً لم تألف رؤيتهم في الصحراء العربية النقية وهم (النَّبِيط) وسفناً مطلية بالقار لم تتوطن على الاكتحال برؤيتها، كل هذه الصور التي تظافرت لتثير في نفسها روح الوحشة والألم والغربة جعلها تُصِدِر حنيناً شجياً موجعاً، أثارت به كوامن صاحبها وشجوه، وبعثت أحاسيسه ومشاعره النفسية من كوامن الشوق والحنين للوطن، حيث استطاع الشاعر أن ينفذ من خلال ناقته ويصور لنا غربته، ووجده وتعلقه بوطنه في صورة من المشاركة التي مزجت همّه بهمّ ناقته، وأحاسيسه بأحاسيسها، ومشاعره بمشاعرها، فتنفس من خلالها وذاق بلسانها، ورّيع بريعانها وحن بحنينها، بيد أن صبره وشدة تحمله حال دون إفصاحه، أما حيوانية الناقة وطبيعة خلقها فقد أنطقها، فلم تستطع كتمان ما بها من حنين. وبهذا يصور لنا الشاعر عظمة الإنسان وقدرة تحمله، ولكن الشاعر لما لم يرد إضعاف الشخصية الإنسانية، استطاع أن يفجر - من خلال تصويره لنفسية ناقته - ما به من وجد وحنين وشوق وغربة، فجمع بين قيمته كإنسان قادر على مواجهة الأمور، وتعبيره عن عواطفه، ومشاعره، وحنينه، وأشواقه، التي وضحت مدى إحساسه بغربته، وشدة شوقه لوطنه، حيث يقول^(٢):

(١) نبات مر المذاق .

(٢) الزهرة الجزء الأول ص ٢٤٥ ، تحقيق ابراهيم السامرائي

رَأَتْ نَاقَتِي مَاءَ الْفِرَاتِ وَذَوَّقَهُ
أَمْرٌ مِنَ السُّمِّ الزُّعَافِ وَأَمُقْرَا
وَرِيَعَتْ مِنَ الْعَاقُولِ لَمَّا رَأَتْ بِهِ
صِيحَاخَ النَّبِيْطِ وَالسَّفِيْنَ الْمَقِيْرَا
وَحَنَّتْ حَنِينًا مَوْجِعًا هَيَّجَتْ بِهِ
فَوَادَا إِلَى أَنْ يَدْرِكَ الرَّبُوْ أَسْوَرَا
فَقُلْتُ لَهَا : بَعْضَ الْحَنِينِ فَإِنْ بِي
كَوَجْدِكَ إِلَّا أَنْنِي كُنْتُ أَصْبَرَا

وأكثر شعر مذحج - كما هو حال الشعر العربي - يعتمد في المقام الأول على الصورة الجزئية القائمة على التشبيه والإستعارة والكناية، وقد وضحت في بداية هذا المبحث أن الصور الكلية هي التي سأبحث عنها في شعر مذحج، وأحاول تلمسها وإظهارها، وتفسيرها، أما الصور الجزئية فلن تشد كل اهتمامي في هذه الدراسة لأن تناولها أصبح مكرراً، وإن كنت لن أغفل عن بعض تلك الصور الجزئية التي تلفت نظري إليها لمحةً فنية، أو يظهر فيها تصوير رائع، أو كانت هذه الصورة الجزئية لبنةً في بناء صور كلية، ومن خلال استقراء شعر مذحج، استطعت أن أظفر بما يمكن أن يشد الانتباه، ويجذب النظر من تلك الصور الكلية، التي ينشدها النقد الحديث ويشغف بها، ويمكننا أن نعد من الصور الكاملة تلك الصور الجزئية التي يُلحُّ عليها شعراء مذحج، ويستقصونها، ويأخذون في تفصيلها، ويتناولونها

تناولاً دقيقاً، حتى تستحيل لديهم صوراً كلية بما أَلحوا به عليها من استقصاء قائم على تصوير الجزئيات الدقيقة، أو تداخل التشبيهات تداخلاً يجعل من تلك الصور الجزئية صوراً متكاملة ذات أعضاء متصلة متناسقة، تنسينا أحياناً الصورة الجزئية الأصل، التي أراد الشاعر أن يوضحها لنا. ومن ذلك قول جِبْرِ بن الأسود المُعَاوِيّ يصور عذوبة ريق محبوبته الذي يتخلل ثناياها ولذته فيقول^(١):

كَأَنَّ ثَنَائِيهَا وَبِرْدَ رِضَابِهَا
هَدُوٌّ نِطَافٍ بِالمَسِيلَةِ حَشْرَجٍ
تُشَجُّ بِهِ رِقْرَاقَةٌ صِرْخِدِيَّةٌ
عَقِيلَةٌ مَحْذُوفٍ يَغْصُ وَيَنْشُجُ

فالشاعر يوضح لنا في صورة رائعة ودقيقة ومستقصاة ومفصلة عذوبة ريق محبوبته الذي يتخلل ثناياها، فيشبهه بعذوبة ولذة أكرم ما في الزق من الخمرة الصرخدية بعد مزجها بالماء العذب الصافي الذي أسقطته المزن آخر الليل واستقر في موضع يحفظ له صفوه، وبرودته. فانظر إلى هذه التفصيلات وهذا الاستقصاء الذي لَمْ شَعَتْ وَشَتَاتَ الصورة حتى صارت كاملة، وقد استطاع الشاعر أن يجعلنا ندرك مدى تعبيره عن اللذة التي يظفر بها من ريق محبوبته عند تقبيلها، والتي شَهَّهَا بلذة الخمر الكريمة التي عُقِرَتْ بالماء الصافي الذي جادت به سحابة آخر الليل، وهذا الوصف للخمرة هو أعذب وألذ ما تكون فيها الخمرة عند شاربها، فلم يدع الشاعر

(١) منتهى الطلب ١٣٧/٥ ب، ١١٢٨.

لفظه توحى بانسكاب اللذة إلا جاء بها في أجزاء هذه الصورة، والصورة كما نشاهدها أخذت عناصر تكوينها من البيئة التي، يعيشها الشاعر، والصورة ذوقيةً طعميةً تقوم على حاسة الذوق والطعم.

ومن الصور الفنية المتكاملة هذه الرحلة التي صورها لنا عبِيدُ الله بن سليمان الصُدائي والتي يرسم خطوطها من بداية الرحلة إلى نهايتها، حيث تضافرت فيها تلك الصور الجزئية لتوضح لنا في النهاية صورةً كاملة تامة، صور من خلالها سير الإبل وسرعتها من خلال تشبيهها بصورة القطا الذي يسير مسرعاً نحو الماء، وصور لنا هذه الإبل كذلك ضامرة ليزيد في سرعتها، وصورها مصطفة اصطفااف القداح، ثم أخذ ينمي تلك الصورة، فتابع وصفه لتلك الإبل في سيرها بأنها كانت بلا هداية في وسط ليلٍ مظلم، حيث كانت تتعسف الطريق تعسفاً، ولكن حاستها جعلتها لا تنحرف عن القصد، فما أن تبلج الصبح حتى وجدوا أنفسهم بين عُراد، ومَشْكَان من وادي «مَلَك» الذي صوره الشاعر بأنه كان مليئاً بالسيل، وعند ذلك صور لنا الشاعر ظهور نخل «جزاء»، واعتراضه أمام أعينهم، حيث ديار آل محمد الذين هم مقصد الشاعر ومحط رحلته، حيث يقول^(١):

خليلي حُثّاً العيسَ يرفعنَ سيره

يمرُّ كما مرَّ القطا وهو واردٌ

شوازبُ أمثالِ القداحِ يلفُّها

وصالُ السرى والمهماتُ المصارِدُ

(١) التعليقات والنوادر / هندية / ورقة ٢٢٥ .

قطعن بنا ديباج ليل عواسفاً
بمستنفر نياج من السير قاصدُ
فلما بدا من غدرة الصبح لائحُ
حيانا تنبهها العيون الرواقدُ
جعلن عرادا باليمين عواديا
وعن يسر مشكان ذات الفدافدِ
وملك يهري حيثُ أنهت سيولهُ
إلى حيثُ يلقاهن أفياضُ عاودِ
فلما بدا ملك يهدي وأعرضتُ
لنا من جزاء نخلها المتقاودُ
مراكزُ من أرماح آل محمدِ
بنى المجدُ فيها والدُ بعد والدُ

والشاعر صور لنا هذه الرحلة في صورٍ شاقّةٍ، ومتعبَةٍ، ومضنيّةٍ، لا تخلو من مغامرة، حيث كان سيرها في الظلام وتعسفهم للطريق وسرعتهم، كل هذه الصور الشاقّة التي قدّم بها كان الغرض منها استحثاث المدوحين على إجزال العطاء، وقد ركّز الشاعر عينه المصوّرة على ذلك السيل الذي كان يتدفق أثناء مروهم بوادي (ملك)، والسيل رمزٌ للخصب الذي يأتي للأرض القفر المجدبه؛ فيحيلها خصبة تخرج الزرع والثمر، وكأن الشاعر بذلك

يشير ويوحي للممدوحين بأن يكون عطاؤهم مغدقا مثل هذا السَّيل، فيحول الشاعر من جذب الفقر إلى خصوبة الغنى.

وفي شعر مذحج صور فنية متكاملة ترسم لنا لوحات تشكيلية يمكننا تسميتها (بالصورة/ اللوحة) حيث يُحيل لنا الشاعر المذحجي صورته من خلال تعبيراته إلى لوحة فنية تشكيلية رائعة، تتوافر فيها عناصر اللوحة التشكيلية من زمان، ومكان، ولون، وحركة، حيث تتحول الكلمة إلى ريشة تقوم بتوزيع هذه العناصر على اللوحة التعبيرية، تتجلى هذه (الصورة/ اللوحة) في قول الأفوه الأودي يصف مطرا أصاب حياً من الأحياء في إحدى الليالي^(١):

لَهُ هَيْدَبٌ دَانَ وَرَعْدٌ وَلَجَةٌ

وَبَرْقٌ تَرَاهُ سَاطِعاً يَتْبَاجُ

فَبَاتتْ كِلَابُ الحَيِّ يَنْبَحْنَ مَزْنَةً

وَأَضَحَتْ بِنَاتُ المَاءِ فِيهِ تَمَعَّجُ

والبيتان كما نراهما يصوران لنا لوحة طبيعية رائعة رسمها الشاعر من البيئة حيث صور من خلالها مطر ليلة امتد من المساء للضحى، فصور السحاب دانيا والمطر متساقطاً، وأسمعنا عبر صورة صوتية زمجرة الرعد، ونباح الكلاب، ونعيق الضفادع، وصور لجة الماء، ولمعان البرق الذي يتخلل السحب ويسطع ضوءه فيضيء ظلمة الليل الداكنة، ثم أضاف الشاعر إلى

(١) الطرائف الأدبية ص ٩ .

لوحتة صورة الحيوان المتمثلة في كلاب الحي النابحة هنا وهناك داخل الحي، والضفادع التي تنعق في وسط الماء الذي حفظته الأرض من تلك السارية التي أمطرت الحي. فالشاعر جمع لنا في لوحتة التي رسمها بين الصورة المرئية المتمثلة في السحاب والبرق وبيوت الحي، والصورة السمعية الصوتية المتمثلة في صوت الرعد ولجة الماء، ووقع المطر، ونباح الكلاب، ونعيق الضفادع، والصورة المتحركة مثل حركة السحاب في السماء وحركة البرق في لمعانه وحركة الكلاب والضفادع وحركة المطر النازل، واستطاع الشاعر كذلك أن يزاوج بين الطبيعة الجامدة والحية، واستطاع أن يجمع لنا في لوحتة التصويرية عناصر تكوينها الفنية فجاءت متضافرة على المكان، والزمن، واللون، والحركة، فعنصر المكان حققه من خلال قوله (الحي) وعنصر الزمان هو الليل والضحي وما بينهما من امتداد زمني وأفادته كلمتا (فبات) و(أضحت) وعنصر الحركة أفاده قوله (هيدب) و(لجة) و(لمعان البرق) وحركة، الكلاب، وبنات الماء، أما اللون فأفاده (كلمة الليل) الذي جعل البرق يسطع داخله وكذلك (ضوء البرق) اللامع، والشاعر كذلك استطاع أن يثبت روح الحياة في اللوحة من خلال عنصري الحركة والصوت المتوفر داخلها، وهناك بُعدان محوريان رئيسان يحتويان أجزاء وعناصر الصورة/ اللوحة هما البعد المكاني والبعد الزماني، أما البعد المكاني فممتد من جهة العلو (السماء) التي تحوي سحب المطر وصوت الرعد ولمعان البرق، إلى الأرض المشتملة على بيوت الحي وساكنيها والحيوانات من كلاب وضفادع، أما البعد الزمني فيمتد من وقت تكون السحب في السماء إلى وقت الضحي.

إنّما فقد استطاع الشاعر أن يبدي لنا من خلال هذين البيتين اللوحة الطبيعية التي تصور لنا البيئة المناخية والحيوانية واستطاع أن يتوافر لنا في لوحته تلك عن طريق الكلمة على عناصر رسم تلك اللوحة حيث أحال الكلمات إلى أدوات فنية جسد لنا من خلالها تلك (الصورة / اللوحة).

وهناك صور كثيرة في شعر مذحج تتوافر على تصوير المطر والخصب وقد أُلحوا على وصف المطر. وكان الشاعر المذحجي قد اتخذ من المطر والخصوبة رمزاً ينم عن تعلقه بالحياة، وقد جانب وفاء السندوبي الحقيقة عندما أفادت في كتابها «شعراء طيء» أن الطائين كانوا أسبق الناس في رسم صور السحاب^(١). فكيف يستقيم هذا الرأي المُعمّم الجازم مع هذه الصورة للسحاب والمطر التي رسمها الأفوه الأودي المذحجي وهو من أقدم شعراء الجاهلية بل إن بعضهم يرى أنه هو أول من قصّد القصائد؟ إذن فشعراء مذحج هم من أوائل من رسم هذه الصورة الفنية للسحاب والمطر.

ومن تلك الصور المتكاملة التي اشترك في تكوينها كل أبيات القصيدة حتى أصبحت وحدة بنائية تامة تلك الصورة التي نقلها لنا النجاشي الحارثي، والتي تصور لنا مقابلة وقعت له مع ذئب من الذئاب في الصحراء حيث سيطرت الصورة على كل أبيات القصيدة، حتى وجدنا أن كل بيت فيها وكل عبارة هي لبنات كونت بطريقة بنائية ترابطية أجزاء تلك الصورة الكاملة، وأن الشاعر أخذ في بنائها منذ البيت الأول من القصيدة فما اكتملت

(١) شعراء طيء / وفاء السندوبي / ٢٩٦ / ١ / طبع دار العلوم ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

له إلا بنهاية آخر بيت منها، والتي يمكننا أن نسميها (بالقصيدة /
الصورة) حيث يقول النجاشي الحارثي^(١):

وماءٌ كلونِ الغسلِ قد عادَ آجناً
قليلٌ به الأصوات في بلدٍ محلٍ
وجدتُ عليه الذئبَ يعوي كأنه
خليعٌ خلا من كلِّ مالٍ ومن أهلٍ
فقلت له : يا ذئبُ هل لك في فتى
يؤاسي بلا منٍ عليك ولا بخلٍ ؟
فقال : هذاك الله للرشدِ إنما
دعوتُ لما لم يأتني سبغٌ مثلي !
فلستُ بأتية ولا أستطيعه
ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضلٍ
فقلتُ : عليك الحوضُ إنني تركتُه
وفي صفوه فضلُ القلوصِ من السجلِ
فطربَ يستعوي ذئاباً كثيرةً
وعديت كلُّ من هواه على شغلٍ

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ / ص ١١١ .

لعل الشاعر أراد أن يصور لنا شجاعته أو كرمه، أو أنه أراد أن يساير القدماء ممن سبقه من الشعراء الذين كانت لهم مواقف صوروها مع الذئب، بيد أن ما يشدنا لصورة النجاشي هذه، هي الغرابة التي أثارت فينا الدهشة الممتعة والاستغراب اللذيذ وإشباع روح المغامرة، فقد صور لنا الشاعر صحراء مقفرة قطعها، فهي خالية من آثار الحياة، كالماء والأصوات المؤنسة والحركة الحيوانية التي قد يأنس بها المسافر، وكأن هذه الصحراء بهذه الصورة رمزٌ للهلاك والموت، وصحراء بهذه الصورة قد تثنى الشجاع عن المجازفة والمخاطرة فيها، ثم يشد الشاعر الموقف، ويملؤه بالمغامرة المتهورة، حيث إنه وجد فيها ذئباً - وهذا كذلك رمز للخبيث واللؤم والغدر والعداوة للإنسان وعدم الوفاق بينهما - وقد شبه هذا الذئب بالصعلوك الذي خلعتة قبيلته ونبذته من كنفها فلا حامي له إلا عدوانيته، ولا مال له إلا ما سلبه، ولا أنيس له إلا هذا الخلو المطبق والقفرة الموشحة فالتبيعة جعلت منه عدواً لدوداً للإنسان، والعجيب في هذه الصورة هذه الرؤيا المخالفة للعادة التي صورها الشاعر لموقفه من الذئب، التي حطمت ذلك الموروث الطبيعي بين الإنسان وهذا الحيوان المفترس العدو، حيث استحالت العداوة صداقة، والغدر كرمًا، والنفور مقاربة، والوحشة أنسًا، والحرب سلمًا، وفاقت فيه طبيعة الإنسان من حيث المهادنة، والكرم طبيعة الحيوان، فالباديء بالوفاق والمؤانسة والكرم في هذه الصورة هو الإنسان/ الشاعر، يتجلى ذلك من عرض الشاعر تلك المسألة حيث يقول:

فقلت له يا ذئب هل لك في فتى

يواسي بلا من عليك ولا بخل

ولكن الصورة وضحت لنا طبيعة الذئب الجامحة التي لم تطمئن إلى هذا الموقف الإنساني المسالم تجاهه، والذي يراه شيئاً غريباً من جانبه إلا أن حاجته للماء، جعلت نبرته فيها شيء من المهادنة والتعقُّل، فطلب من الشاعر ماء يروي غلته، فبادرته نفس الشاعر الكريمة، ودلّته على مكان الماء الصافي النقي الذي يروي غلته ويبل عطشه، ولو قدم الشاعرُ الماءَ للذئب، ولم يكتف بالدلالة عليه، لكان أكرم من جانبه، كما صنع الفرزدق مع ذئبه حيث أخذ يقد له اللحم ويشويه ويقدمه له.

ولقد صور لنا الشاعر شدة فرح الذئب بالماء الصافي الذي دله الشاعر عليه في قوله (فطرب يستعوي ذئباً كثيرة) وصور لنا كذلك النهاية السلمية لتلك المقابلة، وكيف أن كلاً منهما لم يفكر بالآخر لأن لدى كل منهما من مشاغل الحياة ما يصرفه عن التفكير في موقفه من الآخر فقال «وعدّيت كل من هواه على شغل». إذاً فنحن أمام (قصيدة / صورة / قصة) أي صورة قصصيّة متكاملة تضافرت كل أبيات القصيدة بل كل كلمة فيها على بناء هذه الصورة وحكاية تلك القصة وعناصر هذه الصورة هي الشاعر، والصحراء المقفرة، والذئب والماء. والصورة من حيث الرؤيا الشمولية لا تقف عند تصوير شجاعة الشاعر أو كرمه ولا عند هذه المفارقة الغريبة بين الشاعر كإنسان والذئب كحيوان مفترس بل إن الصورة تتجاوز هذه الخصوصية إلى توضيح حالة نفسية عاشها الشاعر - يعاني منها الإنسان في كل زمان ومكان - وأن هذه الصورة إنما هي رمز يفسر لنا جانباً من غربة الشاعر في عصره - فهو كما نعلم عاصر تلك الحروب والفتن التي طحنت الأمة العربية والإسلامية حيث انقسمت فيها القبيلة

الواحدة إلى قسمين متحاربين في صفوف عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما، وكيف رأينا النجاشي وقد أصابه القلق وعدم الاستقرار، من هذا الوضع المر الذي يشاهده؟ فيجد أن الحياة تحاصره بمضايقتها، فبعد أن تسؤ الحال بينه وبين علي صاحبه الأول، حيث شهد عليه أهل العراق بشربه للخمر في رمضان فأقام علي عليه الحد، وقد كان النجاشي من أنصار علي والمحاربين معه لمعاوية وأهل الشام، وكان هو شاعر علي في صفين الذي يتولى الرد على شعراء معاوية، ولكنه ما لبث بعد إقامة الحد عليه أن سخط على علي وأهل العراق؛ فهجأهم وتحول إلى معاوية، ولكنه ما لبث أن اختلف مع معاوية، فلم يقبل موقفه من اليمينين، حيث كان يغزيهم في عرض البحر ويغزي قيساً البر، فغادر معاوية وأهل الشام، فضاقت بعد ذلك الدنيا في عينيه، وكره عيشه، وكره الناس عامة؛ فاتجه نحو الصحراء، حيث رأى فيها متنفساً له، وأصبحت وحشتها أنساً وقفرها كرمأ بعد أن استوحش الناس وجفل منهم، استأنس الذئب ورأى أنه هو الجدير ب صداقته، ومودته، فعرض عليه - كما رأينا - أن يقيم معه أواصر المحبة وحبال المودة التي فقدها من بني جنسه من البشر، والشاعر في تصويره للذئب بالخليع، إنما نظر إلى نفسه بإزاء مجتمعه سواء في العراق أو في الشام، فهو منهم أصبح كالخليع الذي تنكّر له مجتمعه، فخلع هذه الصفة التي يحس بها وأسقطها على الذئب. والذي لفت نظري في هذه الصورة، أن ذئب النجاشي هذا كان عطشاً يطلب الماء بخلاف ذئب باقي الشعراء، فقد كانت جائعة تنشد الطعام والقري كما هو عند المتلمّس والفرزدق، ويمكننا أن نفسر ذلك بقولنا: إن حالة النجاشي الذي كان يتعطش للمحبة والمودة والعطف الذي يروي

عواطفه، وأحاسيسه ومشاعره، فتحتاج إلى ينبوع الفياض الذي يتدفق بالسرور والبهجة والمحبة الروحية جعلت الشاعر يجعل ذئبه محتاجاً للماء الذي هو ينبوع الحياة ورمز الخصب. أما هذا الماء الآسن الآجن الذي وجد الشاعر الذئب واقفاً عليه ولا يستطيع مع عطشه أن يشرب منه بل وقف متلفتاً في هذه الصحراء المقفرة باحثاً عن مشربٍ صافٍ نقي من الكدر والشوائب، فكأن الشاعر يرمز به إلى هذه الحياة المتكررة المُرّة المذاق التي وقف الشاعر عليها في العراق والشام ولم يستطع معايشة ما يدور فيها، مثله مثل ذلك الذئب الذي وقف على هذا الماء الآسن وهو عطشان فلم يشرب منه بل ظل يبحث عن ماء صافٍ نقي، كذلك الشاعر ظل في رحلته هذه يبحث عن حياة صافية نظيفة غير مكدرة لكن الذئب وجد ضالته ومطلبه عند الشاعر فدعا أبناء جنسه ممن هم مثله في العطش، أما الشاعر فلم يجد بعد من يدلّه على صفو المشرب مما حدا به أن يترك العراق والشام ويرحل إلى أقصى جنوب الجزيرة العربية، ويتجاوز حتى بلاد نجران وينتهي به المقام في لحج ويبقى هناك إلى أن وافاه يومه.

هذا يوضح لنا أن الموروث الشعري العربي كان فيه صور عميقة كما نراها عند شعراء مذحج، وأنه لم يقف عند الصورة الجزئية المحدودة بل حاول أن يتجاوزها إلى الصورة الكلية ويطلبها ويتمثلها، وأن شعراء مذحج كان لهم مساهمتهم الواضحة في تحقيق ذلك.

ولقد رسم لنا شعراء مذحج صوراً عدة دون الاعتماد على نوع من المجاز - من تشبيه أو استعارة أو كناية - وإنما رسموها من خلال

تعاملهم مع بعض الألفاظ والكلمات المصورة الموحية ويمكننا أن نسمي هذه الصورة (بالكلمة / الصورة): من ذلك قول الأسعر الجعفي^(١):

زَهَبْتُ أَمْشِي مِشْيَةً تَدْبَابًا

أَخْفِي سَوَادِي أَبْتَفِي الذُّنَابًا

فالشاعر رسم لنا صورة حركية من خلال كلمتي (تدبابا، وأخفي) وهي توضح هيئة مشيته المخاتلة الحذرة أثناء ترصده للذئاب. وعمرو بن مَيْنَأَس المرادي صور لنا من خلال كلمتي (تدلى واضطرب) من قوله^(٢):

بَانَ مِنْهَا الْحَسَنُ إِلَّا ذَكَرُهُ

وَتَدَلَّى الثُّدَى مِنْهَا فَأُضْطَرِبُ

ملاحظ هَرَم هذه المرأة وشيخوختها والكِبَر الذي أصابها فترهل جسمها. وقد تناول شعراء مذحج الصورة الفنية من جوانب مختلفة، فنقلوا لنا (الصورة/ الحركة، والصورة/ الصوت، والصورة/ اللون، والصورة/ الرائحة، والصورة/ الطعم أو الذوق) أي أنهم أتوا على جميع أنواع الصُّور، وقد سبق أن عرضنا لبعض أنواع هذه الصور عند حديثنا عن الصور المتكاملة، وهنا سنعرض لها ونوضحها في بعض الصور الجزئية المستقلة، فمن الصُّور الحركية: قول الأسعر الجعفي يصور لنا حركة الكلاب في ليلة

(١) كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني (سهلب) ١٠٦/٢ تحقيق ابراهيم الأبياري ومحمد خلف أحمد/ الهيئة العامة للكتاب .

(١) ديوان امرئ القيس رواية الأصمعي عن نسخة الأعلام الشنترقي رقم (٢) ص ٢٩٢ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم/ طبع دار المعارف/ القاهرة/ طبعة رابعة سنة ١٩٨٤م.

قِرَى غَنِيَّةً بِاللَّحْمِ، حَيْثُ صَوَّرَ تَرْدَدَ الْكَلَابِ ذَهَاباً وَجِيئَةً طَوَالَ اللَّيْلِ وَهِيَ
تَأْكُلُ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ الَّذِي قَدِمَهُ لِضَيْفِهِ فَقَالَ^(١):

بَاَتَتْ كَلَابُ الْحَيِّ تَسْنُحُ بَيْنَنَا

يَأْكُلْنَ دَعْلَجَةً وَيَشْبَعُ مِنْ عَفَا

فكلمتا - تسنح، ودعلجة - هما اللتان رسمتا لنا هذه الصورة الحركية.
ومن ذلك قوله كذلك يصور حركة الخيل وهي تطأ القتلى من الأعداء في
صورة حركية رائعة^(٢):

ظَلَّتْ سَنَابِكُهَا عَلَى جِثْمَانِهِ

يَلْعَبَنَّ دَحْرُوحَ الْوَلِيدِ وَقَدْ قَضَى

فالشطر الثاني من البيت يصور لنا الحركة تصويراً دقيقاً.

ومن الصور الحركية الجميلة المستقاة من البيئة قول عبد الله بن الحارث
الجعفي يصور لنا حركة حبال الدلاء وختلافها في البئر^(٣):

كَأَنَّ تَخَالَجَ الْأَشْطَانِ فِيهَا

شَأْبِيبٌ تَجُودُ مِنَ الْغَوَادِي

وصور النجاشي الحارثي حركة دقات الخائف المهموم الهارب بدفيف
جناحي النسر الطائر حيث يقول^(٤):

(١) الأصمعيات ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) جمهرة النسب الكبير لابن الكلبي ورقة ٢١٨ .

(٤) شرح قصيدة الدامغة ص ٢٨٥ .

وولى أبو ثجر شريدا لما رأى

بقلب كدْفُ النَّسْرِ ذِي الْخَفَقَانِ

والصورة توحى بالخوف والاضطراب والذعر الذي يصيب المنهزم، وهنا نشاهد كيف صور لنا عبيد الله بن الحر الجعفي الصورة الحركية في ثورة وغضب، فجاءت دقيقة مثيرة، حيث صور موقف أعدائه من زوجته فقال^(١):

هُمُ هَدَمُوا دَارِي وَقَادُوا حَلِيلَتِي

إِلَى سَجْنِهِمُ وَالْمُسْلِمُونَ شُهُودٌ

وَهُمْ أَعْجَلُوهَا أَنْ تَشَدَّ خِمَارَهَا

فِيَا عَجِباً هَلْ الزَّمَانُ مَقِيدِي ؟

فالجمل الفعلية (قادوا، أعجلوها، تشد) هي التي أوحى بهذه الصور الحركية الدقيقة ورسمتها، ولقد أضفت عبارة (المسلمون شهود) صورة احتفالية لهول المنظر وفضاعته، التي جعلتنا نحس بهذه العاطفة المتأججة الغاضبة؟ حيث استطاع الشاعر من خلالها تصوير هذه العدائية الظالمة القاسية العنيفة، الخارجة عن حدود الرحمة والذوق ولأخلاق المنافية لحقوق الإنسان.

أما الصورة الصوتية: فنلاحظها ونتخيلها ونحس بها في قول المكشوح

المرادي يصور صرخ بن مامة في أصحابه عندما ثار عليه المراديون^(٢):

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ٢٩٣/٥، وتاريخ الأمم والملوك للطبري ٣/٥٠٤.

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ١٢٠. لابن الأنباري.

نحنُ أرحنُا النَّاسَ من عتابِه
لَمَّا التَّقِينَا ثَارَ في أصحابِه

كثُورَةَ الفالِجِ في ركابِه
لَهُ صليلٌ من صريفِ نابِه

ونلاحظ هذا الذعر والخوف الذي أفادته هذه الصورة الصوتية من قول عمرو بن معد يكرب^(١):

عَجَّتْ نساءُ زيادٍ عَجَّةً
كعجيجِ نسوتنا غداة الأرنبِ

وصور جعفر بن عُلبَةَ الحارثي أنين صرعى بني عقيل وصراخهم في صورة صوتية فيها من الضجيج والجلبة بقوله^(٢):

تركناهمُ صرعى كأن ضجيجهم

ضجيجُ دباري النيبِ لاقت مداوياً

والسؤال الذي تثيره هذه الصورة الصوتية هو إن كان ضجيج دباري النيب من المداوي يعقبه شفاءً لها من الداء الذي أصابها، ومن ثمَّ يعقب هذا الداء راحة، فكيف إذاً تتناسب صورة المشبه به مع صورة المشبه، وهم الصرعى المثخنون بالجراحات القاتلة التي يجب أن تكون كذلك؟ وهل يعقب

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٥٠ .

(٢) الأغاني (دار الكتب) ٤٧/١٣ .

تلك الطعنات التي اصطرعوا بها شفاءً وحياءً لهم حتى يتحقق التناسب؟ لو أعقبه حياة لهم لانتفى القتل والموت الذي أراده الشاعر لهم. ولكننا يمكننا تفسير هذه الصورة المختلفة بين المشبه والمشبه به من وجهين، إما أن الشاعر أراد عدم موتهم، وإنما تأديبهم بالجراحات فتكون تلك الجراحات التي صرعتهم رادعاً لهم، ومانعاً من عودهم لمحاربتة مستقبلاً، وذلك كالشفاء لهم، فإن عدم محاربتهم فيه بقاء على حياتهم مستقبلاً. أو أنه كان مراده هلاكهم، وموتهم فيكون قتله لهؤلاء النفر منهم رادعاً ومانعاً لمن بقى منهم من قومهم حتى لا يعودوا لمحاربتة، فيذهب ما بقلوبهم وأنفسهم من نية المحاربة والمعاداة، فيكون ذلك بمثابة الشفاء لهم والدواء الذي أشفاهم من تلك العدوانية التي تسبب هلاكهم.

ومن الصور التي وضحت لنا اللون : قول جَبْرِ بن الأسود المعاوي^(١):

وحتى ترى النجدَ البَسِيلَ كأنما

يُضْرَجُهُ بِالزَعْفَرَانِ مَضْرَجٌ

فهنا صورة لونية توضح لون الحمرة القانية التي علت ثياب الشجعان من دماء القتلى، والصورة توضح شجاعة قوم الشاعر وكثرة ما أراقوا من دماء الأعداء.

وصور عمرو بن مَيْنَأَس المرادي بياض أسنان محبوبته فشبها بلون

الأقاحي فقال^(٢):

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب ١٣٧/٥ ب ، ١٣٨ أ .

(٢) ديون امرئ القيس ٢٩٢ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

ولها ثغرٌ نقيٌّ لـونهُ

كالأقحاحي يـرى فيه شنبٌ

ومن الصور الفنية ما اعتمدت على حاسة الشّم فوضحت الرائحة:
من ذلك قول جبر بن الأسود المعاوي يصور لنا رائحة محبوبته الزكية
الفوّاحة التي تسري آخر الليل حيث شبهها بفارة السمك التي تعبق من كل
ناحية، حيث يقول^(١):

رَبِيئَةٌ خَدِرٍ لَمْ تُكْشَفْ سَجُوفُهُ

وفارةٌ مسكٍ آخَرَ اللَّيْلِ دَارِجٌ

ومن الصور الذوقية التي وضحت لنا الطعم، تصوير عمرو بن معد
يكرّب طعم ريق المرأة بالخمرة الممزوجة بالرمّان حيث يقول^(٢):

كَأَنَّ عَلَى عَوَارِضِهِنَّ رَاحِئًا

يَعُضُ عَلَيْهِ رَمَّانٌ يَنْبِغُ

ومن الصور ما جمعت بين اللون والصوت والحركة، من ذلك تصوير
عبيد الله بن سليمان الصّدائي الدقيق للدّرع عند حركة الفارس حيث
يقول^(٣):

لِبَاسِهِمْ جَوْنٌ كَأَنَّ حَسِيْسَهَا

تَسَاوَدُ أَبْكَارٍ ضِعَافِ التَّسَاوِدِ

(١) متنهى الطلب من أشعار العرب ١٣٧/٥ ب ، ١١٢٨ .

(٢) شعر عمرو بن معد يكرّب الزبيدي ص ١٢٩ .

(٣) التعليقات والنوادر / الهندية ٣٢٥

فوضح الصورة اللونية من خلال قوله «جون» ووضح الصورة الصوتية بقوله «كأن حسيها تساود أبكار» ووضح أن هذا الصوت ضعيف فيه رقة ونعومة وخفوت من خلال قوله «ضعاف التساود» وكون هذا الصوت صادر من أبكار، أما الحركة فأفادها قوله «حسيها» فالحسيس صوت ناتج عن الحركة، وهنا يتضح براعة تصويرات شعراء مدحج. وقوة خيالهم حيث جمع الشاعر بين ثلاث صور متنوعة في بيت واحد.

وجمع كذلك جعفر بن علبة الحارثي في كثير من صورهِ الشعرية بين الحركة واللون والصوت من ذلك قوله يَصور السَجن والسَجانين^(١):

إِذَا بَابُ دُورَانِ تَرنَمَ فِي الدَّجَى

وَشُدَّ بِأَغْلَاقٍ عَلَيْهِ وَأَقْفَالِ

وَأَظْلَمَ لَيْلٌ قَامَ عِلْجٌ بِجُلْجُلِ

يَدُورُ بِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ بِأَعْمَالِ

فالشاعر ينقل لنا الصورة الصوتية بقوله «ترنم» و«يجلجل» وينقل الصورة اللونية بقوله «الدجى» و«أظلم ليل» والصورة الحركية بقوله «يدور به» و«الترنم» يفيد امتداد الحركة الصوتية وتناغمها في صورة ثقيلة تزيد من الهم والحزن و«الجلجلة» تصور حركة الصوت كذلك وتفيد الإزعاج وعدم الهدوء، وهذه الصور الجزئية المجتمعة تصور لنا تلك الوحشة

(١) الأغاني (دار الكتب) ٤٦/١٣ .

الرهيبية، والإزعاج في هذا السجن، وتتوافر الصور على تصويره من الداخل ومن الخارج، ففي الداخل وحشة، وظلمة، ورهبة، وتقييد للحرية، وفي الخارج أغلاق، وأقفال مشدودة، وحرّاس مزعجون أشداء.

وتوافر شعراء مذحج على عدة صور دقيقة، ورائعة نهضت على ملامح تجاوزت بها تلك الصور العادية التي وقع عليها وابتذلها الشعر العربي، فلم تدر في محيط تلك الصور المطروقة من قبل غيرهم من الشعراء، إنما كان لهم جهد التشكيل الرائع حيناً، والدقة في الصورة أحياناً، ومن تلك الصور الرائعة الدقيقة قول الأفوة الأودي^(١):

عافوا الاتاوةَ واستقتُ أسلافهم

حتى ارتووا عللاً بأذنبه الردى

فقد شبه الأفوه في روعة ودقة الردى والهلاك والقتل بالماء الذي ينهل منه العطشان، ويأتيه عن طوع ورغبة، فيأتيه هلاكه من حيث يتوقع نجاته، ونجد أن الشاعر جسّم الموت والهلاك والقتل، وجسدها وجعل لها أذنبه تملؤها، وجاء بصيغة الجمع «أذنبه» ليدل على كثرة الهلاك والقتل فيهم وكلمة «ارتووا» دلت على بلوغ الهلاك فيهم مبلغاً يشبه ارتواء العطشان وشبعه إذا ما ورد الماء.

وانظر إلى هذه الدقة في تصوير خروج الخيل مسرعة في تساوي وتآزر وانتظام من خلال غبار المعركة، ونقعها، حيث شبه الأسعر هذه الصورة

(١) الطرائف الأدبية ث ٦

بأصابع الكفين الممدودة باتجاه النار، ولهباً ودخانها، للاستدفاء من البرد،
حيث يقول^(١):

يُخَرُّجَنَّ مِنْ خَلِّ الْغَبَارِ عَوَابِسًا

كأصابعِ المقرورِ أقعى فاصطلى

ولكن صورة الأصابع عند مدها لا يظهر فيها التساوي، لذلك وجدنا
ناقداً كأبن قتيبة يخرج من إشكالية هذه الصورة بعد أن يحسن الظن
بملاحظة الشاعر فيقول: «قال بعضهم شبهها - أي الخيل حال خروجها -
بأصابع المقرور خاصة إذا أدناها من النار قبضها فكادت أطرافها
تتساوى»^(٢). ولكن ابن قتيبة يذكر كذلك أن الشاعر أراد أن يصور خروج
الخيال متقارباً بعضها من بعض يبادرن الغارة كتقارب الأصابع^(٣). وعليه
فيكون مراد الشاعر خروج الخيل متقاربة مع المفاضلة بينها، لا خروجها
متساوية، والصورة على كلا الوجهين تظهر دقة وروعة في التصوير.

ومن الصور الدقيقة الرائعة قول عمرو بن قعّاس المرادي يصور مجلس
خمرٍ حيث يقول^(٤):

وكنْتُ إذا أرى زِقاً مريضاً

يناحُ على جنازتهِ بكيّتُ

(١) الاصمعيات ١٤٠ .

(٢) المعاني الكبير ١/٥٤ لابن قتيبة / دار الكتب العلمية / بيروت .

(٣) المعاني الكبير ١/٥٤ لابن قتيبة .

(٤) الاختياريين ٢١١ . للأخفش الأصغر .

فالشاعر يصور في دقة عدة صور تتعلق بالزق وبالسكرارى حول الزق، ويصور نفسه بين أولئك السكرارى، فالزق يمرض عندما يُفَرِّغ جزء مما يحويه للشرب، فيصبح هزياً قليلاً ضعيفاً كالمريض الذي أصابه المرض، فنخر جسمه، وأذهب قوته ومثاقفه وامتلاءه، فإذا كثرت على الزق أيدي الشاربين التي ما تفتأ تتناولها وتتناوب هذا التناول، وتُفَرِّغ دمه وروحه في كؤوسهم، فَيُسْتَلَّ ما فيه كما يَسْتَلَّ الموت روح المُحْتَضِرِ، حتى يصبح كالميت الموضوع على نعش، ثم يصور الشاعر بعد ذلك الشاربين وهم ملتفون حول نعش الزق، في حالة من الصخب والأجبة ورفع الأصوات الناتج عن السكر، والشاعر يُشَبِّه هذه الصورة بصورة النائحين حول الميت والصورة تحمل من جمال التصوير ودقته حيث رصد الشاعر أجزاء الصورة حتى جعلنا كأننا نرى هذا المجلس ونعيشه ونحس به، وقد اتكأ الشاعر في صورته هذه على عدة استعارات حيث استعار المرض والاحتضار والموت والنعش للزق. ومن الصور الدقيقة في شعر مذبح تشبيه الثأر بالدين، تأتي في الصورة من ثبوت استحقاق الثأر وإن طالت مدته، وفي قلق المطلوب كما هو حال المدين، حيث يقول سُوَيْد المَرَاثِد الحارثي:

وإنّا وإياكم وإن طالَ تَرَكَكُمْ

كذي الدّين يَنأى مانأى وهو غارم

وصور لنا يزيد بن عبد المدان في دقة تدل على براعة الملاحظة والجمع

بين الأشياء، حيث شبه رؤوس مسامير الدرع بعيون الجراد فقال:

ولِكِنِّي أَعْدُو عَلَى مَفَاضَةٍ

دِلَاصُ كَأَعْيَانِ الْجِرَادِ الْمُنَظَّمِ

ومن صور شعراء مذبح الدقيقة التي تدل على دقة الملاحظة ورهافة أحاسيسهم الفنية وبراعتهم التصويرية تصوير عمرو بن معد يكرب أطلال دار محبوبته أسماء حيث يقول^(١):

يَا دَارَ أَسْمَاءَ بَيْنَ السَّفْحِ وَالرَّحْبِ

أَقْوَتُ وَعَفَى عَلَيْهَا ذَاهِبُ الْحَقَبِ

فَمَا تَبَيَّنَ مِنْهَا غَيْرُ مُنْتَضِدٍ

وَرَأَسَاتٍ ثَلَاثٍ حَوْلَ مُنْتَصِبِ

وَعَرِصَةِ الدَّارِ تَسْتَنُّ الرِّيَاحُ بِهَا

تَجِنُّ فِيهَا حَنِينُ الْوَلَةِ السَّلْبِ

فقد ركز الشاعر في تصويره على أجزاء دقيقة، ويسيرة، من بقايا القوم، ذكَّرها ولم يَعْفُلْهَا، وَعَمِلَ على إبرازها، وَوَضَّحَهَا وَأَظْهَرَهَا في صورة إيحائية مؤثرة، والشاعر من خلال هذه الصور وَضَّحَ لنا موقع الدار» بين السفح والرحب وصور لنا خلوها من الحركة الحيوانية المأنوسة من إنسان وغيره، ثم ركَّز عينه الباصرة على أشياء دقيقة داخل الدار فوضح لنا صورة «الْمُنْتَضِدِ» وهي مجموعة من الحجارة المرصوفة التي كان يستخدمها أهل الدار في بعض شؤونهم، والصورة هذه توحى لنا ببساطة الحياة أن ذاك

(١) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص

ويسرها، وتوضح صورة الشاعر كذلك ثلاث حجارة منصوبة وهي الأثافي التي يوضع عليها القدر، وصور لنا صورة صوتية نفسية رائعة داخل الدار أوحى بها حركة الرِّياح في فناء الدار، وهذا الذي تحدثه حركة الدار صوت فيه الحنين والألم والحزن على الفراق، وكأن الرياح تشارك الشاعر هذا الألم وهذا الحزن والأنين وشبه الشاعر صوت الرياح الشجي بصوت المرأة التي فقدت ولدها. وهذه الصورة الجزئية تنهض برسم لوحة فنية متكاملة لأطلال ديار المحبوبة حيث يتضح في هذه اللوحة العنصر المكاني للدار «بين السفح والرحب» وأبرز لنا تلك البقايا الدقيقة من حجارة مرصوفة، وأثافٍ قائمة في صورة إيحائية تذكُّريَّة، ثم صور لنا تلك الغربة وذلك الجو الرهيب الذي يسيطر على هذه الدار الخالية من الأنيس من خلال قوله «أقوت» التي وشت لنا بعصر اللوحة الزمني وهو الماضي، فقد غادر القوم هذا الربع منذ سنين، دل على قوله «وعفى عليها ذاهب الحقب»، واتضح عنصر اللون من صورة الأثافي المنصوبة التي تحمل اللون الأسود من أثر لهب النار التي كانت توقد تحت القدر، أما عنصر الحركة فقد صورهُ الشاعر داخل اللوحة تصويراً بارعاً وذلك من خلال استلابه لحركة الإنسان داخل الدار، وإثباته حركة الرياح في قوله:

«تستن الرياح بها»، والصورة توضح لنا الحالة النفسية الحزينة التي تجثم على الدار وتجول في ثناياها من خلال صوت الرياح الذي شبهه «بحنين الوله السلب، إذا فقد استطاع الشاعر في دقة ملاحظة، وبراعة تصويرٍ أن يجعل من كلماته وعباراته المصورة الموحية أداة تشكيلية ترسم خطوط هذه اللوحة، فبرزت عناصر اللوحة من صور، وشخوص، ومكان،

وزمن، وحركة، ولون، وصوت، وما يهيمن على (الصورة/ اللوحة) من حالة نفسية حزينة، وجعل الشاعر كذلك من دقة ملاحظته أداة لإبراز اليسير والمستتر من رموز هذه الدار، مثل المنتضد من الحجارة، والمنتصب من الأثافي، وصوت حركة الرِّياح.

ومن الصور الدقيقة تصوير الخيل وهي فارة منهزمة من ساحة المعركة في سرعة وستابق على الفرار بعد أن أرخى لها راكبوها المنهزمون أعنتها، فهي منطلقة مناسبة، لا تلوى على شيء، شبه هذه الصورة بصورة جريان ماء الجداول الممتدة في انتظام، وسريان، لا يمنعها مانع بين أصول الزرع، حيث يقول عمرو بن معد يكرب^(١):

ولما رأيتُ الخيلَ زُوراً كأنها

جداولُ زرعٍ أُرْسِلتْ فاسْبَطَرتِ

ودقة الصورة تأتي من وصف هذه الصورة الانهزامية للخيل، حيث كان فرارها في تخبُّط، وعشوائية، واختلاف يشبه تلك الفوضى التي يحدثها الزرع في جريان المياه المناسبة خلال أصوله.

ومن الصور الدقيقة الرائعة تشبيه النجاشي الحارثي جيش علي ومعاوية يوم صفين بجبلين ينتطحان، أو نارين مشتعلتين في قوله^(٢).

فَمَنْ يَرى حَيْلَيْنَا غداً تلاقياً

يقول : جَبَلانِ ينتطحانِ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٧١ .

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري ص ٥٢٥ .

كأنهما ناران في جوفِ غمرةٍ

بلا حطبٍ حد الضحى تقدانِ

فالشاعر بحسه المرفه استطاع أن ينقل لنا صورة مرعبة لهذا القتال، فالجيشان في كثرتهما وقوة تعبئتهما كجبلان العظيمان، وربما أراد أن يقول: إن دهما الحديد كدهمة الجبلين، وهو لم يكتف بذلك بل أضاف أنهما يتصادمان وليسا جامدين، أما دقة التصوير وروعته فتظهر في البيت الثاني حيث يصور لمعان السيوف وسط هذه الدُهمة بالنار التي تتقد في الظلام، والذي أضفى على الصورة جِدَّةً وطرافة هذا الاحتراز الجميل في كون النار بلا حطب ثم إنها تتوقد في النهار، وهو بذلك يصور لنا كثرة السيوف وشدة الحرب^(١). والتشبيه بالنار يوضح لنا مقدار ما في هذه الحرب من التهام وهلاك، وقد يفيد قوله «بلا حطب» أن مادة اشتعالها من داخلها هم المحاربون، وأنه كلما زاد اشتعالها كان عدد القتلى داخلها أكثر لأنهم البديل عن الحطب والذين يمدون هذه النار ببقاء الاشتعال. وانظر إلى هذه الصورة من جراء هذا التشبيه الذي تناولته مخيلة النجاشي كذلك حيث صورلؤم بعض الناس وتوارثهم له وتَنكَّبهم المجد وفعل الخير والمعروف فقال^(٢):

قَوْمٌ تَوَارَثَ بَيْتَ اللُّؤْمِ أَوْلَهُمْ

كَمَا تَوَارَثَ رَقْمَ الأذْرَعِ الأَحْمَرُ

(١) الأدب اليميني في القرنين الأول والثاني الهجرية، أحمد عبد الله السومحي ١/٢٦٨ / المطبعة

العربية / جدة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٣/١٢٤ السنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

تَجَنَّبَ المَجْدُ والمعروفُ أولَهم

كما تَجَنَّبَ بطنَ الرَاحَةِ الشعْرُ

لقد استطاع أن يصور لنا اللؤم بالبيت وهذه الصورة توضح لنا مدى ارتباط اللؤم بهؤلاء كما يرتبط أهل البيت به، وصور لنا كذلك شمول هذا اللؤم لهؤلاء كشمول البيت وهيمنة سقفه وعلوه على ساكنيه، وكذلك أفادتنا هذه الصورة شدة حرص هؤلاء القوم على هذا اللؤم. جاء ذلك من تشبيههم بالورثة الحريصين على الإرث، ثم أدرك الشاعر أن الإرث قد يكون من نصيب بعض الأقارب دون آخرين، فأفاد أن هذا التوارث لازم لهم لزوماً طبيعياً كما تتوارث الحمر رقعات الأذرع فلا تخلو واحدة من ذلك الرقم.

كما أجاد الشاعر في صورته الأخرى التي صور فيها تجنب المجد والمعروف هؤلاء القوم، وامتناعه عنهم، بتجنب وامتناع ظهور الشعر في راحة اليد، وجمال الصورة ودقتها وقوة دلالتها تأتي من استحالة وعدم إمكان ظهور الشعر في راحة اليد وبذلك يكون نفي المجد والمعروف عن هؤلاء القوم نفياً أبدياً، وكذلك تعرى راحة الكف وعدم ستر الشعر لها يوضح ذلك العرى الأخلاقي، الذي أصاب هؤلاء عندما خلعوا عن أنفسهم لباس المجد والمعروف، والصورة التي رسمها البيتان تصور لنا خسارة هؤلاء القوم وذلتهم ودناءتهم، فلا ثابت وملازم لهم إلا ما فيه نقصهم، وهو بيت اللؤم، ولا منفىً وبعيد عنهم إلا ما فيه نقصهم كذلك، وهو بعدهم عن المجد والمعروف، إذاً فالنقص والعيب ملازم لهم في جميع حالاتهم وعلى مدى حياتهم كملازمة البيت - الذي شبه به اللؤم - لأهله ملازمة أبدية مدى

الحياة، ودوام تجنب راحة اليدين الشعر - الذي شبه به بُعدهم عن المجد والمعروف - دواماً أبدياً مدى الحياة، وأن هذا النقص الناتج عن لزوم اللؤم، وتجنب المجد والمعروف لهم، ضاربٌ بجذوره في وسط آبائهم وأجدادهم الأوائل، فلا يمكن لهم زعزعتة واجتثاثه، وأصيلٌ فيهم منذ أوائلهم وليس طارئاً عليهم.

وبجانب هذه الدقة، وشدة الملاحظة لدى شعراء مذحج في تصويراتهم الفنية هناك كثير من الصور المبتكرة لشعراء مذحج، والتي تفردوا بها من حيث سبق في التناول ووقف عليها كثير من الشعراء بعدهم محاولين تقليدها، وقد نبه كثير من النقاد على بعض هذه الصور لشعراء مذحج وأكثرها من الاستشهاد بها، من تلك الصور قول الأفوه الأودي مصوراً شجاعتهم وكثرة قتلهم لأعدائهم^(١):

وترى الطير على آثـارنا

رأى عينٍ ثقبته أن ستمار

وقد وضع الجرجاني ابتكار الأفوه، وأنه قد سبق الجماعة - يقصد من تناول هذه الصورة - بأمور منها السابق، وهي الفضيلة العظمى^(٢).

ثم وضع الجرجاني كذلك ملامح هذه الصورة من خلال تصوير الشاعر لقرب الطير منهم، حيث عبر بقوله «رأى، عين» لأنها إذا كانت بعيدة تخيلت

(١) الطرائف الأدبية ١٢ .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه. لعلي بن عبد العزيز الجرجاني ٢٧٤ / تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد الجاوي / دار القلم بيروت / بدون سنة طبع

ولم تُرَ، وأن قربها إنما يكون لتوقعها للفريسة، وأن قول الأفوه «ثقة أن ستمار» جعل الطير واثقة من الميرة^(١). وهي جثث القتلى.

وللأفوه الأودي كثيرٌ من الصور الشعرية المبتكرة التي لم يسبق إليها لأنه من أقدم الشعراء الجاهليين ومن أوائل من قصّد القصائد، فمن صورهِ المبتكرة قوله يشبه الحياة بالثوب المستعار^(٢):

إنما نعمةٌ قوم متعةٌ

وحياةُ المرء ثوبٌ مستعارُ

وقوله^(٣):

كشهابِ القذفِ يرميكم به

فارسٌ في كَفهِ للحربِ نارُ

ولم يتناول من الشعراء أحد هذه الصورة قبل الأفوه، مما حدا بالجاحظ أن يشكّ في صحة نسبة هذا البيت للأفوه حيث يرى أن صورة الشهاب المقذوف، إنما كان قريب من عهد النبوة والأفوه كما يقول الجاحظ جاهلي متقدم ولكن^(٤) صورة الشهاب الساقط من السماء كظاهرة طبيعية أقدم - في نظري - وجوداً منها كظاهرة قذف وُجِدَتْ قُبَيْلِ الوحي أو أثناءه.

(٢) الوساطة ٢٧٤ . لعلي بن عبد العزيز الجرجاني .

(٣) الطرائف الأدبية ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢ .

(١) الحيوان ٦/ ٢٨٠ لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ/ تحقيق عبد السلام هارون، شركة مكتبة

ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده/ بمصر/ الطبعة الثانية. سنة ١٢٨٩هـ - ١٩٦٩م.

ومن الصور المبتكرة التي احتواها شعر مذحج وأظهرت صورة فنية رائعة ذات احياء عميقة حيث نبضت بروح التفرد والسبق قول عبد بغوث الحارثي^(١):

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

أمعشر تيم أطلقوا من لساني

فالشاعر جعل عدم إحسان أسريه إليه في أسره نسعةً عقلت ومنعت لسانه من النطق بمدحهم، وبعد أن جَسَم لنا هذا المعنى المانع الحائل دون مدحه لهم أمرهم بأن يزيلوا هذا المانع الذي يشبه النسعة العاقلة والمانعة حتى ينطلق لسانه بمدحهم. فانظر كيف أحال المعنوي الذي هو عدم الإحسان إلى حسي الذي هو النسعة؟ وكيف سدّت هذه الصورة معاني كثيرة وجليلة؟ وكيف أوحّت لنا بهذه الأحياء المشعة ونهضت بهذه التعبيرات العميقة مع ملاحظة السبق والابتكار في الصورة؟

ومن الصور المبتكرة المتفرّدة قول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب، تصور قومها إذ ذلوا وخاروا وقعدوا عن الأخذ بثأر أخيها عبد الله^(٢)، وقبّلوا بالدية:

فإن أنتم لم تقبلوا واتديتُم

فمَشُوا بأَذاب النعام المُصَلِّم

(١) الفضليات رقم (٣٠) ص ١٥٥

(٢) نوادر أبي علي القالي ٢/١٩٠ «دار الكتب المصرية».

وأكثر جدّةً وابتكاراً وتفرداً هذه الصورة التي فُتِنَ بها النقاد في كتب
البلاغة فأكثرُوا من الاستشهاد بها - هي قول الشُّمَيْذَرِ الحارثي (١):

بني عمنا لا تذكرُوا الشعرَ بعدما

دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

حيث جعل الشاعر الشعر شخصاً يموت ويُدْفَن، وليس شخصاً عادياً
إنما كان موته ودفنه رمزاً لذهاب الشرف والعلو والعزة والرّفعة. ومن
الصور المبتكرة التي أشاد بها النقاد في كتب البلاغة (٢) وابتكرتها مخيلة
شعراء مذبح الثرة قول عمرو بن معد يكرب يصور سكوته عن مدح قومه
والمفاخرة بهم والمانع له من ذلك فيقول (٣):

ولو أن قومي أنطقني رماحهم

نطقتُ ولكن الرّماح أجرت

فكلمة «أجرت» حملت من جمال الصورة ما يغني عن ألفاظ كثيرة
لتوضيح ما أراده الشاعر، وليس هناك من أدل وأروع في دلالة الصورة من
موقع الكلمة في مكانها من البيت، فلقد أخرج الشاعر الفعل من لا فعل،
وجعل السلب إيجاباً، واستحال النفي إثباتاً، حيث صور تقهقر قومه عن
مواطن العزة والشرف في خوض المعارك بمثابة الأداة التي هي عامل ومانع

(١) شرح حماسة أبي تمام اللتبريزي ٦٢/١ .

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ٤٥ ، ٤٦ تحقيق عبد العزيز المانع/ طبع دار العلوم
١٩٨٥/١٤٠٥ م.

(٣) شعر عمرو بن معد يكرّب الزبيدي ص ٧٣ .

الفخر وهي التي أسكته بعد أن عطلها قومه عن أداء وظيفتها في ساحات المعارك. ومن الصور الجديدة المبتكرة تصوير النجاشي الحارثي قصر المغيرة في قوله^(١):

فأقسمُ لو خَرَّتْ من اسْتِكَ بيضةٌ

لَمَا انكسرتُ من قَرَبِ بعضِك من بعضِ

حيث جاءت هذه الصورة الطريفة، المضحكة من قوة التخيّل لدى الشاعر للأشياء عندما جعل المستحيل ممكناً، فجعل الرّجل يبيض، وتصور أن هذه البيضة قد نزلت منه، ولكنها لم تنكسر؛ لقرب مخرجها من مستقرها على الأرض، وتأتي هجائية الصورة من هذا القصر المشين، ومن جعل المهجور يبيض، أو من تصوير ضخامة إست الرجل وعجزته حتى تندس البيضة فيها، فإذا ما وقف، أو مشى سقطت فلم يصبها الكسر لشدة قصره وقربه من الأرض.

أثر الإسلام في الصورة الفنية عند شعراء مذحج :

ليس هناك من تغيير طرأ على الصور الفنية في شعر مذحج التي يتخذونها لتوضيح معانيهم وتشكيلها متحدة العناصر والمنزَع، فلم يظهر أثر لهذا الدين الإسلامي وهذه العقيدة الجديدة التي ثارت على مظاهر القديم الجاهلي، وغيرت كثيراً من الأنماط والصور في شؤون الحياة، فلم يتمثل شعر مذحج صور الإيمان الإلهي ولم تظهر في صورها الشعرية

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١١٠ لسنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م

رموز الإسلام العظيمة وهي واسعة سعة هذا الكون العظيم، وممتدة امتداد حياة البرزخ والآخرة وما فيها من صور الجزاء والحساب والنعيم والجنة والنار، وكان الأجدر بشعراء ما بعد الإسلام - من العرب عامة ومذحج منهم - أن يستوعبوا كل هذا التغيير الذي غيرَ الإنسان، وغيرَ مظاهر الحياة في هذا الكون حتى استحال ربانياً وصارت الطبيعة محطَ نظرٍ تتجلى فيها عظمة الخالق وبديع صنعه، فهل نعيد عدم وجود صور إيمانية إلى كون الصورة تركيباً جمالياً تشكيمياً لا يمكن وصفه بالحلال والحرام، ولا علاقة له بالكفر والإيمان، أم أن الشعر العربي - وشعر مذحج جزء منه - أثر الكسل والجمود والقبض على الصور الموروثة من عصر ما قبل الإسلام؟ ولكن بجانب ذلك لا نستطيع أن نتجاوز تلك الملامسة البعيدة التي قام بها بعض شعراء مذحج للصورة الفنية بعد الإسلام، حيث ارتبطت تلك الصور بالقرآن والسنة النبوية وإن كانت تلك الملامسة لا تتعمق في أجزاء الصور لتحيلها إلى خلقٍ جديدٍ ينفُحُ بروح الإسلام والدين الجديد من تلك الصور قول ظبيّان بن كَدَاة المرادي^(١):

أَتَيْتَ بِنُورٍ يَسْتَضَاءُ بِمِثْلِهِ

وَلَا عَيْبَ فِي الْقَوْلِ الَّذِي يُتَنَخَّلُ

فقد شبه الهدى الذي جاء به النبي ﷺ والذي يقشع ظلمات الكفر بالنور الذي يبدد دياجير الظلام، وزاد هذه الصورة عظمة قوله «يُسْتَضَاءُ بِمِثْلِهِ» فكل ما وضحناه من صورة الضياء والتنوير إنما هو لمثل هذا الهدى الذي

(١) صفة جزيرة العرب ٢٧٧ .

جاء به النبي محمد ﷺ، فكيف بنور الهدى الأصلي وضيائه، سيكون أعظم لا محالة، وكان الشاعر تأثر في هذه الصورة بقوله تعالى: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ، وَكِتَابٌ مُبِينٌ»^(١). وأما الصورة في قول ظَبْيَان بن كدادة^(٢):

بأنك قسطاس البرية كلها

وميزانُ صدقٍ ما أقام المُشَلَّلُ

فهي مأخوذة أو متأثرة بقوله تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ»^(٣).

وما أظن تصوير جُهَيْش بن أُويسِ النخعي أنفسهم في جاهليتهم وشركهم بقوله^(٤):

شَرَعْتَ لَنَا دِينَ الْحَنِيفَةَ بَعْدَمَا

عَبَدْنَا كَأَمْثَالِ الْحَمِيرِ الطَّوَاغِيَا

إلا متأثراً في هذه الصورة بقوله تعالى: «إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا»^(٥)، ويظهر تأثر شعراء مذحج في صورهم بالإسلام أكثر ما يظهر عند شعرائهم من الخوارج، وهذا رُهَيْن بن سَهْم المرادي يشبه صفوف الخوارج - وهو منهم - في حروبهم بالسُّور المحكم البناء في قوله^(٦):

(١) سورة المائدة آية ١٥ .

(٢) صفة جزيرة العرب ٣٧٧ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٨ .

(٤) الإصابة ٢٥٦/١ «دار الكتاب العربي» .

(٥) الفرقان آية ٤٤ .

(٦) أنساب الأشراف للبلاذري رقم ٤ جزء ١ ص ٣٨٧ .

تَخَالَ صَفَّهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ

للموتِ سوراً من البنيانِ مَرَّضُوصاً

فالصورة تعبير رائع وتصوير يفيد شدة تماسكهم وعدم الفرقة بينهم وقوتهم أمام عدوهم ومقدار ثباتهم في المعارك كثبات السور القوي الذي لا يتزعزع والتأثر في هذا البيت واضح بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ كَانَتْهُمْ بَنِيَانًا مَرَّضُوصًا»^(١).

ومن الصور المتأثرة بمفاهيم الإسلام قول وَهَبِ بْنِ زَمْعَةَ الْجَعْفِي يصف حال الدِّينِ فِي كَفِّ الظَّالِمِ وَمَا يَصِيبُهُ مِنْ اعْوَجَاجٍ وَمِيلٍ^(٢):

وَعَادَتْ قَنَاةُ الدِّينِ فِي كَفِّ ظَالِمِ

إِذَا مَالٍ مِنْهَا جَانِبٌ لَا يَقِيمُهَا

فالصورة كما نشاهد لها إحياءاتها وظلالها ومفاهيمها الإسلامية حتى تضافرت الصورة على تشكيل استقامة الدين والحفاظ على كيانه.

ومن الصور المتأثرة بالعبادة الإسلامية قول الأشتر النخعي يَصُورُ محمد بن طلحة، حيث يصور زهده وقيامه الليل بالصلوات وقراءته القرآن، وأنه رجلٌ سَلِمٌ ومحبّةٌ وصلاح، حيث يقول^(٣):

وَأَشْعَثَ قِوَامِ بِأَيَاتِ رَبِّهِ

قليل الأذى فيما ترى العَيْنُ مسلم

(١) سورة الصف آية ٤ .

(٢) كتاب الفتوح لابن أعمش ٦٨/٦ .

(٣) أخبار شعراء الشيعة ص ٤٧ .

وبعد لقد حاولت هذه الدراسة تلمّس شيء من خصائص الصورة الفنية في شعر مذحج، وحاولت قدر الإمكان تجليتها لتضعها في موضعها المناسب من الصورة الفنية، في تراثنا الشعري العربي، وبجانب ما توافر عليه شعر مذحج من صور دقيقة ومبتكرة، استطاع الشعر أن يحتوي كذلك على أنواع من الصورة الفنية، منها ما يوضح شكل الصورة، ومنها ما يوضح حركتها، أو لونها، ومنها ما نحس فيه رائحة الصور أو ذوقها وطعمها، وأن شعراء مذحج حاولوا بقدر ما مكنت لهم أدواتهم في ذلك العصر أن يرسموا لنا صوراً فنية متكاملة. كل ذلك لا يجعلنا نغفل عن بعض صور لهؤلاء الشعراء اعتورها الضعف، فلم توفّق مخيلاً شعراء مذحج في إنقاذها من مهاوي التردّي والهبوط الفني، من تلك الصور: قول الأشر النخعي مصوراً الدروع^(١):

حَمِيّ الحَديدُ عليهمُ فكأنه

ومضانُ برقٍ أو شعاعُ شمسٍ

فقد نقد أبو هلال العسكري هذه الصورة كما يذكر التبريزي بقوله: «الحديد إذا كان مجلواً وطلعت عليه الشمسُ برق وإن لم يحم، وإذا لم يكن مجلواً لم يكن له بريقٌ ولو حمي، فقوله «حَمِيّ فصار له ومضانٌ رديءٌ لا وَجَهَ لَهُ»^(٢). وَرَأَيْ أَبِي هلال هذا إذا كانت الفاء في قوله «فكأنه» للترتيب والتعقيب أما إذا كان مراد الشاعر منها مطلق الجمع — وهو أحد استعمالاتها — فقد خرج بصورته من الرداءة التي ألحقها بها أبو هلال

(١) حماسة أبي تمام رقم (٢٥) ج ١ ص ٩٢ «عسيلات»

(٢) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٧٧/١

العسكري، وبذلك لا يكون اللّمعان ناتجاً ومرتباً على الحميان، وإنما
يصورها الشاعر بأنها حامية وتلمع دون تَرْتُب أحدهما على الآخر.

ومن الصور الضعيفة قول النجاشي الحارثي في علي رضي الله عنه^(١):

أَمَا تَرَى النِّقْعَ مَعْصُوباً بِلِمَتِهِ

نِقْعَ الْقِبَائِلِ فِي عَرِّيْنِهِ شَمَمٌ

غُضْبَانٌ يَحْرِقُ نَائِبِيهِ بِجَرَّتِهِ

كَمَا يَغَطُّ الْفَنِيْقُ الْمَعْصِبُ الْقَطْمُ

فالشاعر شبه غبار المعركة بالعمامة المعصوبة على رأس علي رضي الله
عنه، وشبه صوت احتكاك أسنانه من شدة الغضب بصوت الفحل عند
اشتدائه الضراب، فالشاعر في الصورة الثانية لم يوفق، فهي صورة غير
لائقة بأمر المؤمنين وبمقامه، وإن كان الشاعر إنما قصد من الصورة بيان
شدة الصوت، إلا أنه كان من الواجب أن يجد من الصور التي تحقق مراده
غير هذه الصورة التي تخدش الحياء، ولا تتناسب ومقام أمير المؤمنين رضي
الله عنه فَمَنْزَع الصورة حَطَّت من روعتها.

وقد أخفق عبيد الله بن الحر الجعفي في تصوير القتلى من أعدائه وهم
مُلْقُونَ على وجه الأرض بالسَّكَارَى الذين غشيتهم وصرعتهم الخمرة
فطاحوا لا يدرون على أيِّ هيئة هم، حيث يقول^(٢):

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٣ ص ١٢٠ ، سنة ١٣٨٥ / ٦٦

(٢) منتهى الطلب لابن المبارك المجلد الأول الجزء الثاني ص ٢٥٨ مصورة عن مخطوطة لاله لي

٩٤١ مكتة السليمانية باستنبول/ تركيا

فما رُمْتُ حتى صرُعَ القومُ نشوَةً

سُكَارَى وماذاقوا شرابَ حدودِ

فالمشبه لا يتناسب في هذه الصورة مع المشبه به؛ لوجود الحياة والحركة في السُّكاري الذين صرعتهم الخمر، وعدم وجود ذلك في القتلى.

(ج) أسلوب شعر مذحج :

ليس الأسلوب — كما يقول جورج بوفون: إلا «النظام والحركة اللذين يضع المرء فكره في إطارهما»^(١). إذاً فالأسلوب ليس الفكر، إنما هو النظام الذي يخرج به الفكر، وبمعنى آخر هو المظهر اللفظي للنص أي اختيار اللفظ وإحلاله الموقع المناسب في السِّياق^(٢).

وأسلوب مذحج من حيث العموم ليس له خصوصية أدائية عن أسلوب الشعر العربي، ولكن لا حرج في القول: إن لشعراء مذحج أو لبعضهم شيئاً من الخصوصية الأسلوبية في نواحٍ من هذا الشعر، وفي مواضع فيه، وليس

(١) من مقال بعنوان «مقال في الأسلوب» كتب جورج بوفون عالم النبات الفرنسي، وألقاه في حفل قبوله عضواً بالأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٥٢م، والمقال مترجم عن طبعة محققة قديمة صدرت عن دار هاشيت الفرنسية سنة ١٧٥٢م، وهو مثبت بالعربية في مجلة «فصول» وهي مجلة للنقد الأدبي فصلية موثقة تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة المجلد الخامس العدد الثالث الجزء الأول ص ٢٠٢ لسنة ١٩٨٥م.

(٢) من مقال موثق بعنوان «النظر الأسلوبية في التراث العربي، الباقلائي نموذجاً/ لإبراهيم خليل/ منشور في مجلة التوباد، وهي مجلة فصلية تعني بالأدب والفكر والثقافة/ تصدر عن الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون مجلد ٢ عدد ٢، ٣، ٤ سنة ١٤٠٩هـ ص ١٠٥، وهي مجلة محكمة موثقة تصدر في الرياض.

إجحافاً لشجاعة العرب وفخرهم وراثتهم، إذا قيل: إن لشعراء قبائل مذحج أساليب تنبىء عن تفرد ما في بعض نواحي القول، وذلك لأن أسلوب الكلام مرتبط بالسّمات الشخصية والذاتية للشعراء، ولا أظنني أزعم إذا قلت: إن مكانة هذه القبيلة الحربية الاجتماعية المتميّزة عن بعض القبائل العربية تجعل لشعرائها أحقية في تمييز أسلوبهم الشعري عندما يتحدثون عن شجاعتهم الحربية وفخرهم بمكانتهم الاجتماعية. فعمرو بن معد يكرب يختلف أسلوب قوله في الشجاعة عن قول غيره ممن تغنى بالشجاعة، وفخر بني عبد المدان لا بد ويختلف حتماً عن فخر غيرهم، لأن الشيء - كما يقول الباقلاني - إذا صدر من أهله وبدأ من أصله، وانتسب إلى ذويه، سلّم في نفسه، وبانت فخامته، وشوهد أثر الاستحقاق فيه^(١)، بخلاف ما إذا صدر من متكلف. فاستمع إلى ثقة يزيد بن عبد المدان في قوله يخاطب أمية بن الأسكر الكِناني في معرض منافرتة لعامر بن الطفيل^(٢):

أُمِّي يَا بَنَ الْأَسْكَرِ بَنَ مُدْلِجٍ
 لَا تُجَعَلَنَّ هَوَازِنَا كَمَذْحِجٍ
 إِنَّكَ إِنْ تَلَّهَجَ بِأَمْرِ تَلَّهَجٍ
 مَا لِنَبْعُ فِي مَغْرَسِهِ كَالْعَوْسَجِ
 وَلَا الصَّرِيحُ الْمَحْضُ كَالْمَمْزَجِ

(١) إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ص ٢٨٠ تحقيق عماد الدين أحمد حيدر/

مؤسسة الكتب الثقافية/ بيروت/ طبعة أولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) الأغاني ١٢/١٠ «مصورة دار الكتب»

ومهما يكن من تحفظٍ لنا على مثل هذه الثقة، إلا أن بعضاً من تلك الخصائص التي يحسون بها تظهر في أسلوبهم الشعري، لولا أن نساء مذحج — كما يقول الهمداني — «كن مشهورات بين نساء العرب بالنيّاحة وحرقتهن الشديدة على الموتى^(١)» لما كان لشعر قيس بن سلمة الجعفي هذه الخاصية الرثائية التي تكاد تشجينا عندما ننظر في قوله يرثي أخاه^(٢):

وباكية تبكي إليّ بشجوها

ألا رُبَّ شجوي لي حواليك فانظري

نظرتُ وسافي الترب بيني وبينه

فله دري أي ساعة منظر

فانظر إلى كلمة «باكية» و«الشجو» وتكرارها وموقع «ألا» من النظام، وأنعم النظر في عجز البيت الثاني وما يفيض به من عاطفة حزينة متدفقة، فستجد كل لفظة وكل تركيب يشي هذا الشعر بخطوط أسلوبية تنبئ عن الحالة التي وصف بها الهمداني حال الرثاة عند هذه القبيلة.

وفي هذا البحث سنحاول أن نتحسس ونستشف ملامح شعر مذحج الأسلوبية فيما يتعلق بالألفاظ والتراكيب وبناء القصيدة، ثم في إيقاعات ذلك الشعر وموسيقاه، ولن أتوانى وأنا أستعرض تلك الصفات الأسلوبية أن أسرع بالإشارة إلى ما قد يواجهني من خصوصية أسلوبية تظهر في شعر

(١) صفحة جزيرة العرب ص ٢٦٥ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم (٧١٨٥) ج ٢ ص ٢٤٠ .

مذحج عامة، أو لدى شاعر من شعرائها خاصة متى ما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

١ - في الألفاظ :

إن أول ما يجب أن نتساءل عنه ونحن نتحدث عن صفات الألفاظ في أسلوب القول الشعري عند مذحج وفي العصر الجاهلي بخاصة هو أن لغة شعرهم وألفاظها لم يظهر فيها أثر تلك اللهجات الجنوبية، كالحميرية، والسبئية مثلاً، ولا أثر تلك الحياة الحضارية، والتطور والرقي التي كان يعيشها أبناء جنوب الجزيرة العربية. ولم نجد أثراً كذلك لتلك التعاليم والطقوس والديانات التي كانت منتشرة في اليمن ونجران كالمسيحية واليهودية، وقد كانت جنوب الجزيرة عامة مسرحاً لقبائل مذحج وكانوا يخالطون أبناء تلك الحضارات واللهجات والديانات من سكان جنوب الجزيرة، ولعلنا نقول: إن ما بين أيدينا لا يمثل كل ما أبدعته مذحج من فنون القول الشعري. وأن شعراءها كانوا يتعمدون نظم أشعارهم بتلك اللغة العربية الفصيحة المشتركة بين سائر القبائل العربية، وأن روح الدين الإسلامي قد حالت دون نقل الرواة لذلك الشعر الذي احتوت ألفاظه على تعاليم تلك الديانات وطقوسها، ولكن كل ذلك لا يشفي ظمأ ذلك السؤال القائم ويبقى يتطلع لما يروي عطشه ويبل صداه.

ولما كانت قبيلة مذحج قبيلة محاربة فقد جاء أسلوبها الشعري قوياً صارماً يناسب ما يعبر عنه من معان حربية، وكذلك جاء أسلوب شعرها فخرياً مفرداً في الفخر والاعتداد بالنفس والقبيلة، فقد سيطر معجم الألفاظ

الحربية والحماسية على شعرهم، ولم تقتصر هذه السيطرة على شعرهم الجاهلي، بل امتدت هذه الخاصية اللفظية لتشمل شعرهم بعد الإسلام، وذلك لأن قبيلة مذحج كانت قبيلة محاربة في جاهليتها وفي إسلامها، فقد شاركت في معظم الفتوح التي قامت بها الجيوش الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وشاركت في تلك الصراعات التي قامت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وكان لها مواطىء قدم قويٌّ فيها. فانتشر في شعرها ألفاظ القتل والطَّعن والاصطرَاع، والنزال والكر والفر والضرب والإقبال والإدبار والشجاعة والبطولة والهزيمة والتقدم والفرار، والكوم والجراحات والكتيبة والجحفل والخميس والجيش والوعى والسهام والجمام والقنا والحرب والسلم والعدو والفرع والنجدة والاستغاثة والنقع والسلب والغنيمة والسَّبي والثَّار والوثاق، والغدر، وعنوة، وانتشر ذكر الخيل والألفاظ التي تصفها وألفاظ السلاح من سيفٍ ورمحٍ ودرعٍ ومحجنٍ وعواليٍ وقنأ، وغيرها من ألفاظ الحرب والمعارك والمنازلة يظهر ذلك في قول عمرو بن معد يكرب الزُّبيدي^(١):

فلما هبطنا بطنَ رنيةٍ بالقنا
أرَّنَ سحابٌ رعدُهُ متجاوبٌ
وسلَّتْ سيوفُ الهندِ منا كأنها
مخاريقُ نالتها أكفُّ لواعبُ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٤٣ .

بها نتشافي الغل في ذات بيننا

وتزهو بأيدينا سيوف قواضب

فكلنا لهم بالصاع صاعين عنوة

فآلوا ورب البيت أن لا نحارب

ومنزلة فيها العوالي كأنها

هشيم شجار كسرتها حواطب

وانظر مثل هذه الألفاظ المتصلة بالحرب والمعارك عند الأسعر الجعفي^(١).
وعند عبد المدان^(٢) ويزيد بن مخزوم^(٣) وغيرهم كثير من شعراء مذحج.

ولم تقف سيطرة القاموس الحربي على أسلوب مذحج الذي يصف
المعارك الحربية فحسب، بل سيطرت كذلك على أساليبهم التي تتناول
أغراضاً مختلفة فهم يتمثلون الحرب وشؤونها في مختلف حياتهم في
فخرهم^(٤)، وهجائهم^(٥) وغزلهم وحسبك هذه الأبيات الغزلية لجعفر بن عتبة
الحارثي الذي يقول فيها مخاطباً محبوبته وقد زارته في سجنه^(٦):

(١) الأصمعيات ص ١٤٠ .

(٢) الأغانى (دار الكتب) ١٢/١٠، ٢١ .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ٤٩٤ (كرنكو)، ومنتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك ١٣٦/٥
ب، ١٢٧ م .

(٤) معجم الشعراء للمرزباني ٤٩٤ (كرنكو) ومنتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك ١٣٦/٥
ب، ١٢٧ أ .

(٥) الأشباه والنظائر للخالدين ٣٥/١ .

(٦) الأغانى (دار الكتب) ١٢/٥٠ .

عجبتُ لسراها وأنى تخلصت
إلى وبابِ السجنِ بالقفلِ مغلُقُ
فلا تحسبي أني تخشعتُ بعدكم
بشيءٍ ولا أني من الموتِ أفرقُ
ولا أن قلبي يزدهيه وعيدهم
ولا أنني بالمشي في القيدِ أخرقُ
وكيف وفي كفي حسامٌ مذلقُ
يعضُ بهاماتِ الرجالِ ويعلقُ ؟
ولكن عررتني من هواكِ صبابةُ
كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلقُ

فالألفاظ (تخشعت، الموت، أفرق، يزدهيه، وعيدهم، حسام، مذلق يعض، هامات). كلها ألفاظ حربية حماسية شجاعة. وفي العصر الإسلامي تتجلى هذه الخاصية اللفظية فيما رأيناه في مقطعة جعفر السابقة وفي قول الأشر النخعي^(١).

قَدَدْنَا الفِصْلُ فِي الصَّبَاحِ
وللسلمِ رجالٌ وللحروبِ رجالُ

(١) وقعة صفين ص ٤٦٩ .

فـرـجـالُ الحـروبِ كـلُّ خـدبٍ
مقـصـم لا تـهـدّـه الأـهـمـوأل
يـضـرّبُ الفـارـسَ المـدجّجَ بالسـيـفِ
إـذا فـلّ في الوغى الأـكـفـال
يا بـنَ هـنـدٍ شـدّ الحـيا زيمَ
للموتِ ولا يـذـهـبـنُ بـك الأـمـالُ
إنّ في الصـبـحِ إن بـقـيـت لأمـرا
تتفـادى من هـولِ الأـبـطـالُ
فـيـه عـزُّ العـراقِ أو ظفـرُ الشـامِ
بأهـلِ العـراقِ والـزـلـزـالُ
فـاصـبـروا للـطـعانِ بالأسـلِ السُّمـرِ
ضرب تجري بـه الأـمـثـالُ

وتلمس هذه الظاهرة في العصر الإسلامي كذلك عند عبید الله بن الحر الجعفي^(١) والنجاشي الحارثي^(٢) وغيرهما من شعراء مذحج في ذلك العصر. وتبثُّ الحرب والمعارك روحها في هذه الألفاظ فتسّمها بالقوة والقسوة والشدة التي تتناسب وشدة المعارك والحروب وكذلك تضيف عليها الفخامة

(١) انظر شعراء أمويون ٩٣ - ١١٩ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٣ ص ١٠٤ - ١٢٤ .

المناسبة للفخر ويمكننا أن نتحسس ذلك في كلمة (النضخ) في قول عبيد الله ابن الحر الجعفي^(١):

وترى النضخ من وقع الأسنة بينهم

جسيماً بلبات لهم وخذود

فالنضخ وهو خروج الدم إثر الطعنة قسراً مندفعاً، فيها من الشدة والقسوة المناسبة لقوة الحرب وشدتها وقسوتها.

ويظهر أسلوب القوة والعنف المقترن بالشجاعة في ألفاظ شعر مذحج عامة وشعر أبطالها بخاصة حتى في لحظات الضعف والانكسار يظهر ذلك في اعتذاريات عمرو بن معد يكرب في بعض الهزائم التي لحقته وقومه من بني سليم وفارسها العباس بن مرداس^(٢).

أما الغرابة والوحشية في ألفاظ شعر مذحج فتتجلى بخاصة عند شعراء الوبر والبادية منهم - وهي غرابة ليست صعبة لديهم - فنجد ألفاظاً مغرقة في البداوة عندما تذكر لنا الصحراء، وما فيها من طبيعة وحيوانات، ومردّ هذه الظاهرة إلى طبيعة أولئك الشعراء الذين ألفوا تلك البيئة الصحراوية^(٣)، فجاءت ألفاظهم غريبة موحشة، غرابة تلك الصحراء ووحشتها من ذلك قول أبي الأشعث الجنبلي يصف مفازة شهيد^(٤):

(١) شعراء أمويون ١١٢ .

(٢) انظر شعر عمرو بن معد يكرب ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص ٢٧٤ .

(٤) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢٨٢ .

حَزَّتْ حَوَازِي فِي حَيَاتِي أَنْ أَرَى
 مَا كُنْتُ أُوعِدُ مِنْ مَفَازَةِ صَهِيدِ
 فَإِذَا مَفَازَةٌ صَهِيدٍ بَتَنُوفَةٍ
 تِيهِ تَظَلُّ رِيَا حُهَا لَا تَهْتَدِي
 وَتَظَلُّ كَدْرًا مِنْ قَطَاهَا وَلَهَا
 وَتَرُوحُ مِنْ دُونِ الْمِيَاهِ وَتَغْتَدِي

وقول معاوية بن الأفلح الأودي يصف فرسا له^(١):

لَيْسَا سِوَاءَ جَرِيهِنَ فِي الْجُدُدِ
 طُورًا وَفِي الْجَزُولِ ذِي الْوَعِثِ الْقَرْدِ
 بَكَرَزَتْ الْحَوَاءُ غَيْرَ مَا فَنَدُ

وتجد هذه الغرابة والوحشية في كثير من ألفاظ شعر الأفوه الأودي من
 مثل قوله^(٢):

هَابِ^(٣) هِبَلٌ^(٤) «مَدَلٌ» يَعْمَلُ هَزَجٌ

طَقَطَافُهُ^(٥) ذُو عِفَاءٍ^(٦) نِقْنِيقِ جَنِيفِ

(١) أسماء الخيل للأسود الغندجاني رقم (١٥٨) ص ٧٨ .

(٢) الطرائف الأدبية ص ٢١ .

(٣) بطيء .

(٤) ضخم مسن .

(٥) الناعم الرطب من النبات .

(٦) كثرة النبات .

ولدى يزيد بن مَحْرَمٍ والشُّويعر والأسعر وغيرهم^(١).

تلك الغرابة والوحشة التي لمسناها عند شعراء البادية من مذحج الذين تأثروا بالصحراء وطبيعتها نجدها تلين عندما تتناول الموضوعات العاطفية^(٢)، فعمر بن معد يكرب يَرِقُّ ويتخيراً ألفاظاً عذبة هادئة سليسة وسهلة عندما يعبر عن الحب والحنان والعطف والرقّة نحو قوله^(٣):

أُمُّ بَسَلْمَى قَبْلَ أَنْ تَظْعَنَّا

إِنَّ بِنَا مِنْ حَبْهَا دَيْدُنَا

كَأَنَّ سَلْمَى ظَبِيَّةٌ مَطْفَلٌ

تَرَعَى حَقَافَ الرَّمْلِ مِنْ أُرْزَنَا

تَنْشُرُ وَحْفَاً مُسَبَّكَرَا عَلَي

لِبَاتِهَا أَسْوَدَ مَغْدُونَا

قَدِ عَلِمْتَ سَلْمَى وَجَارَاتِهَا

مَا قَطَرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا

وتبعد الغرابة والوحشة - كذلك - من ألفاظ شعر مذحج عند بعض الشعراء الذين عاشوا حياة الملوك والقرى (المدن) كعبد يغوث الذي كان

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب ١٢٦/٥ ب/ ١٢٧ أ/ والوحشيات لأبي تمام ٤٦ ، ٤٧ .

وتهذيب إصلاح المنطق ٢٢٨ / وأمالي المرتضى ٢٢/٢ .

(٢) الشعر الجاهلي خصائصه وقنونه ٢٧٥ .

(٣) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٥٤ .

يعيش في حاضرة نجران، حيث أننا لو استعرضنا قصيدته المشهورة لا نجد فيها تلك الألفاظ الغريبة الموحشة التي نحس بها عند من سبق من الشعراء من أهل البادية (الوبر) من مذبح، فهي تحوي ألفاظاً سهلة تحمل ليونة الاستعطاف وهي مع ذلك جزلة رصينة ليست مبتذلة حيث يقول^(١):

أَلَا لَا تَلُومَانِي كَفَى اللَّوْمُ مَا بِيَا

وَمَا لَكُمَا فِي اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفْعُهَا

قَلِيلٌ وَمَا لُومِي أَخِي مِنْ شَمَالِيَا

فِيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلْغَن

نِدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

ومثل عبد يغوث في سهولة الألفاظ وسلاستها ووضوحها شعر عبد المدان بن الديان^(٢) ويزيد بن عبد المدان وهم ممن أثرت فيهم بيئة القرى المتحضرة، وصلتهم بملوك المناذرة والغساسنة، يظهر ذلك في قول يزيد بن عبد المدان الحارثي^(٣):

تَمَالَا عَلَى النَّعْمَانِ قَوْمٌ إِلَيْهِمْ

مَوَارِدُهُ فِي مَلِكِهِ وَمَصَادِرُهُ

(١) المفضليات رقم (٣٠) ص ١٥٥ .

(٢) الأغاني (دار الكتب) ١٢ / ٢٠ ، ٢١ .

(٣) الأغاني (دار الكتب) ١٢ / ١٤ ، ١٥ .

على غير ذنبٍ كان منه إليهم
سوى أنه جادت عليهم مواطرُهُ
فباعدهم عن كل شر يخافُهُ
وقربهم من كل خير يبادرُهُ
فظننوا وأعراض الظنون كثيرةٌ
بأنّ الذي قالوا من الأمرِ ضائرُهُ

وتظهر رقّة الألفاظ ولينها وسهولتها كذلك في شعر مذحج عند جعفر
بن علبة الحارثي ذلك الشاعر الذي كَلَفَ بمغازلة النساء ومبادلتهن أحاديث
الحب والهوى والغرام مما أثر على لسانه فرقت لغته، ونعمت ألفاظه ولا
يفوتنا أن نشير إلى أثر بيئته نجران كذلك، وإلى بيئة الحجاز الغزلة التي
كانت قريبة من موطنه، يظهر ذلك في قوله^(١).

أشارت لنا بالكفّ وهي حزينَةٌ
تودّعنا إذ لم يودّع سلامُها

وقوله^(٢):

ألا هل إلى فتيةٍ لهُوٍ ولذّةٍ
سبيلٍ وتَهتَفِ الحمامِ المطوَّقِ

(١) أمالي البيهقي ص ١١٠ .

(٢) الأغانى (دار الكتب) ٥٥/١٢ .

وشربة ماء من خدوراء بارد

جرى تحت أظلال الأراك المسوق

وبجانب تلك الغرابة والوحشة وهذه الليونة والسهولة والرقّة في شعر
مذحج، نجد الجزالة وجمال السّبك في ألفاظ شعر مذحج ولغته، فهذه
الصفة اللفظية تبعد عن الغريب والحوشي الذي يحتاج في فهمه لقاموس،
وترقى عن السهولة والليونة اللفظية المبتذلة، يُظهر ذلك قول الحارث بن
سعد الحارثي^(١):

إن تقاتلوا يوماً شراحيل تُقاتلوا

بمقتله أو نُجرِ عرك الكواكب

دماً خالصاً أو تُسلمناً حريمكم

وتعترفوا ضرباً فويق المناكب

وتجري عتاق الخيل بين بيوتكم

عليهن فتیان كرام الضرايب

أما في العصر الإسلامي فنلاحظ أن الإسلام قد هدّب حياة البدو من
مذحج ووطأ أكنافهم، وأن مخالطتهم لأصحاب البلاد المفتوحة قد أثرت في
لغتهم، وأسلوبهم اللفظي فنجد أن ألفاظهم تميل إلى الجزالة والمتانة وحسن
السّبك البعيد عن الغريب الموحش والمرتفع عن المبتذل المنحط، وترتفع
شخصيتهم الحربية بالألفاظ عن الإسفاف والضعف إلى القوة والجمال،

(١) شرح قصيدة الدامغة ص ٢١٦ .

يتضح ذلك عند جعفر بن عُلبَة، وعبيد الله بن الحر الجعفي، والنجاشي الحارثي، والأشتر النخعي، وقد تأثر شعر مذحج بعد الإسلام تأثراً واضحاً في ألفاظه فانتشر في شعرها المعجم اللفظي الإسلامي والمصطلحات الإسلامية الجديدة التي ظهرت في الدين والسياسة والعقيدة، فتجد انتشار الألفاظ (التنزيل، التأويل، السبيل، الدعوة، النصر، الزكاة، الصلاة، الحلال، الحرام، النعيم، الظلم، الوحي، الفرائض، البركة، الشريعة، الحنفية، الطواغيت، الإمام، الوصي، الكفرة، الفجر، البررة الخ) تظهر تلك الألفاظ بكثرة عند عمار بن ياسر، وذُباب الجعفي، ظبيان بن كداداة المرادي، جُهَيْش النخعي، والأشتر النخعي، والنجاشي الحارثي، وعبيد الله بن الحر الجعفي، وغيرهم^(١) ويمكننا استيضاح ذلك في قول ذباب الجعفي^(٢):

تَبِعْتُ اللهَ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى

وَخَلَقْتُ فَرَاضاً بَدَارِ هَوَانٍ

فَلَمَّا رَأَيْتُ اللهَ أَظْهَرَ دِينَهُ

تَبِعْتُ رَسُولَ اللهِ حِينَ دَعَانِي

فَأَصْبَحْتُ لِلْإِسْلَامِ مَا دَمْتُ نَاصِراً

وَأَلْقَيْتُ فِيهَا كَلْكَلِي وَجِرَانِي

(١) انظر وقعة صفين ٢٤١، ٢٤٢، وشرح نهج البلاغة ١/٢٥١، والفتوح لابن أعمش ٢/٢٥٩،

٢٢٦/٣، ٢٣/٤، ٦٨/٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٣٤٢.

ومن السمات اللفظية في شعر مذحج دقة الألفاظ في دلالتها على معانيها، بجانب الإيحاءات التي تتجاوز المعنى اللغوي المعجمي لتشي لنا بأشياء أخرى من ذلك قول يزيد بن عمرو الزبيدي^(١):

صَبَحْنَا بِالْجِيَادِ بَنِي سُلَيْمٍ

وَجَالَتْ فِي بَنِي حَكَمٍ بَنِي بَكْرِ

فلفظ (صبحنا) دل على الغارة وحدد زمنها بوقت الصبح، والكلمة (جالت) توحي من جانب الشاعر وقومه بالقوة والعزة والمقدرة، حيث أفادت كذلك العموم والشمول، فهم قد جالوا في كل جانب من ديار أعدائهم في طمأنينة وعدم خوف أو خشية، أثناء دورانهم، وجولانهم وهم يتبعون خصومهم ويأخذونهم، وأوحى لنا الجولان الذي أفادته كلمة (جالت) كذلك بضعف خصومهم وما هم عليه من عدم قدرة على التصدي للشاعر وقومه ومواجهتهم لهذه الخيل التي جالت في ديارهم تقتل وتسبي دون أن يتعرض لها أحد منهم. كل هذه المعاني والإيحاءات أفادتها وأوحت بها كلمة (جالت). وتظهر دقة الألفاظ وإيحاءاتها الشعرية المعبرة عن شدة العاطفة والتهابها وتأججها في أغوار النفس في قول سلمة بن يزيد الجعفي يرثي أخاه^(٢):

أَقُولُ لِنَفْسِي فِي الْخَلَاءِ أَلْوَمُهَا

لِكَ الْوَيْلُ مَا هَذَا التَّجْلُدُ وَالصَّبْرُ

(١) شرح قصيدة الدامغة ص ١٧٤ .

(٢) الأمالي لابن علي القالي ٧٣/٢ . ٧٤ / ترتيب محمد عبد الجواد الأصمعي / طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م .

ألا تفهمين الخبرُ أن لستُ لاقياً
أخي إذ أتى من دونِ أكفانهِ القبرِ
وكنْتُ إذا تنأى به بينَ ليلةٍ
يظلُّ على الأحشاء من بينه الجمرُ
فهذا لبينٍ قد علمنا إيا به
فكيف لبينٍ كان موعده الحشرُ ؟
وهوَنَ وَجْدِي أنني سوف أغتدي
على إثره يوماً وإن نفسَ العمرُ
فنعَم مناخُ الضيف كان إذا سرت
شمالاً وأمست لا يعرجها سترُ
ومأوى اليتامي المطين إذا انتهوا
إلى بابه سغباً وقد قحط القطر

فكلمة (الأحشاء، والجمر) أوحى بمقدار شدة الحرارة واللَّهب الذي خلفه هذا الحزن من خلال تحديد موضع وضع الجمر من هذا الجزء الحساس من الجسم وما يخلفه من حرقه وألم بالغين، أما كلمة (يظل) فأفادت استمرارية وديمومة هذا الألم، ومن خلال هذه الألفاظ الموحية، والدالة على معانيها بدقة، استطاع الشعر أن يشعرنا بتأجج عاطفته الحزينة الشديدة الالتهاب والمشتعلة في جوانحه وأحشائه، ولكن كلمة (هوَن) في أول البيت

الرابع قلت من عظم هذه العاطفة الملتهبة، واغتالت تأججها التي حاول الشاعر أن يحسسنا بها في الأبيات السابقة على البيت الرابع من خلال تلك السمات اللفظية التي وضحناها ويبلغ بها حد الالتهاب والتأجج، ولكن كلمة (هون) أحدثت التغير العكسي في العاطفة المتأججة الشائرة من خلال تسلل ذلك الإيمان الديني وأخذه حَظَّهُ من قلب الشاعر، وكيف عملت هذه الكلمة (هون) عمل البَرْد الذي أخذ لهب هذه العاطفة المتأججة وكبح جماحها، وذلك ليحفظ النفس من الجزع والتضجر الذي قد يخرج بالنفس عن الجادة ويشطح بها عما يجب أن تتصف به من عاطفة الحزن والأسى المتعلقة عند المسلم التي رسمها الدين الإسلامي الذي آمن به الشاعر في مثل هذه المواقف، وإن كانت كلمة (هون) قد أحرمتنا من متعة الفن الذي يؤثر جموح العاطفة وشطحاتها من خلال تصويره لها في مبالغة وخروج إلا أنها أذاقتنا متعة التلذذ بحلاوة الإيمان الآتي من الصبر والاحتساب الآتين من التسليم والانصياع لأوامر الدين الإسلامي الحق. أما كلمتا (سرت وأمست) فقد أوحى وحددت بدقة الوقت الذي يكون فيه كرمه فهو خدمة الضيوف ليلاً كما هو في خدمته نهاراً، والليل من أشد أوقات الحاجة، ومن هذه الدلالة التحديدية نحس بوقع هذا الكرم على نفس الأيتام، أما كلمتا (المحلمين، وسغباً) فقد أوحى لنا بصور ومعانٍ بائسة لهؤلاء الأيتام أشارت فينا روح الشفقة والرحمة على هؤلاء اليتامى ومن ثم بعثت فينا احترام وتقدير المرثى الذي كان مأوى لهم عند الحاجة والضائقة.

وتظهر قوة الإيحاء لألفاظ شعر مذبح كذلك في قول عائشة بنت عبد المدان الحارثية ترثي ولدين صغيرين وكانا قد قُتلا أمام ناظرها^(١):

(١) المختصر في أخبار البشر ١/١٧٩. لعماد الدين بن إسماعيل/ المطبعة الحسينية المصرية.

ها من أحسّ با بني اللذين هما

كالدرّتين تشظّى عنهما الصدفُ

ها من أحس با بني اللذين هما

قلبي وسمعي فقلبي اليوم مُخْتَطَفُ

من ذل والهة حيري ————— دلّهة

على صبيّين ذلاً إذ غدا السلفُ

فقد استخدمت الشاعرة لفظ (الدّر) للتعبير عن ابنيها، وانظر إلى ما توحى به كلمة (الدّر) من قيمة، وجمال، وروعة وقرّة عين لصاحبها، وشدة حب وتعلق بها، وكيف عبرت بكلمتي (القلب، والاختطاف) عن المأساة التي أصابت الشاعرة ثم تأمل إحياء الكلمات (والهة، حيري، مدهلة) بالدهشة وتشتت الذهن الذي أفقد الشاعرة عقلها وفكرها عندما صُدمت بالمأساة أمام ناظرها فأوحت لها بهذه الألفاظ المعبرة عن الحالة تعبيراً دقيقاً صادقاً موحياً. ومن أعظم أساليب شعر مذحج اللفظية دقة وإحياء قول الأشر النخعي، يصف قتله محمد بن طلحة^(١):

وأشعث قوامٍ بأيّاتِ ربّه

قليل الأذى فيما ترى العين مسلمٍ

(١) أخبار شعراء الشيعة للمرزباني ص ٤٧ .

شَكَّكْتُ لَهُ بِالرَّمَحِ حَضَنِي قَمِيصِهِ

فخَرَ صَرِيحاً لِلْيَدِينِ وَاللِّفَمِ

أرأيت كيف تعبر صيغة (فَعَال) في البيت الأول من المبالغة التي يريد أن يضيفها على عدوه، وكيف كان استخدامه لـ (هتك وخرّ) أقوى دلالة على المعنى وأشد تصويراً له من مَزَقَ وسقط مثلاً؟ ثم أرأيت هذه الصورة التي يرسمها لسقوط عدوه؟ إنه لم يسقط وإنما خَرَّ صريحاً لليدين وللغم، لقد كان موقفاً عنيفاً والقتال مُحْتَدِم، والطعنة نافذة قوية^(١).

وبعد أن حاولنا تلمّس سمات شعر مذبح الأسلوبية المتعلقة بالألفاظ، وما رأينا فيها من خصائص أحياناً، فإننا لن نغفل عن بعض الهنات التي جعلت من أسلوب شعر مذبح اللفظي عسيراً بعيداً عن الجمال والفصاحة أحياناً، وخير مثال على ذلك قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي^(٢):

فَلَوْ لَاقَيْتَنِي لِلْقَيْتِ

لِيُثِّبَ لِي بِوَقْفِهِ لِبَدُّهُ

تَلَاقِي شَنْبُثاً شَشْنِ

الْبِرَاشِنِ نَاشِزاً كَتَدُهُ^(٣)

(١) حياة الشعر في الكوفة ص ٣٥٧ .

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب (الطرابيشي) ص ٧٢ .

(٣) (النبث) : الذي يتعلق به الشيء (اللسان «شبت»)، «الشثن» أي خشن البراشن (اللسان - شثن) «البراشن» : للسمع بمنزلة الأصابع للإنسان، «ناشز» : مرتفع (اللسان - نشز) «الكتد» : مجتمع الكتفين (اللسان «كتد»).

فكثرة هذه الشينات والثاءات واجتماعها وتواليها متقاربة وكذلك الكاف والثاء والذال، أحدثت صعوبة وعسراً وتخلخل في النطق بها لعدم توالي مخارجها، فانظر إلى الصعوبة في النطق «بشنيث» و«شثن» وكذلك الصعوبة والعسر والثقل في النطق «بكتده» وذلك لبعده مخرج الكاف من الثاء بعداً مفرطاً، وقرب مخرج الثاء من الذال قريباً شديداً.

٢ - التراكيب :

وبعد أن تلمسنا السمات الأسلوبية لألفاظ شعر مذحج نحاول الآن استشفاف السمات التركيبية لهذا الشعر، ولما كانت اللفظة هي الوحدة المكوّنة للتركيب الفني للجملة والعبارة فإن تلك السمات التي لحظناها في المفردة اللغوية ستلّون التركيبات بذلك الطابع الذي تلونت وطبعت به المفردة اللغوية، فالغرابية، وسمة البيئة، والجزالة، ومثانة السبك، ودقة الدلالة التركيبية والإشعاعات الإيحائية، لن تنفك منها تراكيب شعر مذحج كما هو في مفرداتها اللفظية وما عليك إلا أن تنعم النظر في قول الأسعر الجعفي يصف ترصده لذئبة من الذئاب^(١):

ذهبْتُ أمشي مِشِيَةً تَدْبَابَا

أخفي سوادِي أبتغي الذئابَا

حتى وجدتُ ذئبَةً سلْهَابَا

وثابَةً ما تنقي الحجابَا

(١) كتاب الجيم مادة (سلهب) ١٠٦/٢ .

حذوتها مشرشاً ذهاباً

ذا ظبية يتلهب التهاباً

فالمفردات الغربية الموحشة مثل «تَدْبَابًا» و«سِلْهَابًا» و«مشرشراً» أضفت على التركيب نوعاً من تلك الغرابة والوحشة التركيبية، وانظر إلى ما توحى به العبارة التركيبية (أخفي سوادى) من مخاتلة وحذر وتخفي وتستر، وانظر الجراءة في قوله «وثأبة ما تتقي الحجاباً»، وكيف جعل الشاعر من خلال السمة التركيبية في قوله «حذوتها مشرشاً ذهاباً» والرمية النافذة القاتلة هبةً وعطية، ثم أنظر كيف تناسبت المعاني المؤلفة من هذه التركيبات مع الأصوات القائمة على حرف المد الألف في القافية، والذي يخرج معه الصوت منبعثاً نافذاً كخروج ونفاذ الرمية القاتلة التي أرسلها الشاعر على الذئبة. وتظهر دقة التركيب في دلالاته على المعنى في قول سلمة بن مالك الجعفي في رثاء أخيه^(١):

كأني غداة استعلنوا بنعيه

على النعش يهفو بين جنبيه طائر

فالجملة (استعلنوا) وإسناد الفعل فيها إلى واو الجماعة، دلنا هذا التركيب على عظمة هذا المرثي ومكانته بين قومه وأهميته لديهم، والسين والتاء أظهر طلب الإعلان من الجميع، لأن في زهابه خسارة فادحة للجميع، وليس لذات الشاعر فحسب، فمصابه يصيب الجميع، ويؤثر في مجريات

(١) الأشباه والنظائر للخالدين ٢/٣٤٤، تحقيق السيد محمد يوسف / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م.

حياتهم ونفوسهم. أما إسناد الفعل (يهفو) إلى الطائر الذي يخفق بجناحيه في قوله:

(يهفو بين جنبيه طائر) ففيه دلالة واضحة ودقيقة على وقع الخبر على نفس الشاعر، حيث استطاع أن يشعرنا عن طريق إسناد هذا الفعل الحركي (يهفو) إلى الطائر بخفقان قلبه عند سماعه لهذا النعي، وكون الفعل مسند إلى الطائر ذي الجناحين المتحركين المضطربين عندما يخفق بهما وقت الطيران يجعلنا ندرك نوع الخفقان المضطرب الذي خفقه قلب الشاعر فزاد دقة ودلالة إيحاءية.

وتظهر متانة التراكيب مع السلامة وجمال السبك في قوله النجاشي الحارثي^(١):

كفى حَزْناً أَنَا عَصِينَا إِمَامَنَا
عليَا وَأَنْ الْقَوْمَ طَاعُوا مَعَاوِيَةَ
وَأَنْ لِأَهْلِ الشَّامِ فِي ذَاكَ فَضْلَهُمْ
علِينَا بِمَا قَالُوهُ فَالْعَيْنُ بَاكِيَةٌ
فَسِبْحَانِ مَنْ أَرَسَى ثُبَيْرًا مَكَانَهُ
وَمَنْ أَمْسَكَ السَّبْعَ الطَّبَّاقَ كَمَا هِيَهُ
أُيُغْصَى إِمَامٌ أَوْجِبَ اللَّهُ حَقَّهُ
علِينَا وَأَهْلُ الشَّامِ طَوْعٌ^(٢)...

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي ١٢ مجلد ص ١١٨ لسنة ١٣٨٥ / ١٩٦٦ م.

(٢) الكلمة المحذوفة (لطاغيه) وهي لا تتناسب ومقام معاوية رضي الله عنه .

وأول ما يطالعنا في شعر مذحج أنهم يستخدمون في مطالع قصائدهم
أفعالاً مشتقة من صيغ التبليغ وكأنهم كما يقول - عفيف عبد الرحمن -
بذلك يبررون إذاعة الخبر ويطلبون من السامع أن يُبلِّغَه الناس^(١).
من ذلك قول يزيد بن عبد المدان^(٢):

ألا أبلغاً همدان والحي مذحجا
وكندة والروقيين من آل بارقي
بأن سُلَيْمًا قَضَّهَا وقضيتها
ونصراً وحيي عامرٍ في الفيالقِ
أتونا بجمعٍ يضلُّ الأرض رزُّه
له لجبٌ عالٍ كَصَلَقِ الصواعقِ
وقول الأسعر بن حمران الجعفي^(٣):

أبلغ أبا حمران أن عشيرتي
ناجوا وللقوم المناجين التوى
وقول ذباب الجعفي:
فمن مبلغ سعد العشيرة أنني
شريتُ الذي يبقى بأخر فاني؟

(١) انظر الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ص ٣٣٤ . عفيف عبد الرحمن وشرح قصيدة
الدامغة ص ٢٦١ .

(٢) الأصمعيات رقم (٤٤) ص ١٤٠

(٣) طبقات ابن سعد ١/٣٤٠ .

ويستخدم شعراء مذحج الإستفهام للإخبار عن بطولاتهم ومعاركهم،
وكأنهم يريدون إيصال هذه الحقائق للناس وتثبيتها، ومن ذلك قول الأفوة
الأودي^(١):

فَسَائِلُ جَمَعْنَا عَنَا وَعَنَهُم

غَدَاةَ السَّيْلِ بِالْأَسْلِ الطَّوِيلِ ؟

أَلَمْ يَتْرِكْ سِرَاتَهُمْ عِيَامِي

جَثُومًا تَحْتَ أَرْجَاءِ الذِّيُولِ ؟

تُبَكِّيهِمَا الْأَرَامِلُ بِالْمَالِي

بِـدَارَاتِ الصَّفَائِحِ وَالنَّصِيلِ

وقد جاء الأسلوب الاستفهامي في شعر مذحج للتعجيز كما هو عند
عمرو بن قعاس الذي يريد من خلاله إقناع من يلومه على إسرافه في الخمر،
وهو أسلوب منطقي جدلي، حيث يقول^(٢):

أَلَا بَكَرَ الْعَوَاذِلُ فَاسْتَمَيْتُ

وَهَلْ أَنَا خَالِدٌ إِمَّا صِحْوْتُ ؟

وقد جاء الأسلوب الإستفهامي عند كَبْشَةَ أخت عمرو بن معد يكرب
للتحقير من صنيع أخيها عمرو عندما هادن قاتلي أخيه، حيث قالت^(٣):

(١) الطارثف الأدبية ص ٢٣ .

(٢) منتهى الطلب من أشعار العرب ١١٩/٥ ل ، ١٢٠ أ .

(٣) نواذر أبي علي القالي ١٩٠/٣ (طبعة دار الكتب)

وَدَعُ عَنْكَ عَمراً إِنْ عَمراً مَسْأَلَم

وهل بطنُ عمروٍ غيرُ شبرٍ لمطعمٍ ؟

كما أفاد الاستفهام في تراكيب مذحج التفخيم والتهويل للدلالة على عظم الأمر، كما هو عند سلمة بن يزيد الجعفي الذي يصور لنا من خلاله عظم الحدث الذي أصابه بموت أخيه من خلال تهويله وتعظيمه للتجلد والصبر الذي مارسه أمام هذا المصاب الجلل، حيث يقول^(١):

أقولُ لنفسي في الخلاءِ ألومُها

لكِ الويلُ ما هذا التَّجلدُ والصَّبْرُ ؟

وقد أفاد التركيب المكون من قوله: (في الخلاء) صدق هذا الحزن، وعظمته والإحساس به، وبعده عن الرياء، والتصنّع، لأن هذا التركيب أفاد بدقة تمثل الحزن في السر والعلن.

ونجد النجاشي يحشد لنا سيلاً من الاستفهامات ذات الأساليب التي تحمل التوبيخ والإنكار والتقرير في قوله^(٢):

ألا أيها الناسُ الذين تجمَعُوا

بعكاً أناسُ أنتمُ أم أباعرُ ؟

أيترك قيساً آمنين بدارهم

ونركبُ ظهرَ البحرِ والبحرُ زاخرُ ؟

(١) أمالي أبي علي القالي ٧٢/٢ ، ٧٤ ، (دار الكتب المصرية) .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ٦٠٩ ، لسنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

فوالله ما أدري وإني لسائلٌ

أهمدانُ تحمي ضيمَها أم يحابرُ ؟

أم الشرفُ الأعلى — من أولادِ حميرِ

بنو مالكٍ إن يستمر المرائرُ ؟

أأوصي أبوهم بينهم أن تواصلوا

وأوصي أبوكم بينكم أن تدابروا ؟

لقد جاء بهذا الخطاب الاستفهامي المكثف والمنوع أسلوبياً لإلهاب روح الغيرة والحماس وإثارة حساسية المضايقة من أجل الثورة لتغيير الوضع الذي آلوا إليه، في قناعة تامة دون أدنى شك أو توان. ويستخدم شعراء مذحج نوعاً من التركيبات التي تقوم على كثرة الضمائر المصتلة لتُعطي نوعاً من الأسلوب التركيبي الفني، وانظر إلى هذه المقطعة التي قالها الضحّاك بن قيس الحارثي في رثاء أبنائه الذين قتلوا جميعاً في فتوح الشام^(١):

سقى الله أجداثاً ورائي تركتُها

بحاضر قنسرين من سبَلِ القطرِ

ثَوّوا لا يريدون الرّواحِ وغالهم

من الموتِ أسبابٌ تجيئُ على قدرِ

(١) الأشباه والنظائر للخالدين ٢/١٥٢، ١٥٣.

لعمري لقد وارت وضمت قبورهم

أَكْفَأَ شَدَادَ الْقَبْضِ بِالْأَسْلِ السَّمْرِ

يَذْكَرُ نِيهِمْ كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ

وَشِرِّ فَمَا أَنْفَكَ مِنْهُمْ عَلَى ذِكْرِ

فالتركيبات (تركبتها، ثوا، يريدون، قبورهم، يذكرينهم، أنفك منهم) التي يشكل ضمير الغائب المتصل العائد إلى المرثين جزءاً منها، والشاعر بصنيعة هذا بقرب المرثين منه، وكأنهم جزء وعضو من أعضاء جسمه، وكأنه بفقدهم فقد بعضه، ولكنه بأسلوبه التركيبي هذا يُصِرُّ مع فقدته لهم وإنفصالهم عنه متوارين في بطن الأرض بأنهم مازالوا متصلين به، لا يغيبون عنه وعن ذكره وفكره كاتصال هذه الضمائر بأفعالها وأسمائها المربوطة بها، فجاءت هذه الضمائر المتصلة معبرة تعبيراً عن صلة المرثين بالشاعر. ويكثر شعراء مذحج في شعرهم من استخدام ضمير المتكلمين الجمعي المنفصل والمتصل (نحن، نا) وذلك لأن الشاعر كأنه يحس بأنه شاعر قومه والناطق عنهم، وهذا الأسلوب التركيبي الضميري يعطي أسلوب الشاعر عمقاً قبلياً نابعاً من أمجاد قبيلته مذحج التي ينتمي إليها، ويتحدث بلسانها، ويتكلم على ماضيها القوي بين القبائل العربية، فيأتي أسلوب الشاعر معتمداً على ضمير المتكلمين استجابة لتلك الأمجاد القبلية التي يشعر بها، فيعبر بهذه التركيبات تعبيراً صادقاً يظهر ذلك في قول نابغة بني الديان الحارثي^(١):

(١) المؤلف والمختلف ١٩١، ١٩٢ (كونكو).

إن تشتكى عنا سمي فإننا
يسمو إلى قحم العُلا أدنانا
وتبيتُ جارتنا حصاناً عَفَّةً
تثني ، ويأخذ حقه مولانا
ونجوق حَقَّ شربينا في مائنا
حتى يكون كأنه أسقانا
ونبيحُ كلِّ حمى قبيلِ عنوةٍ
قسراً ، ونأبي أن يُيَاحَ حمانا
ويسودَ سيدنا بغيرِ مدافعِ
ويسودُ فوقَ السيدين نثانا
وإذا السيفُ قَصْرُنَ بلغها لنا
حتى تناولُ ما تريدُ خُطانا
وإذا الجيادُ رأيننا في مجمعِ
أعظمننا وزحطنَ عن مجراننا
وقول النجاشي الحارثي^(١):
ونحنُ تركنا حميراً في صفوفكم
لدى الموتِ صرعى كالنخيلِ مُشَدَّبا

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٢ ص ١٢٢ . لسنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .

ونحن تركنا عند مختلف القنا

أخاكم عبيد الله لحما مخلصاً

ونحن أخطنا بالبعير وأهله

ونحن سقيناكم سماً مقشّباً

أما شعراء مذبح الذين كانوا يشكلون المعارضة أيام تلك الأحداث التي عصفت بالامة الإسلامية قبل استقرار الأمر لعبد الملك بن مروان فقد كانوا يستخدمون نوعاً من التركيب الأسلوبي الذي يعتمد على ضمائر الخطاب حيناً، وضمير المتكلم حيناً آخر، فهم يميلون لاستخدام النوع الأول من الضمائر في شعرهم الذي يتوجهون به منتقدين تصرف السلطان الخارجين عليه، ليبرروا ذلك الخروج، ويأخذوا من هذا الأسلوب شرعية الخروج من خلال ما يدينون به من أعمال ظالمة تلك السلطات، مسندين تلك الأعمال لتاء المخاطب، أو كاف الخطاب، يظهر هذا الأسلوب عند عمار بن ياسر، والأشتر النخعي، والنجاشي الحارثي، وشريك بن الأعور الحارثي، وعبيد الله ابن الحر الجعفي، وسمع إلى عبيد الله بن الحر مخاطباً مصعب بن الزبير بقوله^(١):

قتلت عبيدنا سفهاً وميناً

كمتخذ به زلفى لديناً

(١) العفو والاعتذار ٢/٤٤١ للرقام المصري تحقيق عبد القدوس أبو صالح طبع مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

قتلتَ جهالةً ألقى صريح

كريم الجد كالمرعى علينا

أطعتَ مقالة الأحداث فينا

فلم تصب الرشاد وما اعتدينا

أما استخدامه لأسلوب المتكلم المفرد فيأتي هذا التركيب الأسلوبي نتيجة طبيعية لثورته، وتمرده، وما يحس به داخل نفسه من شجاعة، وبأس، ورفض لسلطان عصره، فهو «يضرب، ويطعن، ويصول، ويجول، ويخرج، ويعاتب» وهو بذلك الأسلوب يفسر لنا كذلك ثقته بنفسه وتفرده بجرأة الخروج، وكأنه يرى في نفسه زعيماً يجب أن يأخذ وقبيلته المكان اللائق بهما يقول^(١):

ألا حببنا قولي لأحمر طيء

ولابن خليد قد دنا الصبح فادلج

وقولي لذا أقضيم وقولي لذا ارتحل

وقولي لذا من بعد هذاك أسرج

وسيرى بفتيان كرام أحبهم

به يرتجى عفو الغني كل مرتج

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب / محمد بن المبارك / مجلد ١ جزء ٢ ص ٢٥٩ عن مخطوطة

لاله لي في مكتبة السليمانية في استانبول / تركيا / نشر معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية /

جامعة فرانكفورت / ألمانيا

حتى إنه كان يمارس سلطة ولي الأمر من الحكام والأمراء لمن لم يسمع
أو يطع أو امره من أتباعه، وكأنه يحس في نفسه بأنه يجب أن يكون كذلك،
حيث يقول^(١):

أقول لأصحابي بأكنافِ جاذرِ

وراذانها ، هل يأملون رجوعا ؟

فقال امرؤُ : هيهات لستُ براجعِ

ولم تكُ للتَّقْنِيْطِ منه بديعاً

فعمّمتهُ سيفيِ وذلكِ حالتي

لمن لم أجدهُ سامعاً ومطيعاً

ومن سمات أسلوب شعر مذحج ردّ الأعجاز على الصدور الذي يضفي

على الأسلوب جمالاً فنياً، يظهر في قول النجاشي الحارثي^(٢):

وحليمٌ إذا الحبي حلهما الجهلُ

وخفّت من الرجالِ الحلوُمُ

وشكيمُ الحروبِ قد علم الناسُ

إذا حلّ في الحروبِ الشكيمُ

وصحيحُ الأديمِ من (نفل) العيب

إذا كان لا يصحُّ الأديمُ

(١) معجم البلدان رسم (جازر) ٩٤/٢

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي/ مجلد ١٢ ص ١١٩ لعام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م .

أما أسلوب الحوار في شعر مذحج فيعمل على بث روح الحركة في قولهم الشعري، ويعمل على تشكيل النمط القولي داخل القصيدة، فقد أدركنا من هذا الحوار الذي يقيمه عُتْبَة بن بجير الحارثي بينه وبين قومه في قوله^(١):

فقلت لأهلي : ما بغام مطيئة

وسارِ أضافته الكلابُ النواجِحُ ؟

فقالوا : غريبٌ طارقٌ طوحتُ به

متونُ الفيافي والخطوبُ الطوافِحُ

لقد أدركنا مشاركة أهل الشاعر له في صفة الكرم من حوارهم ذلك المتفاعل معه اتجاه هذا الطارق، وأن الكرم عادةٌ شاملة وليست خاصة به. وهذا يوضح لنا كذلك عمق روح الكرم وتمكنها منه.

وفي أسلوب مذحج ما يمكننا أن نسميه أسلوباً قصصياً، وإذا لم نجزم بأنه أسلوب قصصي، فهو أسلوب يظهر فيه روح الحكاية والسرد والحوار، ويمكننا استجلاء الأسلوب القصصي في هذه (القصيدة / القصّة) المشوقة التي يتحدث فيها عمرو بن معد يكرب الزبيدي عن ملاقاته لليث عظيم، وحكى لنا فيها تلك المصارعة والمبارزة التي حدثت بينهما، وصاغ لنا العقدة ثم الحل الذي انتهى بقتل الشاعر للأسد، وفي أثناء ذلك نجد الحكاية والسرد والحوار والعقدة والحل، حيث يقول^(٢):

(١) حماسة أبي تمام (عسيلان) رقم (٦٨٠) ٢/٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ١٩٠.

أكبشهُ لو شهدتِ بيطنِ خبتِ
وقد لاقى الهزبرُ أخاك عمرا
إذن لـ رأيتِ ليثاً رام ليثاً
هزبراً أغلبا ييغى هزبرا
بتهنس إذ تقاعسَ عنه مهري
محاذرةً فقلت : عُقرتَ مهرا
أنيل قدميَ ظهرَ الأرضِ إنني
وجدتُ الأرضَ أثبت منك ظهرا
وقلتُ له وقد أبدى نصالاً
محددةً ووجهاً مكفهراً
يُدلُّ بمخلبٍ وبحدِّ نابٍ
وباللحظاتِ تحسبهن جمراً
وفي يمنايَ ماضي الحدِّ أبقى
بمضربه قراعُ الخطبِ أثرا
ألم يبلغك ما فعلتُ ظباهُ
بكاظمةٍ غداة لقيتُ عمراً

وقلبي مثلُ قلبك ليس أخشى
مصاولةً ولست أخافُ دَعْرًا
وأنت ترومُ للأشبالِ قوتاً
ومطلبِي لبنتِ العمِّ مَهْرًا
ففيهم تروم مثلي أن يولي
ويترك في يديك النَّفْسَ قسرًا
نصحتك فالتمس ياليتُ غيري
طعاماً إن لحمي كان مَرًّا
فلما ظنَّ أن الغشَّ نصحِي
وخالفني كأنني قلتُ : هَجْرًا
مشى ومشيتُ من أسدينِ رامًا
مراماً كان إذ طلباه وعرًا
يكفكف غيلةً إحدى يديه
وييسطُ للتوثبِ عليّ أخرى
هزرتُ له الحسامَ فخلتُ أني
شَقَقْتُ به لدى الظلماءِ فجرًا

وَجُدْتُ لَهُ بِطَائِشَةٍ رَأَاهَا

لَمَنْ كَذَبْتَهُ مَا مَنَّتْهُ غَدْرَا

بِضَرْبٍ فَيَصِلُ تَرَكَتَهُ شَفْعَا

وَكَانَ كَأَنَّهُ الْجَلْمُودَ وَتَرَا

فَخَرَّ مَضْرَجَاً بِدَمٍ كَأَنِّي

هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرَا

وَقُلْتُ لَهُ : يَعْزُّ عَلَيَّ أَنِي

قَتَلْتُ مَنَاسِبِي جَلَدَاً وَقَهْرَا

وأسلوبٌ كثيرٌ من شعراء مذحج في وصف المعارك الحربية واحتدامها ومواقفهم البطولية الإطنابُ في الوصف والسرود والحوار حتى تظن أن الشاعر منهم يقص عليك قصصاً، ويلجأ أحياناً إلى تحليل المشاهد، يظهر هذا الأسلوب لدى عبد المدان الحارثي، وابنه يزيد وعبد يغوث الحارثي وعمرو بن معد يكرب والأشتر النخعي وعبيد الله بن الحر الجعفي، ولعبيد الله بن الحر مقطعة يمكننا أن نعدّها قصة قصيرة يصف فيها مصرعه لعبد حبشي يسمى «الغذاف» كان يقطع الطريق بين الكوفة والأنبار حيث قال^(١):

إِنِّي رَأَيْتُ بِوَادٍ مَقْفَرٍ رَجُلَا

مِثْلَ الْهَزْبِرِ إِذَا مَا سَاوَرَ الْبَطْلَا

(١) شعراء أمويون ص ١١٤ .

ضخَمَ الغريسةَ لو أبصرتَ قِمَّتَهُ
وسطَ الرِجالِ إذا شَبهتَهُ جِمالاً
سايَرتُهُ ساعةً ما بيَ مخافَتُهُ
إِلا التَّلَفُّتِ حَولي هل أرى وغِلا ؟
هَذَهَدَتُهُ بينَ أنهارٍ وأودِيَةِ
لا يَعْلَمُ النَّاسُ غِيري عِلْمَ ما فَعَلًا
يُدْعِي الغُدُافُ وقد مالَتِ علاوتُهُ
إِنَّ الغُدُافَ ورَبِّي وافِقُ الأَجَلًا

واشتمل أسلوب مذحج من خلال تركيباته كذلك على الطباق والمقابلة، وهي محسنات فنية يظهر جمالها وتحسينها للقول الشعري لأنها جاءت معبرة عن تجربة فنية يقتضيها التركيب، وليست مجبرة ولا مكرهة على السياق للصنعة المتكلفة، فانظر إلى الطباق بين «يبقى ويفنى» وبين بعد وقبل» في قول عمرو بن معد يكرب^(١):

ويبقى بعدَ حِلْمِ القَومِ حِلْمِي
ويفني قبيلَ زادِ القَومِ زايدي
ويظهر جمال المقابلة في قول يزيد بن عبد المدان في معرض سخطه على القيسيين الذين انتقصو من النعمان بحضرة الحارث الغساني^(٢):

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٩٥.

(٢) الأغاني ١٢/١٤ ، ١٥ ، (دار الكتب مصورة).

فبَاعَدَهُمْ عَنْ كُلِّ شَرٍّ يَخَافُهُ

وَقَرَّبَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ يِيَادُرُهُ

فالمقابلة بين هذين المعنيين في الشطر الأول والشطر الثاني أظهرت لنا أخلاق النعمان النبيلة.

ومن يستعرض شعر مذحج يلاحظ كثرة اعتماد أسلوبهم على الجمل الفعلية في تصويرهم للمعارك الحربية وكثرة الجمل الاسمية في فخرهم، أما اعتمادهم بكثرة عند وصف المعارك على الجمل الفعلية، فلكون الأفعال تدل على كثرة الحركة التي توحى بها تلك الأفعال، لأن الفعل حَدَثَ وحركة وزمن، وانتشار كثرة الأفعال الحركية في أسلوب مذحج جاء تعبيراً صادقاً عن سيطرتهم على جوانب المعركة التي يخوضونها، وتلك السيطرة متمثلة في كثرة حركتهم الدفاعية والهجومية داخل المعركة، لذا استدعى التعبير عن ذلك بالأفعال المتحركة لا بالأسماء الثابتة، من ذلك وصف عمرو بن معد يكرب لهذه المعركة الحربية^(١):

صَبَحَتْهُمْ بِيضَاءَ يَبْرُقُ بِيضُهَا

إِذَا نَظَرْتَ فِيهَا الْعَيُونَ أَمْهَرَتْ

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ زَوْراً كَأَنَّهَا

جَدَاوُلُ زَرَعٍ أُرْسِلَتْ فَاسْبَطَرَتْ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب ص ٥٤ .

فجاشت إلي النفس أول مرة

فَرَدَّتْ على مكر وهها فاستقرت

هتفت فجاءت من زبيد عصابة

إذا طردت فاءت قريبا فكرت

فانظر إلى هذه الأفعال (صبحتهم، يبرق، ازمهرت، رأيت، أرسلت اسبطرت، جاشت، ردت، استقرت، هتفت، جاءت، طردت، فاءت، كرت) وكيف دلت على كثرة حركة الفر والكر داخل المعركة، وأن هذه الأفعال مسيطرة على تراكيب هذه المقطعة كسيطرة الشاعر وقومه على المعركة. أما أشعار مذحج التي تدور في محيط الفخر فقد سيطرت على أسلوبه الجمل الإسمية، وذلك للدلالة على الثبات، والقوة والتجذر في المجد، والشجاعة، والتقدم، والاتصاف بتلك الصفات الحميدة، والأمور العظيمة، والجليلة التي هي محط الفخر والاستمرار في المحافظة على تلك الأمجاد. ونحن نعرف هذه القبيلة أنها قبيلة تحس بالعظمة والفخر والتطلع باستمرار للزعامة والقيادة؛ لذلك ناسبها في فخرها التعبير عنه بتلك الجمل الإسمية الدالة على الثبات والاستمرار غير المقيد بزمن، والذي لا يفيد الإحاطة والتحديد، وكأن الشعراء رأوا في هذه الجمل الإسمية قوالب وأشكالاً تركيبية تناسب وتحتوي أعمالهم وأعمال قومهم وتطلعاتهم وصفاتهم، فعبروا بها وأكثروا منها في فخرهم ومن ثم سيطرت على أسلوبهم الشعري الذي يفخرون فيه، من ذلك قول الأشتر النخعي^(١):

(١) وقعة صفين ص ٢٩٦ .

إني أنا الأشترُ معروفُ الشترِ
 إني أنا الأفعى العراقيُّ الذكْرُ
 لستُ من الحيِّ ربيعٍ أو مُضَرٍ
 لكنني من منججِ الغرِّ الغرُّرِ
 وقد نوّعت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب بين الجمل الخيرية
 والإنشائية ليأتي الأسلوب موافقاً لمرادها حيث تقول^(١):
 وأرسلَ عبدُ الله إذْ حانَ يومُهُ
 إلى قومِهِ ألا تخلُّوا لهم دمي
 ولا تأخذوا منهم إفاًلاً وأبكاراً
 وأتْرُكُ في بيتٍ بصعدةٍ مظلَمِ
 ودع عنكَ عمراً إنَّ عمراً مسألَمِ
 وهل بطنُ عمروٍ غيرُ شبرِ المطعمِ ؟
 فإن أنتم لم تقبلوا وأتديتم
 فمشوا بأذانِ النعامِ المصلَمِ
 ولا تشربوا إلا فضولَ نسائِكُم
 إذا أنهلْت أعقابهن من الدمِ

(١) النوادر لأبي علي القالي ٢/١٩٠ (دار الكتب المصرية)

جَدَعْتُمْ بَعِيدَ اللَّهِ أَنْفِ قَوْمِهِ

بَنِي مَازِنٍ أَنْ سُبَّ سَاقِي الْمُخَرَّمِ

فقد أفاد هذا التنوع الأسلوبي تنوعاً في الحجج والأدلة والبراهين، وتحاول جمعها من طرق شتى مختلفة بأساليب متعددة خبرية حيناً وإنشائية حيناً آخر. حتى تستطيع أن تقنع قومها وأخاها عمراً الذين رأته حالهم المائل نحو السلام والدعة والمهادنة، فينبذون ذلك السلام ويسرون في طرق الحركة الرافضة للمهادنة والموادعة من خلال تلك الحركات الانتقالية بين الجمل الخبرية والإنشائية.

ومن أساليب مذحج ميلهم لاستخدام صيغ الأمر والنهي والإكثار منها عند مخاطبتهم لغيرهم، ولعل هذا الأسلوب جاء معبراً عن إحساسهم بالعلو والقوة، وسماع كلمتهم بين العرب، يمكننا تلمس هذه الخاصة الأسلوبية بكثرة لدى شعراء بني الحارث بن كعب من ذلك قول يزيد بن عبد المدان الحارثي يخاطب قيس بن عاصم في أسير هوازني^(١):

يَا قَيْسُ أَرْسَلُ أَسِيرًا مِنْ بَنِي جُشَمِ

إِنِّي بَكْلٌ الَّذِي تَأْتِي بِهِ جَازِي

لَا تَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ تَشْجَى بِغُصَّتِي

فَاخْتَرُ لِنَفْسِكَ إِحْمَادِي وَإِعْزَازِي

(١) الاغاني (دار الكتب) ١٠/٢٤ ، ٣٥ .

فأفككُ أخَا مُنْقِرٍ عنه وَقُلُّ حَسَنًا

فِيمَا سُئِلْتُ وَعَقَّبَهُ بِإِنجَازِ

فانظر للأفعال الأمرة (أرسل، فاختر، أفكك، قل، عَقَّبَهُ). وتظهر تركيبات مذحج القائمة على الإضافة والإسناد مقدار هذه القبيلة من خلال تصوير رموزها شجعاناً وأبطالاً، وقواداً وأصحاب عقل ورأى، حيث يركب الشعراء هذه الرموز مع ما يظنونها فيهم من صفات وخصائص وتطلعات، وما يسندون إليهم من أفعال وأعمال تخرجهم في أشكال متآزرة مؤتلفة توضح مكانتهم المتقدمة في القيادة والفضل والشجاعة والرأي وتحمل مهام النهوض بأمجاد هذه القبيلة وقيادتهم للناس، يظهر ذلك في شعر قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معد يكرب والأشتر النخعي وشعراء بني الحارث بن كعب والأفوه الأودي. وانظر إلى الحارث بن هَمَام النخعي كيف جعل الأشتر النخعي عن طريق هذه الإضافات في الجمل الإسمية والإسنادات في الجمل الفعلية رمزاً للبطولة، وكأنه المخلص المنتظر الذي يزيح الظلم، وينفّس المواقف الصعبة، ويقود الأمة نحو الخلاص، حيث يقول مخاطباً له يوم صفين بعد أن ضاق الناس وهلکوا عطشاً^(١):

يَا أَشْتَرَ الْخَيْرِ وَيَا خَيْرَ النَّخَعِ

وَصَاحِبَ النَّصْرِ إِذَا عَمَّ الْفَرْعُ

وَكَاشِفَ الْأَمْرِ إِذَا الْأَمْرَ وَقَعَ

مَا أَنْتَ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِالْجَزَعِ

(١) وقعة صفين ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

قد جزعَ القومُ وعمّوا بالجزعَ

إن تسقنا الماءَ فما هي بالبدعِ

أو نعطشُ اليومَ فجنّدُ مُقتَطعَ

ما شئتُ خذُ منها وما شئتُ فدعُ

فانظر إلى هذه التركيبات الإضافية (أشتر الخير، صاحب النصر، كاشف الأمر) والإسنادية في (تسقنا، ما شئتُ خذ، ما شئتُ فدع) كلها تدل على ارتباط هذه الأمور الجليلة بين المضاف والمضاف إليه، والمسند والمسند إليه بالذات المعينة، مما تجعل من هذه الذات رمزاً للخير والبطولة والخلاص.

وأجدني لا أعدو الحقيقة إن قلت: إن الثقة المفرطة الآتية من الإحساس بالقدرة والقوة أصبحت رمزاً يتغنى به شعراء هذه القبيلة، ويسيطر على أساليبهم الشعرية، وتشم رائحة هذا الرمز من تراكيبهم بطريقة تختلف عما عهدناه عند سائر القبائل العربية، يظهر ذلك واضحاً وجلياً في قول عمرو بن قَعّاس المرادي^(١):

وغصن لم تنله كفُّ جانٍ

مددتُ إليه كفِّي فاجتنيتُ

وتامورٍ هرقتُ وليس خمرا

وحبةٍ غير طاحنةٍ قضيتُ

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب لابن المبارك ١١٩/٥ ب، ١١٢٠.

وغصنِ بآنٍ منِ عِضَّةِ رطيبِ
 هصرتُ إليّ منه فاجتنيتُ
 وماءٍ ليس من عـِدِ رواءِ
 ولا ماءَ السَّماءِ قد اشـتفيتُ
 ونارٍ أوقدت من غيرِ زنـدِ
 أنرتُ جحيمها ثم اصـطليتُ

فيده تنال كل ما أراد، وهو يريق دماء من يقفون في وجهه ويحاولون
 صده عن إرادته، وهو الذي يُشعلُ الحرب ويوقدها ويذكي أوارها، ونحن لا
 نستطيع أن نقول إن ذلك من قبيل التورية الجوفاء ولا الحذقة الأسلوبية
 الخاوية فهذا عمل ساذج ليس فيه فخراً ومحمدة إنما يمكننا أن نعهده رمزاً
 يُنبئ عن تعلق الشاعر بالثقة في النفس وبالقوة والغلبة والقدرة على تناول
 كل ما أراده، وأنه يستمد هذا الشعور الذي عبّر عنه من ذلك المخزون
 العظيم المتمثل في مكانة قبيلته التي تتمتع به بين القبائل.

وقد استخدم شعراء مذحج في أساليبهم التركيبية كثيراً من السمات
 التركيبية التي تؤثر في المعنى، وتشكله حسب مراد الشاعر، وحسب ما
 تقتضيه البنية الفنية لتجعل من الشعر إبداعاً حقيقياً، لا مجرد قول يقف
 عند المعنى المعجمي للفظة أو التركيب، من تلك الأساليب الصيغ الجمعية
 المناسبة للموقف تعظيماً أو تحقيراً^(١) والتنكير لإفادة العموم والشمول،

(١) انظر شعر كبشة أخت عمرو بن معد يكرب في النوادر لأبي علي القالي ١٩٠/٣ (دار الكتب
 المصرية).

أو للتعظيم^(١) وأسلوب التعريف (بأل) لإفادة الاستغراق والإحاطة^(٢) وأسلوب التكرار الذي يكثر في الرثاء والغزل والنصح كما هو عند سلمة بن يزيد الجعفي^(٣) وعمرو بن معد يكرب^(٤) والهيثم بن الأسود والنخعي^(٥)، وقد جاء أسلوب التكرار في شعر مذحج لتلك المعاني التي عهدناها في الشعر العربي، وخرّجها علماء البلاغة على التعلق بالمذكور المكرر إن كان رثاء، وقربه من النفس والتلذذ بأسمه إن كان غزلاً، والحرص عليه إن كان نصحاً، ولكن هناك خاصية أخرى لحظتها في أساليب مذحج التكرارية فيها نوع من التفرّد الأسلوبى في قول أبي البقرات النخعي في بني سعد^(٦):

ما زال عزُّ بني سعدٍ ونخوتهمُ

يبغون من عندنا للفتنة الطرُقاً

حتى تركنا بني سعدٍ ونخوتهمُ

مثل الطريق الذي من مره دحجاً

فقد كرر الشاعر «بني سعد ونخوتهم» مرتين مرة قبل «تركنا» ومرة أخرى بعدها، وفي الأولى إحياء بالقوة والعظمة، وفي الثانية إحياء بتصغير

(١) انظر شعر عتبة بن بجير الحارثي في الحماسة لأبي تمام (عسيلان) (٦٨٠) ٢/٢٤٥، ٢٤٦.

وشعر سلمة بن يزيد الجعفي في الأماي لأبي علي القالي ٢/٧٢، ٧٤. (دار الكتب المصرية).

(٢) انظر شعر سلمة بن يزيد الجعفي في الأماي لأبي علي القالي ٢/٧٢، ٧٤ (دار الكتب المصرية).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) شعر عمرو بن معد يكرب (الطرابيشي) ص ١٥٤.

(٥) حماسة البحري ص ٢٤٨.

(٦) التعليقات والنوادر/ الهندية ٣٢٢.

القوم وهتك نخوتهم، فالتكرار جاء ليفيد التحول، أي تحول المُكْرَّر من العظمة والقوة التي كانوا فيها ولم يراعوا حقها إلى الذلة والضعف، وعامل التحول التركيب (تركنا)، وكأن الشاعر بهذا التكرار التركيبي يريد إظهار ما كانوا عليه، ثم ما آلوا إليه بسببهم الكامن في (تركنا) وفي ذلك إظهار لعظمة الشاعر وقومه وقوتهم، ومن ملامح شعر مذحج الأسلوبية التفصيل بعد الإجمال والإجمال بعد التفصيل، فالأول جاء للشرح والتوضيح نحو قول جعفر بن علبة الحارثي^(١):

نقاسمهم أسيافنا شرَّ قسمةٍ

ففينا غواشيها وفيهم صدورها

والثاني جاء للإيجاز الذي هو مطلب من مطالب الأسلوب الفني الذي يفضل الإشارة على العبارة، كما هو في قول يزيد بن مخرم الحارثي^(٢):

أردناهم أن ينعموا أو يقاتلوا

فكلتاهمأ أعيتهم بجوابٍ

ولشعراء مذحج ملامح أسلوبية في استخدامهم لأدوات الربط والفصل بين الجمل، يظهر ذلك في قول امرأة عمرو بن معد يكرب الجعفي^(٣):

فقل لزبيدٍ بل لمذحجٍ كلها

فقد تمَّ أبا ثورٍ سنانكم عمرا

(١) حماسة أبي تمام (عسيلان) ٦٤/١ .

(٢) شرح أبيات سيبويه ٦/٢ .

(٣) الأغاني (دار الكتب) ٢٢٤/١ .

فالربط بـ(بل) بين العام (مذحج) والخاص (زبيد) قامت بحركة تحويلية من الخاص للعام، وأحالت نبأ وفاة عمرو من محدودية وقع الحدث إلى شمولية وقعه، ومن خصوصية الهمّ إلى عموميته، فبدل أن يكون فداحة المصاب بهم زبيد وحدها أصبح بهم قبائل مذحج كلها، وهذا التحوّل الذي قامت به (بل) يعطي البناء والحدث شمولاً وعموماً، ويجعله ذا قيمة وأهمية.

أما جعفر بن علبة الحارثي فيظهر في استخدامه لأداة العطف (ثم)، تفرداً أسلوبياً ذا خصوصية فنية تعطي أسلوب مذحج شيئاً من التفرّد والخصوصية التي ننشدها في شعر مذحج، فالشاعر فرغ حرف العطف (ثم) من معناها المتراخي الذي ذكره لنا النحاة وضمنها معنىً شعرياً يخدم أسلوبه الفني حيث يقول^(١):

لا يكشفُ الغمَاءَ إلا ابنُ حــــرّة

يرى غمراتِ الموتِ ثم يزورها

فلو قلتَ إن (ثم) هنا تفيد التباعد الزمني لكان ذلك فساداً للمعنى، لأنه يعني إنه يزور الغمرات ويخوض الحروب بعد رؤيتها بزمن متراخ، وكأنه متردد في ذلك، وهذه ليست أوصاف الشجاع الباسل، وإنما (ثم) هنا للاستبعاد أي الإشارة إلى أن خوض الغمرات وزيارتها بعد رؤيتها أمرٌ بعيدٌ إلا على هذه القلوب الجسورة^(٢).

(١) حماسة أبي تمام (عسيلان) (٥) ٦٤/١ .

(٢) التصوير البياني/ محمد أبو موسى/ ص ٢٨/ مكتبة وهبة/ القاهرة طبعة ثانية ١٤٤٠هـ/

ومن ملامح شعر مذحج الأسلوبية القَسَم والتَّقديم والتَّأخير، ولمذحج لمحات في هذه الخصائص الأسلوبية تكاد تكون ذات كيان بنائي خاص يظهر ذلك في قول الأشتر النخعي:

بَقِيْتُ وفَرَى وانحرفتُ عن العَلا

ولقيتُ أضيافي بوجهِ عبوسٍ

إن لم أشنَّ على ابنِ حربٍ غارةً

لم تخلُ يوماً من نهَابِ نفوسٍ

فالأسلوب يحتوي على قَسَم وتقديم وتأخير، وهذه الحركة التركيبية أعطت البيتين من السمات الأسلوبية الرائعة ما يجعلها من أجمل أساليب الشعر العربي الدال على الكرم والشجاعة، حيث استطاع الشاعر أن يؤكد شجاعته وكرمه من خلال تقديم الجواب على الشرط وفعله، الذي أفضى بالأسلوب إلى التكرار والتأكيد كما يفسره علماء النحو، فتقدّم الجواب عند النحاة يستلزم تقديره بعد الشرط وفعله في موقعه الأصلي، وبذلك يتكرر الجواب فيؤكد وهذا التقديم أخرج لنا الأسلوب الشرطي في صورة القسم المؤكد والمثبت^(١)، والجملة في أول البيت الأول خبرية في ظاهرها وهي تفيد الدعاء والإنشاء، وهنا أفاد الأسلوب الثبات والاستمرار - ثبات الكرم والشجاعة واستمراريتهما - ويظهر جمال الأسلوب وروعته وتفرده في قدرة الشاعر على إخراج الثابت (الإيجاب) في صورة المنفي (السلب) فالأسلوب نفي لبعض صفات النقص (بقاء الوفر، الانحراف عن العلا، لقاء الأضياف

(٢) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٧٦/١.

بوجه عبوس، عدم شن الغارة) فصفات النقص هذه أحضرت في المقابل المعادل الموضوعي لهذه النقص المنفية وهي الكمالات الثابتة (الكرم، تسلق العلا، لقاء الضيوف بوجه مستبشر، الشجاعة) ولذلك وصف التبريزي هذا الأسلوب بالإيمان الشريفة^(١).

ومن ملامح أسلوب مذحج الحذف وهو تغييب جزء من الجملة، فإذا كان الذكر أحياناً يكسر بحضوريته جمال الشاعرية، فإن الحذف أو التغييب يضيف على الشعر إبداعاً وجمالاً لا يتحققان لو ذكر أو أحضر المغيب. فهو نقص يصير القول الشعري كمالاً إبداعياً، من ذلك قول فروة بن مسيك المرادي:

فَأَبْتُ خَلِيَانًا قُطْفًا وَفِيهِمْ

نَوَافِذُ مِنْ أَسْنَتِنَا وَفِيْنَا

أي (وفينا نوافذ من أسنتهم) هذا ما يقتضيه الكلام، ولكن حاسة الشاعر الفنية الخلاقة رأت أن جمال الشعر وإبداعيته يتحقق بحذف عبارة (نوافذ من أسنتهم) وتغييبها للمحافظة على جمال الأسلوب وشاعريته، فالحذف كما يقول الباقلاني أبلغ من الذكر^(٢).

ومع هذه الملامح الأسلوبية التي حاولنا تلمسها في تركيبات شعر مذحج والتنبيه على خصوصيتها وتفردها أحياناً، لا يخلو شعراء مذحج من هفوات في تركيباتهم الفنية، فقد خان التركيب أسلوب الشاعر أم الهيثم النخعية

(١) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٧٦/١ .

(٢) إعجاز القرآن / للباقلاني / ص ٢٦٨

فحطت من روعة بنائها الشعري عندما قرنت بين (النعال) و(المثاني
والمئين) في بيت واحد في معرض رثائها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه
حين قال^(١):

رُزِنَّا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

وَخَيْسَهَا وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا

وَمَنْ لَبَسَ النَّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا

وَمَنْ قَرَأَ الْمَثَانِي وَالْمِئِينَا

وكان الأجدر بها أن تتحاشى هذا التركيب الذي يجمع بين لبس النعال
واحتذائها، وقراءة المثاني والمئين من القرآن الكريم.

٣ - بناء القصيدة المذحجية :

إن الأكثرية المطلقة من شعر مذحج ينتظم في مقطعات، ونصيب القصائد
فيه قليل، ومن خلال عملية إحصائية لقصائد ومقطعات مذحج، اتضح لديّ
أن هناك نيفاً وستين قصيدة جاهلية وإسلامية بجانب نيف وخمسمائة
مقطعة جاهلية، وإسلامية أي أن نسبة القصائد للمقطعات تكاد تكون
تقريباً بنسبة قصيدة واحدة لكل سبع مقطعات.

وأكثر القصائد للشعراء المشهورين من مذحج أمثال عمرو بن معد يكرب
الزبيدي والنجاشي الحارثي وعبيد الله بن الحر الجعفي ثم يلي هؤلاء من

(١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ص ٤٣ .

ألف حياة الاستقرار كبنى الحارث بن كعب في نجران. وأكثر أصحاب المقطعات من الشعراء المغمورين والمجهولين من سكان البادية الذين لم يألفوا الاستقرار. ومن شعراء مذحج من يمكننا أن نعددهم من أصحاب الواحدة من أولئك: الأسعر بن أبي حمران الجعفي، وعبد يغوث الحارثي، وعمرو بن قعاس المرادي، ويزيد بن مخرم الحارثي. ولعل قلة القصائد وكثرة المقطعات في شعر مذحج راجع إلى أن أكثره شعر حرب وفخر له صلة بالبطولات الحربية وهذا اللون من الشعر - كما يقول عفيف عبد الرحمن - يتطلب سرعة الإيصال وعدم المبالغة والإسراف في الوصف، وإيصال المعلومات التي يريد الشاعر نشرها بين القبائل، بأوجز عبارة^(١). فلا داعي للإطالة، كأن يعلن مثلاً عن مصرع فارس، أو لومه، أو اعتزاله الحرب، أو إعلاناً عن غارة، أو نتيجة معركة، أو إنذاراً، أو عيداً، أو تهديداً^(٢). ولعل الحالة القلقة التي كان يعيشها المقاتل في وسط المعركة وقبلها وبعدها تؤثر على انفعالاته النفسية فيخرج الشعر على هيئة مقطعات تتناسب وتلك الانفعالات القلقة. أما حينما كان الشاعر ينظم ليبرهن على مقدرته الشعرية بعد أن تهدأ نفسه، فكان يعمد إلى الإطالة والتنقيح فيخرج على شكل قصيدة طويلة، ولذلك نجد القصائد الطويلة في شعر مذحج تكثر في الجاهلية عند شعراء بني الحارث بن كعب المستقرين بنجران، ومثل شعر مذحج في الجاهلية شعر مذحج في العصر الإسلامي، تكثر المقطعات فيه، وتقل القصائد، وذلك راجع للحالة الحربية التي كانت تعيشها هذه

(١) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ص ٤٠١.

(٢) المرجع السابق نفسه

القبيلة، فدورها كان عظيمًا، في حروب الفتوح وفي تلك الفتن التي وقعت بين على ومناهضيه السياسيين^(١)، ولقد كان للرواة والمؤلفين في عصر التدوين أثر كبير في انتشار هذه المقطعات فإن بعضاً منها اقتطع من قصائد طويلة كشاهد أو مثال على قضية يعالجها المؤلف، ثم ضاع باقي القصيدة، ووقعنا على ما اقتطعه المؤلف في كتابه^(٢) ومما يدل على ذلك بدايات كثير من المقطعات التي يظهر فيها حروف الربط بما قبلها من ذلك قول محمد العُرَيَّاني^(٣):

فما كان في نعيمٍ ومدركٍ

ورهِطِ بني العريانِ أن كان أتبعاً

فهذا البيت مطلع المقطعة وهو كما تراه يبدأ بحرف العطف الفاء ومن ذلك قول رهين المرادي^(٤):

كزِيدٍ ومرداسٍ وعمروٍ وكهمسٍ

وكابن عقيـلٍ في الكتيبةِ عامرٍ

أقاما بدارِ الخلدِ لا يرتجيهِمُ

حميمٌ كما يُرْجَى إيابُ المسافرِ

(١) انظر حياة الشعر في الكوفة ٣٤٦ .

(٢) الشعر وأيام العرب في الجاهلية ٤٠٢ - ٤٠٥ .

(٣) التعليقات والنوادر / النسخة الهيدية ٣١٢ .

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ١ / ١٨٥ .

فحرف التشبيه الكاف يدلنا على زهاب الشعر الذي يحتوي على المشبه. وأكثر شعر الرثاء في العصر الجاهلي مقطّعات، أما في العصر الإسلامي فأكثر قصائده تميل إلى الطول في أحيان كثيرة، يظهر ذلك في مرثيات وهب بن زُمعة الجعفي، وأمّ الهيثم النخعية، وعبيد الله بن الحر الجعفي، والنجاشي الحارثي، وذلك يرجع إلى كون المراثي في العصر الجاهلي غالباً ما تقال في أعقاب المعارك عندما تكون العواطف النفسية والانفعالات متأججة كما هو عند عمرو بن قيس المرادي^(١). وكبشة أخت عمرو بن معد يكرب^(٢). أما في العصر الإسلامي فقد تأثرت مراثي مذبح بروح الإسلام الذي يحث على الصبر عند المصيبة وعدم الجزع، فهو يكبح من شدة الانفعالات ويهدئ من تارجج العاطفة فتأتي القصائد طويلة، لأنها قيلت بعد هدوء النفس، ولا يجب أن تقف أمام تفسيرنا هذا قصيدة عبد يغوث الجاهلية التي رثى بها نفسه والتي تجاوزت العشرين بيتاً، وذلك لأن أمل الشاعر في فك أسرة ونجاته من الهلاك قد هدأ انفعاله وقلقه، وأنه كان لا يظهر القلق والخوف لأنه في موقف لا يجدر به أن يظهره أمام أعدائه، لذلك جاءت القصيدة طويلة، واستقامة هذا الرأي يقتضي عدم الركون إلى تلك الرواية التي لا يقبلها العقل والتي تقول إن الشاعر قال هذه القصيدة وهو ينزف دماً بعد أن فصدوا أكحله.

ونحن نلاحظ أن بناء القصيدة المذحجية الطويلة التي وصلتنا لا تكاد - من حيث العموم - تخالف بناء القصيدة العربية الجاهلية منها والإسلامي،

(١) معجم الشعراء المرزباني ص ٦٠ (كرنكو)

(٢) نواذر أبي القالي ٣/١٩٠ (دار الكتب).

فهي تحوي الغزل ووصف الأطلال والبيئة ثم تخلُّص للغرض الذي قيلت من أجله.

وما يجب التنبيه عليه ونحن نتحدث عن بناء القصيدة المذحجية أنه وُجد فيها ما يمكننا تسميته بالمقدمة الفروسية، وتبدأ هذه المقدمة بذلك الأسلوب الإعلامي المعبر عنه بصيغة التلّيع ومشتقاته أو أدوات الاستفتاح^(١) والذي سبق الحديث عنه، وتفسير أسراره في مقدمة حديثنا عن تركيبات شعر مذحج، ونظراً لسيطرة الفخر على شعر مذحج من خلال ذكر المعارك الحربية فقد أوجدت هذه الوحدة الموضوعية، التي تدور حولها نوعاً من الوحدة العضوية في القصيدة المذحجية، وأصبحت هذه الوحدة جِدّ واضحة بخاصة في تلك القصائد الفخرية. يظهر ذلك في فخریات يزيد بن عبد المدان، ويزيد بن مخرم، ونابغة بني الديان، أضف إلى ذلك مرثيات وهب بن زمعة، وأم الهيثم النخعية، فتكاد كل قصيدة من بدايتها إلى نهايتها تدور حول الفخر أو الحرب أو الرثاء ليس غير، حتى أن المطالع الغزلية في بعض القصائد الفخرية تشم فيها بكل وضوح رائحة الفخر فهو لم يذكر المرأة إلا على سبيل حمايتها والافتخار أمامها بما يذكره بعد ذلك في باقي أبيات القصيدة من فخر ووصف المعركة أو حرب وبذلك تلتحم بدايات القصيدة مع باقيها فيما يشبه وحدة عضوية يشكّل الفخر لحمتها وسداها.

(١) انظر شرح قصيدة الدامغة ٢٦١ ، والأغاني (دا الكتب) ١١/١٢ ، كتاب الفتوح لابن أعمش

الكوفي ٢/٢٦٠ . منتهى الطلب من أشعار العرب/ لابن المبارك ٧١٩/٥ ب ، ١١٢٠ ، ١٣٦ ب ،

٤ - أوزان شعر مذحج وإيقاعاته :

لقد نظم شعراء مذحج شعرهم على الأوزان الشعرية التي نظم العرب عليها شعرهم في الجاهلية والإسلام. ولم يحدث نوع تجديد في تلك الأوزان في الفترة الإسلامية التي تقف عندها هذه الدراسة عما هو عليه في الجاهلية، وقد انتظم شعر مذحج في البحور الآتية مرتبة من حيث الكثرة وهي (الطويل، والرجز والوافر، والبسيط، والكامل، والمتقارب، والخفيف، والرمل، والسريع، والهزج، والمنسرح) ولكن البحور الأربعة الأولى قد حازت على أكثر شعر مذحج فالطويل قد انتظمت فيه أكثر من أربع عشرة ومائتي قصيدة ومقطعة، أما الرجز فقد حاز على سبع وثمانين أرجوزة، والوافر انتظم فيه أكثر من ثمانين قصيدة ومقطعة، أما البسيط فانتظم فيه أكثر من خمس وأربعين قصيدة ومقطعة، وباقي البحور انتظمت في عدد أقل مما عليه بحر البسيط، وتأتي سيطرة الطويل والرجز والوافر والبسيط على أكثر شعر مذحج كما سبق أن وضحناه، وذلك لأن هذه القبيلة قبيلة قوية محاربة، ذات فخر وأمجاد، وقوة رئاسية بين القبائل وهذه البحور مناسبة لتلك المعاني الفخرية الحماسية والحربية القوية، فالبحر الطويل كما يرى بعض الباحثين يوافق الحماسة^(١) ويناسب الحرب والمعارك والمفاخرة والمدح والمهاجاة والرثاء والتهديد والوعيد وإنذار القوم وتحذيرهم والأغراض الجليلة، وهذه المعاني والمواضيع القولية هي المعاني والمواضيع التي عهدناها في شعر مذحج، لذلك كان الطويل أكثر البحور استخداماً لدى شعراء

(١) تاريخ آداب اللغة العربية / جورج زيدان / ١ / ٦٢ / دا الهلال / ١٩١١ م .

مذحج، ويلى الطويل في الكثرة الرجز وذلك لأن هذا البحر يناسب الخفة والحركة السريعة المتلاحقة المضطردة النغم^(١)، وهو ما نراه في نتاج مذحج مما يتعلق بشعر الحماس والمعارك والحروب والنزال أما الوافر فقد ناسب وزنه معاني شعر مذحج لما فيه من الحماس والقوة والعنف والفخر والهجاء والتهديد والوعيد، وهذه معان تناسب أوزان هذا البحر الذي يمتاز بالتدفق، والرنة القوية، وتصوير العنف، والتعبيرات الثائرة المتمردة^(٢)، يظهر ذلك عند قول شريك بن الأعور الحارثي^(٣):

أَيْشِئْتِمْنِي مَعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ

وَسَيْفِي صَارَ مَعِي لِسَانِي

وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي يَمَنِ لِيوْثٌ

ضَرَاغِمَةٌ تَهَشُّ إِلَى الطَّعَانِ

يُعَيِّرُنِي الدَّمَامَةَ مِنْ سَفَاهِ

وَرِبَاتِ الْحِجَالِ هِيَ الْغَوَانِي

فَلَا تَبْسِطُ لِسَانَكَ يَا بَنَ حَرْبٍ

فَإِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ مَدَى الْأَمَانِي

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها/ عبد الله الطيب/ ج ١ / ٨٩ - ٢٢٢ بيروت / الطبعة

الثانية/ سنة ١٩٧٠ م والشعر وأيام العرب في الجاهلية ص ٢٥٥

(٢) الشعر وأيام العرب في الجاهلية ص ٢٥٩

(٣) أخبار شعراء الشيعة للمرزباني ص ٥٢ .

متى ما تدعُ قومك أدعُ قومي

وتختلفُ الأسننُ بالطَّعانِ

وناسب البسيط معاني شعر مذحج لأن فيه عنفاً وشدة ويناسب معاني
التفخيم والمهابة^(١) وهذه معان منتشرة في شعر مذحج.

وهناك ظاهرة تتعلق ببحر الرجز وما نظم فيه من شعر، لا ينبغي
تجاوزها ونحن نتحدث عن أسلوب شعر مذحج في بناء قصائدها ووزنها
وموسيقاها، فبحر الرجز كان في العصر الجاهلي مقطعات تتكون من عدد
قليل من الأشرط وكانت معانيها مرتبطة بالمعاني الغزلية الشهوانية، فغالباً
ما يفتتح الشاعر رجزه في ساحات الحروب بذكر النساء ووصف جمالها
ومفاتها فقد تبدل في العصر الإسلامي كما ألاحظه في شعر مذحج
فأصبحت معانيه إسلامية عقديّة وسياسية ولم تعد تستلهم حواء الخالدة،
وأصبح الشعراء يسلكون فيه مسلك التطويل^(٢)، ويمكننا تفسير هذه
الظاهرة الموضوعية والفنية في شعر الرجز بأن النساء في العصر الجاهلي كُنَّ
غالباً ما يرافقن الجيش، فيذكر البطل حبه لهن وتفانيه في الدفاع عنهن،
فيختار هذه البحور المناسبة لهذه المعاني الغزلية الشهوانية، من ذلك قول
قيس بن المكشوح المرادي^(٣):

(١) الشعر وأيام العرب في الجاهلية ص ٣٥٩ .

(٢) انظر وقعة صفين ١٨٢ .

(٣) الأنساب / لسلمة بن مسلم العويني الصحاري / ١/ ٢٩٢ / طبع ورارة التراث القومي والثقافي /

عمان / طبعة ثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

قَدْ عَلِمْتُ وَارِدَةُ الْوَشَايِحِ

ذَاتِ النِّقَابِ وَالْجَبِينِ الْوَاضِحِ

أَنْبِي سَمَامُ الْبَطْلِ الْمَشَايِحِ

وَفَارِجُ الْأَمْرِ الْمَهْمِ الْفَادِحِ

أما تبدل هذه المعاني في العصر الإسلامي إلى معانٍ دينية، حيث أن المرأة كانت هي المحرك لكثير من تلك الحروب إما دفاعاً عنها، أو طمعاً في سببها في الجاهلية، أما بعد الإسلام فقد أصبح الدين الإسلامي والدفاع عنه والرغبة في نشره هو المحرك الأول لكثير من الحروب بعد انتشار الدعوة الإسلامية، فأصبحوا يتغنون في رجزهم بمحاسن هذا الدين ويفخرون به وبتفانيهم في الذبّ عنه ونشره^(١). أما سلوك الرجز مسلك التّطويل في العصر الإسلامي بعد أن كان يشكّل مقطّعات قصيرة في العصر الجاهلي، فلأنهم كانوا من خلاله يحاولون شرح معالم هذا الدين الذي يقاتلون من أجله، ويذكرون محاسنه، ويستلهمون الآخرة، والنعيم، والعذاب، ويحاولون وصفها، وتضمين كل ذلك تلك الأواجيز.

ومن جرّاء سيطرة تلك البحور الأربعة: الطويل والرجز والوافر والبسيط على أكثر شعر مذحج، فلا غرابة أن نرى إيقاعات شعر مذحج وموسيقاه ذات نغمات قوية ورنانة ومتدفقة، تميل نحو الجلجلة والصلصلة، بخاصة تلك المقطّعات الرجزية والشعرية التي تثير روح الحماس وتصف الحروب والمعارك، وكأن تلك النغمات الصلبة القوية العنيفة مقتبسة من قرع الطبول

(١) انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ١/٨٩ - ٩٣

التي يدق بها للحرب^(١)، وما عليك إلا أن تنصت إلى ما أذعناه في قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي من البحر الطويل^(٢).

فلما هبطنا بطنَ رنيةً بالقنا
أرَنَ سحابٌ رعدُهُ متجاوبٌ
وسُلتَ سيوفُ الهندِ منا كأنها
مخاريقُ نالتها أكفٌ لواعبُ
بها نتشافي الغل في ذات بيتنا
وتزهو بأيدينا سيوفٌ قواضبُ
مشهرةٌ ألوانها حميريةٌ
ترانا بها نسعى إذا ما نضاربُ
فكنا لهم بالصاعِ صاعينِ عنوةً
فآلوا ورب البيت أن لا يحاربوا
ومنزلةً فيها العوالي كأنها
هشيمٌ شجارٍ كسرتها حواطبُ

ولقد لون شعراء مذحج أشعارهم بمختلف الحسنات البديعية التي تضيفي عليها روحاً من سريان الصوت وانسيابه مما يحسنا بما في البيت

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ١/ ٨٩ - ٩٣ .

(٢) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ٤٣

من موسيقى داخلية تتوافر وتتآزر مع الموسيقى الخارجية على تكثيف
النغم وتواليه والعمل على جعله ثراً ونايضاً وأكثر تأثيراً، من ذلك الجناس
في قول رجل من زبيد^(١):

وما نحن إلا عصبهٌ يمنيةٌ
زبيديّةٌ والدارُ دارُ تميمِ
وإنهمُ منا وإننا منهمُ
كما قد سِرَّ من سراةِ أديمِ
ولكنَّ عمراً فرقَ الشملَ بيننا
بقتلِ سراةٍ من سراةِ صميمِ

أما الترصيع فقد أضفى على شعر مذبح موسيقى راقصة متدفقة يظهر
ذلك في قول الأفوه الأودي^(٢):

سودٌ غدائرها ، بلجٌ محاجرُها
كان أطرافها لما اجتلى الطنْفُ
وقول جعفر بن علبة الحارثي^(٣):

ألمتُ فحيثُ ، ثم قامتُ فودعتُ
فلما تولتُ ، كادت الأرضُ تشرقُ

(١) شرح قصيدة الدامغة ص ٦٢ .

(٢) الطرائف الأدبية ص ٢ .

(٣) الأغاني (دار الكتب) ٥٠/١٢ .

أما التقسيمات فقد أعطت شعر مذحج كذلك نغمةً موسيقية رائعة، يظهر ذلك في قول مُؤيَّال المذحجي^(١):

فَلَمْ أَرَ كَالْمَعْرُوفِ أَمَّا مِذَاقَهُ

فَحَلَوٌ ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلٌ

ويظهر جمال الموسيقى في شعر مذحج كما هو في هذه الكلمات المتتابعة التي تسير على نغم صوتي متقارب لاشتمالها على حرف الزاي والسين والصاد وكيف أوحى لنا هذه الأصوات بروح العبارة الشعرية، فالسين، وافقت الأسي والزاي وافقت الحزن والزهد والصاد وافقت الصفاء والإخلاص للتصور الذي يعتقده، كل ذلك في وتر نغمي مناسب حيث يقول الهيثم بن الأسود النخعي في شيبث بن ربعي^(٢):

عَاشَ تَسْعِينَ خَرِيفاً هُمَ

جَمْعٌ مَا يَكْسِبُ مِنْ غَيْرِ خَبَثٌ

غَيْرُ جَارٍ فِي تَمِيمٍ سُنَّةٌ

تُنْكِسُ الرَّأْسَ وَلَا عَهْدَ نَكْثٌ

وَلَقَدْ زَلَّ هَوَاهُ زَلَّةٌ

يَوْمَ صَفِينِ فَأَخْطَأَ وَحَنْثٌ

(١) شرح شواهد المغني للسيوطي ٨٨٤/٢ .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري/ تحقيق محمد باقر المحمودي ٢٤١/٢

فلعل الله أن يرحمه

بقيام الليل والصوم الألهت

ويظهر روح الأسى والتأسي في جرس الألفاظ المشتملة على حرف السين
وكأن هذه السينات جاءت معبرة عن الحالة النفسية التي تغشى الشاعر
الذي بلغ من السن والكبر ما بلغ حتى صار في حياة يائسة من المتع
والم لذات وهو بذلك يعبر ذلك عن التأسي الذي يحاول التعلق به في هذه
المرحلة من السن حيث يقول الأهيثم النخعي^(١):

فاسمع أنبئك بأيت الكبر

سرعة الطرف وتحميغ النظر

وتركي الحسناء في حال الطهر

وكثرة النسيان ما بي مذكر

وقلة النوم إذا الليل اعتكر

أولهُ نوم وثلاثاء سهز

وسعلة تعتادني مع السهر

أما انتظام الحركات المخففة والمنونة فقد أعطت موسيقى البيت أداء ذا

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر القرطبي ٢٢٧/١ / تحقيق محمد مرسي الخولي وعبد القادر القط /

طبع دار الكاتب العربي. والبيان والتبين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١/٣٩٩ ، ٢/٦٩ /

تحقيق عبد السلام هارون / دار الفكر / رابعة .

نبرات متناغمة حيث تحس بهذه الموسيقى المنخفضة حيناً عند التخفيف
والمرتفعة حيناً آخر عند التنوين، وذلك يعطي الجو الموسيقي نوعاً من
الترقيص والتناغم ذا اتساق رائع. ففي قول سِمَاك بن خَرَشَةَ الجَعْفِي (١):

مقاويلُ أيسارٍ لهاميمُ سادةٍ

إذا سألَ بالجريالِ سعرُ البياطرِ

مساعير لم يوجد لهم يوم نبوةٍ

مطاعينُ أبطالُ غداةَ التناحرِ

ولقد جاءت قوافي مذحج بما فيها من حروف ومقاطع صوتية متناسبة
مع بحور أوزان القصائد والمقطعات، ومعبرة كذلك في إحياء موسيقى عن
المعاني المسكوبة في البحور والأوزان الشعرية، (فالهاء) في أول الأبيات
الرثائية لعائشة ابنة عبد المدان الحارثية الذي يعبر عن الآهات يتناسب مع
حرفي القافية (الفاء) المعبر تعبيراً صادقاً عن الزفّرات التي صاحبت هذه
المقطعة الرثائية عندما تقول (٢):

هامن أحسّ بابني اللذّين هما

كالدّرتين تشظى عنهما الصدفُ

هامن أحسّ با بني اللذّين هما

قلبي وسمعي فقلبي اليومَ مُختَطَفُ

(١) وقعة صفين ص ٢٧٥ .

(٢) المختصر في أخبار البشر/ للعماد الأصفهاني ١/١٧٦/ المطبعة الحسينية المصرية .

ولقد ناسبت القافية المشتمة على حرف السين الاحتراس الذي يود
شُرِّيح المذحجي أن يوصي به أبا موسى الأشعري في محادثته التفاوضية
مع عمرو بن العاص^(١):

أبا موسى رُمِيَتْ بِشْرٍ خَصِمِ
فلا تُضِغِ العِراقَ فِدَتَكَ نَفْسِي
فلا يخدعكَ عمروٌ إن عمراً
عدوُّ الله مطلقٌ كل شمسِ
له خُدْعٌ يَحَارُّ العَقْلُ فيها
مموهَةٌ مزخرفةٌ بلبسِ

أما حرف القاف في قافية جعفر بن علية الحارثي وهو في سجنه
وهو صوت يحتبس فيه الهواء في أعلى الحلق عندما ينطبق أقصى اللسان
مع أعلى الحنك فقد جاء موحياً ومعبراً صادقاً عن السجن المطبق والمغلق
الذي يعيشه الشاعر حيث يقول:

هوأي مع الرّكب اليمانين مصعدٌ
جَنِيْبٌ وجِثْماني بمكة موثِقُ
أما حرف القافية (العين) في رجز عمرو بن مطاع الجعفي وهو يقاتل مع
الحسين بكريلاء^(٢):

(١) وقعة صفين ٥٢٤ .

(٢) كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي ١٩٦/٥ .

- أنا ابن جُعْفِي وأبي مطاعُ
وفي يميني مـرهُفٌ قـطـاعُ
وأسمـرٌ في رأسـه لماعُ
تـرى له من ضـوئه شعاعُ
اليومَ قد طاب لنا الوداعُ
دون حسين الضربُ والنطاعُ -

فإنه يتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع الرجز وهو منع جيش يزيد من الوصول للحسين وأهله والدفاع عنهم.

أما حرف القافية (الـدال) فهو صوت شديد غليظ في قول عمرو بن معد يكرب^(١):

تطاول ليلك بالأثمـدِ
وبات الخـليُّ ولم تـرقـدِ
وبات وباتت له ليلـةٌ
كـليـةٌ ذي العـائرِ الأرمـدِ
وذلك من نـبـإٍ جـاءني
ونبئتـه عن أبي الأسـودِ

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ص ١٨٧ .

وهو تتناسب صفته هذه مع شدةٍ وغلظةٍ وقع الخبر - الذي قال فيه الشاعر هذه الأبيات وهو مقتل أخيه - حيث أزعجه وقصّ مضجعه وأثقله بالهموم، والدال كذلك من حروف القلقلّة ومن هنا نحس بالقلق النفسي الذي عاشه الشاعر تلك الليلة، والدال كذلك من حروف القوة والحسم، وهذا يتناسب والموقف الذي اتخذه الشاعر، وعبر عنه في بقية هذه القصيدة حيث يذكر فيها عزمه بقوة قاطعة وحاسمة لا تردد فيها على الأخذ بثأر أخيه من قاتليه بني مازن.

أما حرف المد الألف في قصيدة عبد يغوث الحارثي، التي قالها يرثي بها نفسه ففيه تنفيس عن الشاعر وإخراج لعاطفة الحزن المنبعثة من صدره وذلك في قوله: (١)

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيًا

فما لكما في اللوم خير ولا ليًا

وهذه الألفات الممدودة الكثيرة تساعد على استنفاد العاطفة المتدفقة من جوانح الشاعر ودخيلة نفسه.

ولما كانت حالة النجاشي ومن معه من أهل العراق في انتظار واضطراب مشحون بالقلق على مدى نجاح موفدهم جرير بن عبد الله البجلي في مهمته التي أوفاه عليّ من أجلها على معاوية بالشام، فإن قافية شعره الذي يتحدث فيه عن ذلك اشتملت على حرف روي هو «الراء» وهو صوت قلق

(١) المفضليات (٢٠) ص ١٥٥ .

المخرج مضطرب النطق فكأن مجيء القافية المشتمة على هذا الصوت معبر
تعبيراً صادقاً وموافقاً للحالة النفسية التي يعيشها الشاعر وأهل العراق
حيث يقول^(١):

ألا ليت شعري والحوادثُ جمّة

ألّـعب سار المالكيُّ جـريزُ

أقمتَ بأرضِ الشامِ تسعينَ ليلةً

رواحكُ منها دائماً وبكـورُ

وقد جاءت قافية عبید الله بن الحر الجعفي في معرض قوله يرد على
عبید الله بن زياد وكان قد لامه على قعوده عن محاربة الحسين بن علي
رضي الله عنهما مناسبة لبحر القصيدة الطويل فهو يقول:^(٢)

يقولُ أميرُ غادرٍ وابنُ غادرٍ

أما كنتِ قاتلتِ الشهيدَ ابنَ فاطمةَ

ونفسي على خذلاني واعتزالي

وبيعةَ هذا النكثِ العهدِ لائمهَ

فيا ندمي أن لا أكونَ نصرته

ألا كلُّ نفسٍ لا تسدُّ لنا دمهَ

(١) كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي ٣٩٣/٢ .

(٢) شعراء أمويون ١١٥ ، ١١٦ .

لعمري لقد رَاغَمْتُوْنَا بِقَتْلِهِمْ

فكم نَاقِمٍ مِنَا عَلَيْكُمْ وَنَاقِمَةٌ

والبحر الطويل يناسب الغضب والتفجر، والشاعر يتأسف على قعوده عن نصره الحسين، وغاضبٌ وثائرٌ على عبيد الله بن زياد الذي يلومه على عدم مقاتلة الحسين فجاءت القافية متوافقة مع البحر ومع الموقف، أما حرف رويها (الميم) فهو صوت شديد قوي تنطبق فيه الشفتان فتحبس قوة الصوت الهوائية. كأن الشفتين بعملها ذلك تمارسان نوعاً من القوة السلطوية الحابسة لصوت الميم الخارج من الفم، وهذا يتناسب وتلك القوة السلطوية التي يحاول الأمير عبيد الله بن زياد ممارستها مع الشاعر، أما هذه الفتحة الحرة المنطلقة، فقد فجر بها الشاعر ذلك القيد الذي حاولت الشفتان أن تقيد به حرية الصوت (الميم) ومن ثم جاء الهاء متنفساً لينفس بها عما في أعماق نفسه من حزن وثورة وخروج، ومعبرة عن عاطفة الشاعر الثائرة المتأججة التي تُغذيها الشجاعة الجامحة القوية، التي تغلي بها النفس، وهنا نلاحظ ذلك التشابه بين حركة الفتحة الكاسرة لإطباق الوقوف على حرف الروى الميم ومجىء الهاء كمتنفس للصوت، وبين حالة الشاعر المتحسرة الحزينة التي عبر بالتنفيس عنها عن طريق ثورته وتمرده على عبيد الله بن زياد على هيئة ثورة كاسرة لجبروت وتسلط الأمير. وبعد ذلك يمكننا القول إنه بجانب هذا التناسق والتساوق الموسيقي للقافية المذحجية وحرف رويها المعبران تعبيراً دقيقاً وموحياً عن موضوعات شعر مذحج، والمتضافرة تضافراً موفقاً مع محور الشعر وأوزانه، بجانب تلك السمات أو قل الخصائص الأسلوبية الفنية لحظنا هذا الاختلاف في حركة

القافية عند يزيد بن جابر الجعفي الذي يسميه علماء البلاغة (الإقواء)
ويعدونه عيباً في الشعر يجب البعد عنه حيث يقول^(١):

أما ترينيّ قد بُليتُ وغاضني

زمانٌ فقد أودى أخو الجودِ حرثانُ

وأودى بشيخي ذي المهابةِ جابرِ

ونال نذيراً وسطَ أركانِ غمدانِ

ولكنَّ هلهلة نسج البيتين، وتفكُّك بنائهما الشعري يدلان دلالة تطمئن

إليها النفس على انتحالهما فلا يجب أن نلتفت لما فيهما من إقواء.

(١) المعمرن والوصايا ص ٩١ للسجستاني



الفصل الثالث

مكانة شعر مذحج

(أ) آراء النقاد القدماء في شعر مذحج :

لم يحظ الكثير مما قُدِّر لي جمعة من شعر مذحج وشعرائها بنظرِ النقاد القدامى، حتى أستطيع رصد قولهم أو تسطير أحكامهم، تجاه ذلك الشعرِ وشعرائه.

وعلى الرغم من جودة كثير من شعر هذه القبيلة، إلا أن السبب الذي حال دون تناول النقاد له — في تقديري — راجع إلى أن الكثير من أولئك الشعراء كانوا مغمورين، وكانت أشعارهم مبعثرة في كتب التاريخ والسير والتراجم والبلدان، وهذه المصادر يندر تناول الأدباء والنقاد لها، وهي ليست محط نظرهم إذا ما أرادوا دراسة الشعراء أو دراسة نتاجهم الشعري، فكتب الاختيارات الشعرية ودواوين الشعراء هي التي جذبت أنظار الأدباء والنقاد نحوها. بجانب ذلك، فقد ضاع كثيرٌ من شعر هؤلاء الشعراء، بسبب ضياع دواوينهم الشعرية أو دواوين قبائلهم، ولم يبق لهؤلاء الشعراء إلا النزر اليسير، الذي لا يتجاوز القصيدة أو المقطعة، وهذا يحول كذلك دون وقوف النقاد عندهم، والنظر في هذه القلة القليلة من

أشعارهم، لأن القليل لا ينبني عليه حكم نقدي، إلا أن مجموعة شعراء مذحج المُكثَرين والمشهورين، الذين طالت النقاد أشعارهم - وهم يشكلون جانباً من شعراء مذحج - كان شعرهم محط نظر النقد العربي القديم، فتناوله النقاد القدامى ضمن تناولهم للشعر العربي، وأول ما يقابلنا من آراء نقدية تتناول بعض شعر مذحج، ذلك الحكم الذي أصدره أهل المدينة، في مقدرة النجاشي الحارثي الشعرية، عندما أشفقوا على شاعرهم المقدم حسان بن ثابت رضي الله عنه، وخشوا على الشيخ من انهيار ملكته الشعرية أمام شاعرية النجاشي الشاب المتدفقة التي تشكلت وظهرت في ذلك الوقت، بل إنهم حكموا بغلبته لنظرائه من الشعراء في ذلك العصر ولاحظوا ضعف مقدرة عبد الرحمن بن حسان الشعرية أمام شاعرية النجاشي. فقد روى الزبير بن بكار في كتابه الموفقيات فقال: حدثني محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عمران قال: اجتمعت الأنصار في مجلس فتذاكروا هجاء النجاشي إياهم، وقالوا: من له؟ فقال، لهم الحارث بن معاذ: حسان، فقالوا: والله إن طعامه ليغلبه من ضعف حنكه، فنعرّضه للنجاشي، ولم يغلبه شاعر، ثم قصده عبد العزيز فأخبره الخبر فقال - أي حسان - : أين أنتم من عبد الرحمن؟ فقال: قد قاوله فلم يصنع شيئاً^(١).

أما حسان بن ثابت الشاعر الفحل والناقد البصير فيحكم دون تردد - بعد أن يُعرض عليه النجاشي - بأنه أشعر العرب، وبذلك تكون قبيلة مذحج تحوي بين شعرائها من هو أشعر العرب كما قال حسان، فقد روى لنا

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ٢٤٦٤ تحقيق سامي مكي العاني / مطبعة العاني / بغداد.

وانظر الخزانة للبغدادي ٧٤/٤.

الزبير بن بكار حيث قال: لما أراد عبد الرحمن أن يهاجي النجاشي قال له أبوه، هلم فأنشدني من شعرك، فإنك تهاجي أشعر العرب^(١). فحسان أشفق على ابنه عبد الرحمن أن تفضح شاعريته أمام النجاشي، وأدرك مقدرة النجاشي الشعرية التي جعلت لنفسها مكاناً متميزاً في الشعر العربي، سوّغت لحسان بحسه النقدي أن يجعل من النجاشي شاعراً يتسّم قمة الشعر العربي من بين أقرانه، هذا هو رأي حسان بن ثابت النقدي في شعر النجاشي الذي يشكل شعره جزءاً من شعر مذحج، وكون هذا الرأي صادراً من حسان فله كفته الراجحة في ميزان النقد.

ويتناول أهل الشام شعر النجاشي كذلك الذي قاله يوم صفين ويُقبلون على سماعه وروايته ويستجيدونه، فقد روى نصر بن مزاحم المنقري في كتابه وقعة صفين أن أهل الشام لما قال النجاشي قصيدته التي منها:

معاوي إن تأتنا مزبدا

بخضرية تلق رجاجة

قالوا: يا أبا بني الحارث أروناها فإنها جيدة، فأعادها عليهم حتى رووها، وكانت الطلائع تلتقي، يستأمن بعضهم فيتحدثون^(٢).

وهو حكم كما نراه من أهل الشام لشاعر مذحجي يناصبهم العداة والحرب بشعره وسيفه واستطاع أن يقف في وجه شاعر أهل الشام يوم

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ص ٢٢١.

(٢) وقعة صفين ص ٤٥٤.

صفين كعب بن جُعَيْلِ التغلبي وهو الذي أحله ابن سلام أول الطبقة الثالثة من الإسلاميين ووصفه بأنه شاعر مفلق^(١).

أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فقد روى ابن رشيق في كتابه العمدة أنه عدّ شاعرين من شعراء مذحج هما عمرو بن معد يكرب الزبيدي والأسعر بن حمران الجعفي من أشعر المقلين من أصحاب الواحدة^(٢). وشعر هذين الشعاعين يشكل جزءاً لا بأس به من شعر مذحج. وقد حكى البغدادي كذلك عن أبي عبيدة رأياً له في قول الشاعرة المذحجية التي ترثي مرة بن عاهان وتهجو باهلة^(٣):

يا عَيْنُ بكي لمرّة بن عاهانا

لو كان قاتلُهُ من غير من كانا

لو كان قاتلُهُ قوماً ذوي حسب

لكنّ قاتلَهُ بهلُّ بن بهلانا

يرى فيه بأن باهلة ما هجوا بمثله لأنها صغرّت بهم وحقّرت بهم^(٤). فرأى أبي عبيدة هذا يجعل من هجاء هذه الشاعرة المذحجية هجاء لم يسبقه هجاء قيل في هذه القبيلة أنكى وأشد منه وقعاً عليهم.

(١) طبقات فحول الشعراء ٥٧١/٢، لابن سلام الجمحي / تحقيق محمود محمد شاكر / مطبعة المدني / القاهرة سنة ١٩٧٤م.

(٢) العمدة لابن رشيق ٧٩/١. تحقيق مفيد قمحية / دار الكتب العلمية / بيروت / طبعة أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

(٣) خزانة الأدب للبغدادي ٤٠٠/١١ تحقيق عبد السلام هارون / سفنكس للطباعة / طبعة أولى سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م، نشر مكتبة الخانجي - بمصر ودار الرفاعي بالرياض.

(٤) المصدر السابق نفسه.

ويأتي ابن سلام الجمحي وهو ناقد ذو رؤية ثاقبة فيقضي بين النجاشي وتميم بن مقبل العجلاني، هذا الشاعر الذي حكم له ابن سلام بالجودة وأحلّه الطبقة الخامسة من بين الشعراء، يأتي في معرض حديثه عنه فيحكم للنجاشي الحارثي بالغلبة والقهر عليه فيما وقع بينهما من مباراة هجائية فيقول^(١): وتميم بن مقبل شاعر مجيد مُغَلَّب، غلَّب عليه النجاشي ولم يكن إليه في الشعر، وقد قهره في الهجاء، بقوله^(٢):

إذا الله عادى أهلَ لؤمٍ ودقةٍ

فعادى بني العجلان رهطَ ابن مقبلٍ

أما ابن سلام الجمحي، فقد وجدت له رأياً حول معركة النجاشي الشعرية وعبد الرحمن بن حسان في كتابه طبقات فحول الشعراء يُغَلَّب فيه عبد الرحمن على النجاشي وهو بذلك يخالف جمهرة النقاد والرواة، الذين رَوَوْا ونقلوا أحداث تلك المعركة الهجائية^(٣).

فابن سلام يقول: ثم هاجى النجاشي عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فغَلَّبَهُ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت^(٤) فإن جل من رَووا هذه الحادثة

(١) طبقات فحول الشعراء ١/١٥٠ تحقيق محمود محمد شاكر/ مطبعة المدني.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ٢٣١، ٢٤٥، ٢٤٦ والخزانة للبغدادي ٧٤/٤ - ٧٧ تحقيق عبد السلام هارون/ دار الجيل للطباعة/ مصر/ طبعة ثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، نشر مكتبة الخانجي بمصر.

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١/١٥٠ تحقيق محمود محمد شاكر/ مطبعة المدني.

يذكرون غَلَبَةَ النجاشي لعبد الرحمن بن حسان، وأن النجاشي لم يُغلب في تلك المعركة الهجائية إلا بعد أن تعرض له الشيخ الذي هو حسان بن ثابت والد عبد الرحمن حيث انضم إلى ولده في هجاء النجاشي^(١): ولعل هذا رأي لابن سلام، فهو أقدم النقاد العرب القدماء، إلا أن تفرد ابن سلام بهذا الرأي وذهاب كثير من النقاد والرواة أن الغلبة في هذه المعركة الشعرية كانت للنجاشي على عبد الرحمن بن حسان تجعلني أميل إلى أن عبارة ابن سلام الجمحي قد لحقها التحريف. إما بزيادة الضمير الغائب «الهاء» في «فغلبه» وإما باقحام اسم «عبد الرحمن» وعلى الفرض الأول يكون النجاشي هو الذي غلب عبد الرحمن، وعلى الفرض الثاني يكون الذي غلب النجاشي هو حسان وليس ابنه عبد الرحمن، لأن عبد الرحمن كما تثبت الروايات قد استعان بأبيه حسان فأعانه، وهجا النجاشي ورهطه من بني الحارث بن كعب^(٢). وبذلك توافق رواية ابن سلام روايات باقي النقاد والرواة الذين نقلوا هذه الحادثة. ومن آراء القدماء التي تناولت شعر مذحج ما ذكره ابن جرير الطبري، فقد قال عن عبيد الله بن الحر الجعفي: «وهو من أشعر الفتيان^(٣)» وفي هذا تقديم من الطبري لعبيد الله على الفتيان من شعراء عصره.

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ٢٤٠ - ٢٤٧ ، الخزانة ٧٤/٤ - ٧٧ تحقيق عبد السلام هارون/ دا الجيل.

(٢) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ٢٤٠ - ٢٤٧ ، والخزانة للبغدادي ٧٤/٤ - ٧٧ تحقيق عبد السلام هارون.

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٥٠٣/٣.

وعد الأصمعي النجاشي من الفحول، ورأى بأنه غلب تميم بن مقبل في
المهاجاة التي قامت بينهما^(١).

ويُعمل ابن قتيبة نظره في جزء آخر من شعر مذحج، ويضع فيه رأيه من
خلال تناوله ثلاثة من شعرائها هم: الأفوه الأودي، وعمرو بن معد يكرب
الزبيدي والنجاشي الحارثي، وذلك في كتابه الشعر والشعراء، فقد عقد
ترجمة للأفوه الأودي، وأورد مقتطفات من شعره، وقال: إن من جيد شعره
قوله^(٢):

إنما نعمة قوم متعة
وحياة المرء ثوب مستعار
حتم الدهر علينا أنه
ظلف ما نال منا وجبار

ثم قال ابن قتيبة: «وهذه القصيدة من جيد شعر العرب^(٣)»، أما عمرو بن
معد يكرب الزبيدي فقد قال عنه ابن قتيبة: «إنه أحد من يصدق عن نفسه
في شعره^(٤)»، واختار له بعضاً من ذلك الشعر الذي صدق فيه، وقال: ومن
جيد شعره^(٥).

(١) كتاب فحول الشعراء للأصمعي ص ١٧ تحقيق المستشرق ش . توري تقديم صلاح الدين
المنجد/ دار الكتاب الجديد/ لبنان/ الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٢) الشعر والشعراء/ لابن قتيبة ٢٢٣/١ تحقيق أحمد محمد شاكر/ دار المعارف/ القاهرة.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق ٢٧٢/١.

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ . أحمد محمد شاكر.

أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ

يُؤرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هَجْوَعُ ؟

فحكّم بالصدق لعمرو في شاعريته وبجودة شعره، وشعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي يشكل لبنة عظيمة في بناء شعر مذحج. أما الشاعر الثالث من شعراء مذحج الذي تناوله ابن قتيبة فهو النجاشي الحارثي، فقد حكم لشعره بالجودة وجعل من جيد شعره قوله لمعاوية^(١):

يا أيُّها الرجلُ المُبْدِي عداوته

روّي لنفسك أي الأُممِ — تَأْتَمُرُ

ولقد أُعجب كل من التبريزي والمرزوقي بقول الأشتر النخعي:

بَقِيْتُ وفري وانحرفتُ عن العِلا

ولقيتُ أضيافي بوجه عيوس

إن لم أشن على ابنِ حربٍ غارةً

لم تخلُ يوماً من نهابِ نفوس

وقالاً بأن أيمانه هذه من الأيمان الشريفة^(٢).

أما قدامة بن جعفر فقد عد الأفوه الأودي من الشعراء القدامى المجيدين من الفحول، واستجاد التّرصيع في قوله^(٣):

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٢٢/١ . أحمد محمد شاكر.

(٢) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٧٧/١، شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي ١٤٩/١.

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٨٠ ، ٨٢ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة / طبع دار الكتب العلمية / بيروت. السنة بدون.

سودٌ غدائرها بلجٌ محاجرُها

كأن أطرافها لما اجتلى الطَّنْفُ

واختار كذلك قدامة من جيد التقسيم - كما يقول - قول الأسعر الجعفي^(١):

أما إذا استقبلته فكأنه

بازٌ يكفكفُ أن يطيرَ وقدر رأي

أما إذا استدبرته فتسوقه

ساقُ قموص الوقع عاريةُ النسأ

أما إذا استعرضته متمطراً

فتقولُ : هذا مثلُ سرحانِ الغصَا

وقال: «فلم يدع هذا الشاعر قسمًا من أقسام النَّصْبَةِ التي يُرى الفرس عليها إلا أتى به^(٢)». وشعر الأفوه والأسعر الذي تناوله قدامة بن جعفر بهذه الآراء النقدية يعد جزءاً لا بأس به من شعر مذحج. والباقلاني يجعل من شعر عمرو بن معد يكرب مثلاً لما سماه برد الأعجاز حين يورد قول عمرو^(٣):

(١) المصدر السابق ص ١٤٠ .

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٤٠ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ١١٧ تحقيق عماد الدين أحمد حيدر / مؤسسة الكتب الثقافية / بيروت /

طبعة أولى سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

إذا لم تستطع شيئاً فدعه

وجاوزه إلى ما تستطيع

وهذا إن لم يكن رأياً صريحاً من الباقلاني تجاه هذا المثال إلا أن اختياره لهذا الشعر والتمثيل به يدل على استجادته له في هذا الموضوع. وتناول أبو هلال العسكري شعر مذحج من خلال جملة من شعرائها، وكان في تناوله ذلك يصدر عن رؤيا نقدية ثابتة تتخذ من الذوق والمقاييس النقدية الفنية أدوات يحاكم على ضوءها شعر مذحج حين يجعل - أبو هلال العسكري - من قول الأفوه الأودي المذحجي^(١):

والخيرُ تزداد منه ما لقيتَ به

والشُّرُّ يكفيك منه قلما زاد

نظيراً من جهة البلاغة العجم (فارس) الممثلة في قول كسرى أنوشروان لابن هرمز: «لا يمكن عندك لعملٍ برٍ غاية في الكثرة، ولا لعمل الإثم غاية في القلة^(٢)». حيث جعل أبو هلال العسكري من معاني شعر مذحج معاني بليغة تمثل البلاغة العربية أمام البلاغة الأعجمية (الفارسية)، وقد حظى شعر الأفوه الأودي المذحجي - الذي يشكل شعره جزءاً من شعر مذحج - باختيار أبي هلال العسكري له كنموذج أمام البلاغة الأعجمية (الفارسية). ونجد أبا هلال كذلك عندما أراد أن يلتمس مثلاً

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢/٩٠ / مكتبة القدسي سنة ١٣٥٢هـ.

(٢) المصدر السابق نفسه.

شعرياً للاستعارة في أشعار المتقدمين، يلفت نظره شعر مذحج ويختار منه قول الأفوه الأودي^(١):

عافوا الإتاوة واستقت أسلافهم

حتى ارتووا عللاً بأذنبه الردى

ويفضل أبو هلال العسكري قول الأسعر الجعفي في اصطفاف الخيل على قول سائر الشعراء من العرب في هذا المعنى وهذه الصورة فيقول: وأحسن وأجود ما قيل في اصطفاف الخيل قول الأسعر الجعفي^(٢):

وكتيبةٍ لبستها بكتيبةٍ

حتى تقول نساؤهم هذا الفتى

يخرجن من خلل الغبار عوابسا

كأصابع المقرورِ ألقى فاصطلى

ويرى أبو هلال كذلك أن الأسعر الجعفي قد وقع على معنى جاء في أسلوب رسول الله ﷺ فيما بعد^(٣)، في وصفه ﷺ لأناث الخيل بأعجب وصف في قوله: «ظهورها حرز ويطونها كنز» والأسعر قد وقع عليه في قوله^(٤):

(١) الصنعتين لأبي هلال العسكري ٢٨٦ تحقيق مفيد قمحية / طبع دار الكتب العلمية / بيروت / الطبعة الأولى سنة ١٤٠١ - ١٩٨٨ م.

(٢) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢ / ١٠٦، ١٠٨.

(٣) انظر ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢ / ١٠٦، ١٠٨.

(٤) المصدر السابق نفسه.

ولقد علمتُ على توقي الردى

أن الحصون الخيل لامدراً القرى

ويحكم أبو هلال العسكري بالحسن والجودة لفروة بن مسيك المرادي
حيث يرى أبو هلال العسكري أن من أحسن ما قيل في الاعتذار عن الهزيمة
هو قول فروة بن مسيك^(١):

فإن نهزم فهزامون قدما

وإن نهزم فغير مهزamina

وما إن طبنا جبن ولكن

منا يانا ودولة آخرينا

فيقول أبو هلال: إن قول فروة «ودولة آخرينا» من أحسن الاعتذار
الواقع من المهزوم^(٢).

وبجانب هذه الأحكام والآراء النقدية التي حاور بها أبو هلال بعضاً من
شعر مذحج وشعرائها والتي تضع هذا الشعر وأولئك الشعراء في مكانهم
اللائق بهم ضمن الشعر العربي، لم يسلم بعض شعر مذحج من هفوات
فنية، أو معنوية، وقع فيها كما يبدو لأبي هلال العسكري، فعمرو بن معد
يكرب عنده بارد اللفظ في قوله^(٣):

(١) المصدر السابق ٢٣١/٢ .

(٢) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢٣١/٢ .

(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري ٧٤/١ تحقيق مفيد قمحية / دار الكتب العلمية.

قد علمت سلمى وجاراتها

ما قطر الفارس إلا أنا

شككت بالرمح سرايله

والخيل تعدو أزيماً حولنا

فالمعنى هنا كما يرى أبو هلال صواب ولكن لفظه بارد^(١). وما دمنا نعرف شغف أبي هلال باللفظ دون المعنى فهو ممن ينحاز للفظ ويجعل البلاغة فيه دون المعنى، فلا نستغرب منه حكمه هذا تجاه عمرو بن معد يكرب.

وينقل التبريزي في شرحه على حماسة أبي تمام رأياً لأبي هلال العسكري يحكم فيه أبو هلال بالرداءة في قول الأشتر النخعي^(٢):

حَمِيَّ الحَديدُ عليهمُ فكأنه

ومضانُ برقي أو شعاعُ شمسٍ

فإن الحديد - كما يقول أبو هلال - إذا كان مجلواً وطلعت عليه الشمس برق وإن لم يحم، وإذا لم يكن مجلواً لم يكن له بريق وإن حمي، فقوله: حمي فصار له ومضان ردىء لا وجه له^(٣).

وأكبر الظن أن أبا هلال في حكمه هذا قصر «الفاء» في قول الأشتر

(١) المصدر السابق ٧٤/١.

(٢) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٧٦/١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

«فكأنه» على السببية، وحَمَلها هذا المعنى، ثم بنى حكمه على هذه الملاحظة، ولو قلب في معاني «الفاء» لوجد من مؤداها مجرد العطف - وهو ما أراده الشاعر هنا - فالشاعر لا يريد السببية من الفاء، فليس مراده أن الحميان سبب في اللمعان وإنما أراد أن يذكر لنا حال الحديد الذي يلبسونه أصلاً عند تعرضه للشمس في ساحة المعركة فقد أكسبه ذلك التعرض للشمس الحميان واللمعان، وكلاهما أثر من أثر الشمس عليه وليس اللمعان سبباً للحميان.

ويرى ابن طباطبا العلوي في قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

فلو أن قومي أنطقني رماحهم

نطقتُ ، ولكنَّ الرماحَ أجرتِ

خير مثال على التعريض الذي ينوب عن التصريح، والاختصار الذي ينوب عن الإطالة^(١).

ويطالعنا ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة برأي للحاتمي يذكر فيه أن أصح تقسيم وقع لشاعر تقسيم الأسعر الجعفي عند وصفه للفرس^(٢) في أبياته المشهورة التي سبق أن ذكرناها عند حديثنا عن رأي قدامة بن جعفر في شعر مذحج، ولكن ابن رشيق يخالف الحاتمي وقدامة في هذا

(١) عيار الشعر/ لابن طباطبا العلوي ص ٤٥ تحقيق عبد العزيز المانع.

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني ٢/٢٥٦ تحقيق مفيد محمد قمحية/ بيروت/ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

التقسيم فيرى أن تقسيم الأسعار ليس بأفضل من قول امرئ القيس إلا
بشرف الصفات^(١):

إذا أقبلتُ قلتُ دبَاءه
من الخضر مغموسةً في الغدرُ
وإن أدبرتُ قلتُ أثفية
ململمةً ليس فيها أثرُ
وإن أعرضتُ قلتُ سرعوفة
لها ذنبٌ خلفها مسـبـطـر

ومهما يكن من رأي ابن رشيقي في المفاضلة بين تقسيم الأسعار وتقسيم
امرئ القيس، فإنه قد حكم بالفضل في تقسيم الأسعار وإن كان لا يرى
أنه أفضل من تقسيم امرئ القيس، ثم إنه قد حكم بفضل تقسيم الأسعار
على تقسيم امرئ القيس في شرف الصفات، وهذا يوضح لنا أن أبيات
الأسعر لما تزل في رأي ابن رشيقي أفضل من أبيات امرئ القيس.

ولقد اختار ابن رشيقي عند حديثه عن التفسير مثلاً على ذلك، رأى فيه
تفسيراً بلاغياً محموداً وهو قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي^(٢):

فأرسلنا ربيئتنا فأوقى

فقال : ألا أولى خمس رتوعُ

(١) المصدر السابق ٢/٢٥٧.

(٢) العمدة ٢/٢٦٩.

رباعيةً ، وقارحُها ، وجحشُ

وثالثةٌ ، وهاديةٌ زموعُ

وقد تناول ابن سنان الخفاجي أبياتاً من شعر مذحج في كتابه سر
الفصاحة من خلال تمثيله بشعر لثلاثة من شعراء مذحج هم : الأفوه
الأودي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والنجاشي الحارثي، فقد استشهد
على المماثلة بقول الأفوه الأودي^(١):

وأقطعُ الهو جَل مستأنسُ

بهوجلٍ عيرانُ عنتريس

ومثل للإيجاز بقول عمرو بن معد يكرب^(٢):

فلو أن قومي أنطقني رماحهم

نطقتُ ولكن الرماحَ أجرت

ومثل للإرداف والتتبع بقول عمرو كذلك^(٣):

الضاربين بكلّ أبيضٍ مخذم

والطاعنين مجامع الأضغان

وجعل ابن سنان قول عمرو بن معد يكرب:

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٩٥ ، دار الكتب . العلمية وبيروت ١٤٠٢ / ١٩٨٢ م.

(٢) المصدر السابق ٢١٤ .

(٣) المصدر السابق ٢٢٢

وكنت سناماً في فزارة سامكاً
وفي كل حيّ ذروةً وسناماً

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع

من النعوت المحمودة التي يدل فيه بعض الكلام على بعض حتى يمكن استخراج قوافيه، ويكون بعض البيت شاهداً على بعض، وهو ما يسمى بفن التوشيح^(١).

واستقبح ابن سنان استخدام عمرو للفظ الغائط في قوله^(٢):

وكم من غائطٍ من دون سلمى
قليل الأنس ليس به كتيح

واستشهد على حذف بعض الكلمة بقول النجاشي^(٣):

فلسـت بآتيه ولا أستطيعه
ولاك اسقني إن كان مأوك ذا فضل

ونعت ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة النجاشي الحارثي بشاعر

(١) سر الفصححة لابن سنان الخفاجي ص ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٠ .

أهل العراق بصفيين، وقال: «بأن عليا عليه السلام كان يأمره بمحاربة شعراء أهل الشام مثل كعب بن جعيل وغيره^(١)».

أما حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء^(٢) فقد استشهد في موضوع التخييل والمحاكاة التفصيلية بين المشبه والمشبه - بوصف الأسعر في أبياته المشهورة في وصف الفرس في حالة الاستقبال والاستبار والاستعراض.

أما أسامة بن منقذ فيرى أن من بليغ ما قيل في الشَّيب هو قول الأفوه الأودي المذحجي^(٣):

إن ترى رأسي فيه نزعُ

وشواني خلعةً فيها دوار

ومن خلال هذه الرحلة الاستعراضية مع علماء النقد العربي القديم، ندرك آراء النقاد فيما وقع تحت أيديهم وأنظارهم من شعر مذحج وشعرائها، وكيف حاز، أو استطاع أن يحوز هذه الآراء، ومن ثم، نضعه في مكانه اللائق من مساحة الشعر العربي في العصر الجاهلي والإسلامي.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٧/٤ ، ٨٨ / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني ص ١٠٠ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة / دار الغرب الإسلامي الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م.

(٣) الباب الالباب / أسامة بن منقذ / ص ٢٧٢ / تحقيق أحمد محمد شاكر / المطبعة الرحمانية / مكتبة لويس سركيس / القاهرة سنة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.

(ب) منزلة شعر مذحج في الشعر العربي :

يكاد يرتبط هذا المبحث بالمبحث الذي قبله من هذا الفصل ارتباطاً وثيقاً يجعل الناظر فيه لأول وهلة يظن أن هناك تداخلاً بينهما، أو أن هذا المبحث ماهو إلا تكرار للذي قبله، ولكنه لو أنعم النظر، لأدرك ذلك الخيط الدقيق الفاصل بينهما والموضح حدود كل منهما، والرأي أن ذلك المبحث شيء وأن هذا المبحث مرتبط به بذلك الخيط، ولكنه ليس هو عينه، وبمعنى آخر فإن هذا المبحث إنما يشكل النتائج الآتية من معطيات سابقة هي مادة المبحث السابق عليه المتمثلة في آراء النقاد، وذلك لأن منزلة شعر مذحج تظهر ظهوراً واضحاً وتبين إذا ما أحطنا بآراء النقاد فيه، فمما سبق أن عرضناه من آراء النقاد في بعض شعر مذحج يتضح لنا وضوحاً جلياً مكانة شعر مذحج ومنزلته من دائرة الشعر العربي، فبعض شعرائه قد لفتوا نظر كبار النقاد وظفروا بجوانب من اهتماماتهم، وأن النقاد قد اهتموا بما وقعوا عليه من شعر مذحج وأعملوا النظر فيه وقالوا فيه آراءهم، فأهل المدينة قد أحطنا برأيهم فيه فقد حكموا لشاعر مذحجي بالغلبة على شاعرهم ابن حسان^(١) ابن ثابت حتى إنهم خافوا على شاعرهم الذي قد بلغ من الكبر عتياً حسان ابن ثابت أن يُغلب من الشاعر المذحجي وما يتمتع به أهل المدينة من ذوق شعريّ فنيّ، وما لهم من خلفية نقدية كانوا قد اشتهروا بها منذ العصر الجاهلي، عندما حكموا على شعر النابغة وقبل منهم رؤيتهم النقدية المشهورة، يجعل من هذا الرأي النقدي النابع ممن هم أهله، ومن لهم عمق

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ص ٢٤٦ ، والذخيرة للبغدادي ٧٤/٤ وما بعدها/ تحقيق عبد السلام هارون/ دار الجيل للطباعة.

نقدي متجذر في القدم، يجعلنا ندرك القوة الشعرية التي كان يتمتع بها شعر مذحج في ذلك الوقت وأن هذا الشعر قد ثبت لنفسه موطئ قدم في المكانة الشعرية بين العرب في ذلك العصر.

ثم أدركنا رأي حسان بن ثابت ووصفه بأن الشاعر النجاشي المذحجي أشعر العرب^(١)، وهي شهادة من شاعر فحل وناقد طالما قدمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حاكماً وفاصلاً في منازعات الشعراء وكان رأيه مُعْتَمَداً في الحكومة الشعرية^(٢). ومما يجعل لشعر مذحج منزلة مهمة في الشعر العربي، ويزيده تقدماً ويحطه المحل الجدير به ضمن الشعر العربي ما ذكره السيوطي عن عمرو بن شبة في طبقات الشعراء قوله: بأن الأفوه الأودي - وهو شاعر مذحجي - هو أقدم من كل شعراء الجاهلية، وأنه هو أول من قصد القصائد^(٣).

ويؤيد ذلك ما يرويهِ أبو الفرج الأصفهاني عن ابن الكلبي بأن الأفوه الأودي من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية، وكانت العرب تعد داليته:

معاشر ما بنوا مجداً لقومهم

وإن بنى غيرهم ما أفسدوا عادوا

(١) الأخبار الموقفيات للزبيرى بكار ص ٢٤٦ والخزانة للبغدادي ٧٤/٤ تحقيق عبد السلام هارون/ دار الجيل.

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٣١/١ والعمدة لابن رشيق ٤٠/١، وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١٧٦/١، ١٧٧.

(٣) المزهر في اللغة لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي ٤٧٧/٢ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين/ طبع الفكر.

من حكمة العرب وآدابها^(١).

فهذا يجعل للأفوه الأودي وهو شاعر مذحجي فضل السبق والتقدم على سائر العرب في إبداع وبناء هيكل وكيان القصيدة العربية وأن إنتاجه الشعري المتمثل في هذه القصيدة التي أشار إليها الأصفهاني له مكانته في الشعر العربي الجاهلي الذي يحوي حكم العرب وتجاربها وآدابها.

أما الجاحظ فيذكر في معرض حديثه عن حظ القبائل من الشعر وتفاوتهم فيه قوله: وبنو الحارث بن كعب، لم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ولهم في الإسلام شعراء مفلّون^(٢). هذا هو رأي الجاحظ في مكانة قبيلة بني الحارث الشعرية في الجاهلية والإسلام، وإن قبلنا الشق الثاني من رأيه فإنني أجدني متوقفاً عن قبول الشق الأول من رأيه وهو الذي يوضح فيه مكانة القبيلة الشعرية في الجاهلية، ففي الأغاني نجد أن أبا الفرج الأصفهاني، يذكر أن من بيوتات الشعر المعرّقة في الجاهلية والإسلام (آل الحارثي) ويذكر من الشعراء المعرّقين من هذه القبيلة في الجاهلية: عبد يغوث الحارثي والجلاج الحارثي ومسهر الحارثي ويذكر من العصر الإسلامي جعفر بن علبة الحارثي^(٣).

وأجدني من خلال مقولة الأصفهاني التي يحكم فيها بعراقة بني الحارث ابن كعب المذحجين في الشعر الجاهلي والإسلامي، بجانب ما قدّر لي جمعه

(١) الأغاني (دار الكتب) ١٢/١٦٩.

(٢) الحيوان للجاحظ ٤/٢٨١ تحقيق وشرح عبد السلام هارون/ شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر/ الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(٣) الأغاني ١٦/٣٢٨ «دار الكتب المصرية».

من شعر وشعراء لهذه القبيلة، أجدني أميل نحو الحقيقة والواقع بأن هذه القبيلة المذحجية التي عرفنا لها في الجاهلية من الشعراء ما يربو على خمسة وعشرين شاعراً، منهم نابغة بني الديان الحارثي وعبد يغوث ومخرّم وابنه يزيد وعبد المدان وابنيه يزيد وعبد الله، وجمعنا لها قدراً وافراً من الشعر قد كان لها حظ من الشعر والشعراء في الجاهلية لا يقل عنه في الإسلام. وليست هي كما قال الجاحظ لم يكن لها كبير حظ من الشعر الجاهلي، وأن أبا الفرج الأصفهاني عندما ذكر لهم العراقة في الشعر في العصر الجاهلي، كان ينطلق من واقع وحقيقة بين يديه، فقد ضمن كثيراً من نتاج هذه القبيلة الشعري وترجم لكثير من شعرائها في كتابه الأغاني^(١)، وأكبر الظن أن الجاحظ لم يقصد أن يقلل من حظ بني الحارث بن كعب من الشعر في الجاهلية بجانب سائر القبائل بقدر ما كان يريد أن يقول لنا بأن حظ هذه القبيلة من الشعراء المفلّحين في الإسلام أوفر حظاً منه في الجاهلية، وكون أعظم شعراء هذه القبيلة كانوا في الإسلام لا يمنع أن تكون من القبائل المعرّقة في الجاهلية، ولا ينتقص من حظها الوافر من الشعر في الجاهلية، ولكنه في الإسلام أوفر وأعظم منه في الجاهلية.

ومهما يكن من أمر، فهذه الأخبار كلها تتضافر وتتآزر، لتوضح لنا منزلة قبيلة مذحج الشعرية في جاهليتها وإسلامها.

ولقد أخذ شعر مذحج مكانته بين شعر القبائل العربية فسمعنا له صوتاً وصدى يتردد في تلك الحروب، التي كانت تقوم بين مذحج وغيرها من

(١) انظر الاغاني (دار الكتب) ٢/١٢ - ٢١، ١٦٩ - ١٧٣، ١٦٦، ٣٢٩ - ٣٤١.

القبائل كما هو يوم الكلاب الثاني، ويوم فيف الريح، يوم تثليث، وسائر أيام مذحج مع جاراتها من قبائل قيس، ونزار، وقحطان، أو بين قبائلها فيما بينها، وكذلك وجدنا لشعر مذحج مكاناً في بلاط ملوك الشام من الغساسنة على لسان يزيد بن عبد المدان في رده على القيسيين، الذين نالوا من النُعمان ملك الحيرة، في حضرة الملك الغساني^(١)، ووجدنا لشعر مذحج منبراً في عكاظ يتسنمه يزيد بن عبد المدان كذلك في منافرته مع عامر بن الطفيل^(٢) والنجاشي الحارثي في مهاجاته مع عبد الرحمن بن حسان^(٣)، أما في الفتوحات الإسلامية فقد كان شعر مذحج لساناً ضمن السنن القبائل العربية، يجاهد في سبيل الله ويبث روح الحماس في المسلمين المجاهدين، وخير من مثل ذلك عمرو بن معد يكرب، وقيس بن مكشوح المرادي، وكثير من الشعراء المقلّين، وكان النجاشي الحارثي هو لسان علي الناطق يوم صفين، وهو شاعر أهل العراق بلا منازع، صور خلال هذا الشعر رؤية أهل العراق في تلك الأحداث، ولقد كان شعر مذحج وشعراؤها محط نظر كثير من الشعراء، ممن جاء بعدهم في الجاهلية والإسلام، فكان شعر مذحج ينال إعجابهم، في معانيه وصوره، ويفريهم بمعارضته، وتقليده، والأخذ منه، والوقوف على معانيه، مضمّنين حيناً ومتأثرين حيناً آخر، فنجد أن الأفوه الأودي يقول يصف شجاعة قومه وكثرة قتلهم لأعدائهم^(٤):

(١) انظر الأغاني (دار الكتب) ١٢/١٤، ١٥.

(٢) الأغاني (دار الكتب) ١٢/١٠.

(٣) الأخبار الموفقيات للزبير بكار ٢٤٦، الخزانة للبغدادي ٤/٧٤ تحقيق عبد السلام هارون.

(٤) الطرائف الأدبية ص ١٢.

وتسرى الطير على آثارنا
 رأي عيْنِ ثِقَّةٍ أن سَتْمَارَ
 فيأتي النابغة الذبياني ويأخذ هذا المعنى في قوله^(١):
 إذا ما غزوا بالجيشِ حَلَقَ فوقهم
 عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ
 جوانحٍ قد أيقنَ أن قبيلَهُ
 إذا ما التقى الجمعان أولُ غائبِ
 ويتأثر أبو نواس كذلك بمعنى الأفوه حتى يأخذ بعض ألفاظه فيقول^(٢):
 تأتي الطيرُ غُدوتَهُ
 ثِقَّةً بالشبعِ من جزره
 ثم مسلم في قوله^(٣):
 قد عودوا الطيرَ عاداتٍ وثقن بها
 فهن يتبعنهُ في كلِّ مـرتحلٍ
 وأبو تمام في قوله^(٤):

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ٢٧٤ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي / طبع دار القلم بيروت.
 (٢) المصدر السابق نفسه.
 (٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري ٢٤٦ .
 (٤) الوساطة بين المتنبى وخصومه ٢٧٤ .

قد ظَلَّتْ عَقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضَحَى

بِعَقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلُ

أَقَامَتْ عَلَى الرِّيَايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا

مِنَ الْجِيِشِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَقَاتِلُ

ثم يقول الجرجاني في الوساطة: على أن الأفوه الأودي قد فَضَّلَ الجماعة يقصد - النابغة وأبا نواس ومسلماً وأبا تمام - بأمور منها السَّبْقُ، وهي الفضيلة العظمى والآخرة قوله «رأي عين» فخبّر عن قربها لأنها إذا بعدت تَحَيَّلَتْ ولم تُرَ . وإنما يكون قربها متوقعاً للفريسة وهذا يؤيد المعنى، ثم قال: «ثقة أن ستمار» فجعلها واثقة بالميرة، ولم يجمع هذه الأوصاف غيره^(١).

فبجانب أخذ هؤلاء الشعراء معنى الأفوه الأودي هذا، فإنني أميل في ثقة إلى أن كل واحد منهم كان يعالج هذا المعنى وهو واضع نصب عينيه بيت الأفوه، ويدل على ذلك تداخل نص الأفوه مع نصوصهم واشتمالها على أجزاء من نص الأفوه، فقول النابغة (قد أيقن) هو قول الأفوه «ثقة» أما أبو نواس فيأخذ اللفظة نفسها عندما يقول «ثقة بالشعب» ومسلم كذلك في قوله «وثقن بها» أما براعة أبي تمام فتجعله يذيب نص الأفوه في نصه فلا نكاد نخطف منه إلا لفظه «طير»، مع ذلك فكل منهم قد قَصَرَ - في احتوائه المعنى وقوة تعبيره - عما صنعه إمامهم الأفوه كما يرى ذلك الجرجاني في كلامه

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

وانظر كذلك الصناعتين لأبي هلال العسكري ٢٤٥ .

الأنف الذكر. كل هذا يجعلنا ندرك المنزلة التي بلغها بعض شعراء مذحج ونتاجهم الشعري ضمن الشعر العربي، ولدى العظماء من الشعراء العرب. ويخترع الأسعر الجعفي المذحجي وهو شاعر جاهلي متقدم هذه الصورة للخيل حيث يقول^(١):

يخرجن من خللِ الغبارِ عوابسا

كأصابع المقرور أقعي فاصطلي

فَيُعجب بها جرير فيصف الخيل ويقع عليه ويولد منه^(٢):

يخرجن من مستطير النقع دامية

كأن آذانها أطراف أقلام

ولقد ضاهى بعض شعر مذحج وزاحم الشعر العربي في وقوعه على المعاني والصور الحسنة فاحتل بها مكاناً مرموقاً بين أساليب الشعر العربي يظهر ذلك في قول النجاشي الحارثي^(٣):

أنت كالشمس والرجال نجوم

لا يرى ضوءها مع الإشراق

ضاهى به قول النابغة الذبياني^(٤):

(١) الوحشيات لأبي تمام رقم (٥٨) ص ٤٣ .

(٢) العمدة لابن رشيق ١٨٢/١ .

(٣) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٣ ص ١١٧ . لسنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

(٤) ديوان النابغة الذبياني - ص ٧٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار المعارف / مصر / طبعة ثانية / ١٩٨٥م .

بأنك شمسٌ والممْلوكُ كواكبٌ

إذا طلعت لم يبقَ منهن كوكبٌ

أما قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

فلو أن قومي أنطقنني رماحهم

نطقتُ ولكن الرماح أجرتِ

وقوله :

الضارِبين بكلِّ أبيضٍ مرهفٍ

والطاعنين مجامعَ الأضغان

وقول الشُّمَيْذِرِ الحارثي:

بني عمنا لا تذكرُ الشعرَ بعدما

دفتنتمُ بصحراءِ الغميرِ القوافيا

فلا يكاد كتاب من كتب البلاغة يخلو من هذه الأبيات المذحجية العظيمة المعاني والإشارات والصور^(١). التي فاق قائلوها بها غيرهم من الشعراء، فهذا شاعر من عظماء الشعر العربي هو البحترى يقول عنه أبو هلال

(٢) انظر كتاب عيار الشعر لابن طباطبا ٤٥ ، ٤٦ وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ٢١٤ ، ٢٢٢ / طبع دار الكتب العلمية / بيروت. وكتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني لمحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ٤/٢ ، ١٩ / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٥ / ١٤٠٥ هـ وكتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣/٧٤ لابن الأثير تحقيق أحمد محمد الحوفي / طبع نهضة مصر ١٣٧٩/١٩٥٩ هـ

العسكري: بأنه قصر في تناوله معنى عمرو بن معد يكرب عندما حاول أخذه منه فقال:

قومٌ ترى أرمآحهم يومَ الوغى

مشغوفةً بمواطنِ الكتمانِ

وقال أبو هلال موضحاً جمال بيت الشاعر المذحجي عمرو بن معد يكرب، وسبب تقدمه: (مجامع الأضغان) أجود من قوله (مواطن الكتمان) لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم، فإذا وقع الطعن في موضع الضغن فذلك غاية المراد^(١). وشابه^(٢) الجرجاني في المعاني بين امرئ القيس في قوله:

كأنّي لم أركب جواداً للذّة

ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل

لخيلي كُرى كَرّة بعد إجفالي

وبين قول عبد يغوث :

كأنّي لم أركب جواداً ولم أقل

لخيلي كُرى نفسى عن رجاليا

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ٢٥٤ .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٩٥ .

ولم أسبأ الزقّ الرويَ ولم أقلُ

لايسارِ صدقِ أعظموا ضوء ناريا

ولا أظنني مغاليا لو قلت: إن معنى عبد يغوث أوسع شرفاً وأعظم فخراً
من معنى امرئ القيس؛ لأن عبد يغوث جمع في بيته بين الشجاعة واللذة
وإغاثة المستغيث من قومه والكرم، أما امرؤ القيس فدار معنى بيتيه حول
اللذة والشجاعة فقط.

وشابه الجرجاني كذلك في الوقوع على المعاني^(١) بين الأفوه الأودي في

قوله:

إنما نعمة قوم متعة

وحياة المرء ثوب مستعار

وقول لبيد بن ربيعة في المعنى نفسه:

وما المأل والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن تردّ الودائع

ومهما يكن من أمر فإن للشاعر المذحجي مزية السبق والتقدم في معالجة
المعنى والوقوع عليه واحتمال التأثر به فإن لبيدا جاء بعد الأفوه في العصر،
والتصوير بالثوب المستعار كما هو عند الأفوه، أجْدَلُهُ وقعاً في النفس،
وبلاغة في التعبير أكثر من التشبيه بالودائع كما هو عند لبيد، لأن في إعادة

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٠١ .

الثوب جدّ حاجة، وشدة في الإسقاط والألم؛ لما فيه من التجرد والتعرّي، أما إعادة الودائع فلا تؤدي للحاجة والعوز الذي أفاده التجرد من الثوب.

مما سبق يمكننا تلمّس — من قريب أو بعيد — مكانة شعر مذحج ومنزلته في الشعر العربي، ويجعلنا كذلك ندرك ما كان لبعض شعراء هذه القبيلة من صوت واضح الصدى بين سائر الشعراء العرب في الجاهلية والإسلام. ولقد وضع الشعراء الرواة والنقاد — كما يظهر — ما وصل إليهم من الشعر المذحجي في المكانة والمنزلة الجديرة واللائقة به ضمن الحسن والجيد من الشعر العربي، وشكّل ذلك الشعر المذحجي جزءاً مهماً من تراثنا العربي والإسلامي، يتضح ذلك في تناول الرواة والعلماء لما وقع في أيديهم منه ضمن ما جمعوه وأودعوه في كتب التراث التي عنوا بتدوينها، وتأليفها، فقد خصوا بعض قبائل مذحج بدواوين تجمع شعرها وأخبارها وأسماء شعرائها، وقد وصلنا ذكر ديواني بني الحارث بن كعب، وبني جعفي، وما قام به بعض العلماء من أفراد بعض شعراء مذحج بدواوين كديوان عمرو بن معد يكرب، والأفوه الأودي، وفروة بن مسيك المرادي، والنجاشي الحارثي، وأن هذا الشعر وهؤلاء الشعراء قد حظي كل منهما بعناية من الرواة والعلماء والنقاد مما سنوضحه عند الحديث عن تدوين الشعر المذحجي في مقدمة القسم الثاني من هذه الرسالة. وبذلك شكّل شعر مذحج وشعراؤها جزءاً من اللبّات التي رفعت بناء التراث العربي والإسلامي في مختلف أوجه التأليف، ونجد لبعض شعراء مذحج وشعرها مواقع في ذلك التراث، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التراث من قصائد أو مقطعات أو أبيات من شعر مذحج،

فانتشر بعض ذلك الشعر في كتب الاختيارات والأدب والبلاغة والمعاجم
واللغة والنحو والتاريخ والتراجم والبلدان، مما اعتمدتُ عليها في جمع شعر
مذحج وشعرائها، ولقد كان هذا الشعر خير مدد للعلماء والمؤلفين في
مصنفاتهم، يوضحون من خلاله الظواهر اللغوية والشواهد النحوية
والأحداث التاريخية وأوجه البلاغة في القول وبنية الألفاظ العربية المعجمية،
بجانب أهميتها البالغة في تحديد المواضع والأماكن والديار.

